دكتور
عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني

الهمزية في مدح خير البرية ﷺ
رائعة الإمام البوصيري رضي الله عنه

[٤٥٧ بيتاً] عرض وشرح وتحليل

سيرة. تاريخ. حوار. بلاغة. أدب. وصف

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٢٣٩١١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

اسم الكتاب:
الهمزية في مدح خير البرية ﷺ
رائعة الإمام البوصيري رضي الله عنه
اسم المؤلف: دكتور عبد العظيم المطعني
الطبعة الثانية ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٢٠٠ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١٨١٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

صاحب هذه القصيدة «الهمزية» هو الإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد ابن سعيد البوصيري ولد في «بوصير» بالصعيد، وهي بلد أبيه على الأصح. وهو من أصل مغربي كما يرى السيوطي في حسن المحاضرة. أما بلد أمه فهي «دلاص» ولذلك كانوا يطلقون عليه «الدلاصيري» جامعين في نسبه بين بلد أبيه وبلد أمه، ثم غلب عليه لقب «البوصيري» فعرف به. وكان مولده في أوائل القرن السابع الهجري (٦٠٨هـ) وتوفي سنة ٦٩٦هـ كما يقول المقريزي. أو سنة ٦٩٤هـ واختار هذا القول شيخ الإسلام العسقلاني.

عاش الإمام البوصيري ـ إذن ـ في القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي). وهو قرن شهد أحداثاً مريرة لم يعرفها قرن سابق ولا لاحق. حيث تعرض العالم الإسلامي لغزو التتار الوحشي وسقطت بغداد على أيديهم سنة ٦٥٦هـ وبددوا مكتبة بغداد وأهدروا كرامة العلم والعلماء والخلفاء وعاثوا في الأرض فساداً. وظلت نذر الفوضى تهدد البلاد وصار القتلى في بغداد ودمشق يعدون بمئات الألوف وقتل الخليفة العباسي بتدبير وزيره ابن العلقمي وظلت البلاد بلا خليفة يدير أمرها، وكان ابن العلقمي كاسمه علقماً وصابا لا على الخليفة المستعصم الذي قتل بتدبيره فحسب، بل على حاضر العالم الإسلامي ومستقبله سواء.

وفي مصر يقتل سلطانها المعز أيبك بتدبير زوجته «شجرة الدر» ويتولى ابنه المنصور أمر مصر من بعده. وسرعان ما يهب قطز فيخلع المنصور إذ كان يرى عدم كفاءته للإمارة والبلاد تتعرض للخطر الداهم. ويتولى قطز أمر البلاد ويحارب التتار فينتصر عليهم في موقعة «عين جالوت» وينزل قطز بالمصريين كثيراً من صور الظلم

فينتهز الظاهر بيبرس هذه الفرصة ويدبر مؤامرة لاغتيال قطز ويقتل قطز ويقفز الظاهر بيبرس إلى «عرش» الحكم . ويتودد للعباسيين فيستقدم المستنصر بالله من العراق إلى مصر ، ويحيي به عهد الخلافة لبني العباس فيبايعه ويتابعه في هذه البيعة العلماء والأمراء. ولم تكد تمر ستة أشهر حتى يختفي الخليفة العباسي بمصر . ويظل الاضطراب في شئون السياسة أمراً ملحوظاً في مصر بعد اختفاء المستنصر بالله .

وكان سوء الحالة الاجتماعية صنو الاضطراب السياسي ، فقد ظل الأمراء والسلاطين من المماليك يرفلون في حلل النعيم ، وكانت بيوتهم عامرة بالتحف وزخارف الحياة ، وخربت الذمم وضاعت الأمانة وأصبح الضعيف طعمة للقوي .

وتبع ذلك كله اضمحلال في الحياة الأدبية والفكرية . واشتغل الناس باجترار ذكريات الماضي ، وتوقفت الحركة العلمية والأدبية عن الابتكار ولجأ الشعراء إلى الاعتناء بالشكل دون المضمون ، وأسرفوا في استعمال البديع وآذن كل نجم بالأفول .

في هذا الجو عاش البوصيري ، وكأنه لم يرض بواقع الناس ، وآلمه حاضر المجتمع الإسلامي لما انتابه من فتن وجوائح فأخذ ينقد تصرفات المحيطين به في العمل . وضمن ذلك قصيدة كان مطلعها :

نقدت طوائف المستخدمينا   فلم أر فيهم رجلاً أمينا

هذه القصيدة كانت رفضاً قوياً لأنماط كان البوصيري يراها عن يمينه وعن شماله . ولعلها كانت بداية لمرحلة جديدة من حياته أخصبت أروع ما يكون الخصب . والرجل الذي بدأ ينفر من صور الخداع وسوء الخلق طبعي فيه أن يهش لفعل الخير . وكذلك كان البوصيري . لذلك تراه يسرع في مباركة كل بادرة خير تصدر عن أحد معاصريه فقد أنشأ السلطان المنصور قلاوون مدرسة ومستشفى . فحيا البوصيري فيه هذه الروح ومدحه بقصيدة كان مطلعها :

أنشأت مدرسة ومارستانا   لتصحح الأديان والأبدانا

ومالبث البوصيري أن ترك وظيفته واتجه صوب التصوف عله يجد فيه متنفساً من الضيق الذي يعانيه . ولزم صحبة العارف بالله أبي العباس المرسي الذائع الصيت .

فكان لهذه الصحبة المباركة أثرها العميق في توجيه البوصيري وصفاء روحه وقلبه ومن الله عليه بنعمة الهداية والتوفيق فعلا ذكره . وشاع أمره بين الناس ، وفاق أهل زمانه شهرة وفضلا ولا يزال مسجداهما متجاورين بمدينة الإسكندرية . إنها صحبة لم تقتصر على مرحلة الحياة الدنيا ؛ فوصل الله أسبابها حتى بعد الموت !

ولم يكن تصوف البوصيري تصوف دروشة ومظهر يتمثل في إطالة اللحية ، ولبس المرقعات وحمل المسابح الطويلة والاعتمام المزخرف . بل كان نقاء سريرة وصلاح عمل ، وتقوى وورعاً . إنه تصرف الرجال الفاقهين لمقاصد الشريعة الواعين لمراميها وأسرارها . ودليل هذا بردته الشهيرة التي تقطر رقة وصفاء وهمزيته الرائعة التي لم يحاكها أحد ولم يضع مثلها شاعر . فهي فريدة في هذا المجال بشهادة الفحول من نقاد الشعر وخبراء الأساليب وإن صاحب الذوق المثقف ليدرك متى قرأها في شيء من التأني والدرس أنها تحفة خالدة تحمل شحنة من المشاعر الصادقة . والأحاسيس النبيلة قل أن يأتي بمثلها الزمان .

وقد شغلت هذه «الهمزية» الأدباء والشعراء شرحاً وتربيعاً وتخميساً أو معارضة . ومازالت هي هي المورد لكل تلك «الجداول» تحتفظ بأصالتها في إباء وشموخ .

وقد تعددت الشروح ـ قديماً ـ التي اهتمت بهذه القصيدة . شرحها أحمد ابن يوسف الشهير بابن قطيع المالكي ، وشرحها الشمس الدلجي شيخ ابن حجر ، وشرحها الشيخ أبو الفضل المالكي ، والشيخ أحمد بن عبد الحق السنباطي ولم أعثر من هذه الشروح على شيء . وإنما عثرت على شرح كبير على ورق أصفر للشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي . وبهامشه حاشية للشيخ محمد الحنفي تم طبعها بالمطابع الأميرية سنة ١٢٩٢هـ أي منذ مائة وعشرين سنة ، ولعله أحدث الشروح القديمة .

وقد عاب ابن حجر الشروح التي تقدمت عليه لأنها اهتمت بمسائل العروض والقافية فلم تكن وافيه بالغرض لهذا السبب . ولكننا نراه ينحى مثل هذا المنحنى من حيث اهتمامه بالمباحث اللغوية كالنحو والصرف وغيرهما مختلطة بغيرها كما اتبع

في شرحه منهجاً يجد القارئ صعوبة بالغة إذا أراد أن يقف على معنى بيت أو كلمة معينة . حيث كان شرحه يتبع البيوت بيتاً بيتاً دون التمييز بينهما بفاصل أو كتابة البيت كتابة بارزة . بل اكتفى بوضع الكلمة من البيت بين علامتين هكذا (٠٠٠) وهذه طريقة مملة لا عهد للقارئ المعاصر بها . واعتزمت طالباً العون من الله على إخراجها في شرح حديث يجمع بين أصالة القديم وطرافة الحديث واتبعت في شرحها تقسيم الأبيات إلى مجموعات كل مجموعة ترتبط بفكرة خاصة مع كتابة تلك الأبيات كتابة مستقلة بارزة شرحت في الهامش غريب ما فيها من مفردات لغوية ، مشيراً إلى اللمحات البلاغية بقدر الإمكان . ثم أثبت في صلب الصفحة بعد مجموعة الأبيات شرح ما يتعلق بها من معان . ثم أتلوها بمجموعة أخرى وهكذا ، وقد يقوم البيت الواحد مقام المجموعة إذا كان معناه مستقلا . وعالجت في هذا الشرح كثيراً مما يراه القارئ المعاصر «مشكلة» فيما يتصل بالخوارق والمعجزات وطريقة بناء القصيدة مع الإشارة إلى مواطن «الإبداع» فيها . وأستأذنك عزيزي القارئ أن أضع أمامك الأسباب التي جعلتنى أهتم بأمر هذا الشرح وأبرزه لك من جديد . وإليك إياها :

١- إن الإمام البوصيري اشتهر بعمليه العظيمين البردة والهمزية ، وهما يمثلان جانباً مهماً في أدب المديح النبوي . فيجب أن ينالا عناية في الدرس والتأمل . وإذا كنا في معاهد تعليمنا وتثقيف طلابنا نهتم بشعراء غير البوصيري مدحوا في شعرهم رجالاً غير «محمد عليه السلام» فاهتمامنا بشعر البوصيري الذي قصره على مناقب «إمام المرسلين» يجب أن يكون أولى . لأن إحياءنا لغير هذا الشعر إحياء لحياتنا الأدبية أما إحياؤنا لهذا الشعر البوصيري ففيه إحياء لحياتنا الأدبية والدينية لما فيه من صدق وعمق ، والمادحون غيره ليسوا دائما على حق .

٢- إن الهمزية بصفة خاصة عمل أدبي عظيم ولو عرف مثلها لمشاهير الشعراء كأبي تمام والمتنبي لأقام الناس الدنيا دون أن يقعدوها حولها وحول شاعرها . ولكن لأن قائلها البوصيري . وموضوعها مناقب خير المرسلين فليكن نصيبها من

الاهتمام بين كتابنا ومفكرينا كتصيب الدين نفسه درجة ثانية أو ثالثة . أو لا شيء على الإطلاق . ولعل هذا السبب كان ألح الأسباب لدى لهذا الاعتبار .

٣- إن شاعرية البوصيري تتألق في هذه «الهمزية» وهي شاعرية من نوع خاص أحبت الحق وتغنت به مدحت وقصت ووصفت وجادلت وحاورت حسبما قالت، مدحت أحق الخلق بالمدح ، وقصت أجمل القصص ، ووصفت أصوب وصف وجادلت أحكم جدال فكان لها في كل مجال طرقة عبقرية فذة ، واستقصاء حكيم وسوف ترى كيف جادل عقائد المخالفين من أهل الكتاب ، وكيف وصف مشاعر النفوس ورحلته إلى أرض الوحي ومالقيه فيها من مشقة السفر فأجاد وأصاب إلى غير تلك المواقف التي فيها للمتأدبين قدوة ، وللمتذوقين لجمال الشعر وروعة التعبير متعة ورَوح ، ومن حق الشاعرية أن يكون لها بصيص من النور يكشف عنها اللثام ويبرزها للنظر .

٤- ورابع الأسباب أن كل ما وضع من شروح حولها لا يناسب روح العصر وحتى مع هذا فإنه أصبح من العسير الحصول عليها وقد علمنا أن أحدثها مر على طبعه أكثر من مائة عام . . من أجل هذا أقدم هذا العمل المتواضع لك أيها القارئ لعلنا - أنا وأنت - نسهم في إشراقها من جديد فهي جديرة بالإشراق لأنها تصف أول المسلمين وخاتم النبيين ، وما أحلى الحديث عن محمد ﷺ وعن شمائله وسيرته العطرة . فاللهم سدد خطانا وألهمنا الرشد وأجزل لنا العطاء يا خير من سئل وأكرم من أجاب .

دكتور

عبد العظيم إبراهيم المطعني

عفا الله عنه

بين يدي القصيدة

عرفنا أن الإمام البوصيري اشتهر بكل من « بردته » وقصيدته « الهمزية » أو قل : اشتهر من شعره هذان العملان العملاقان بحق . حتى حلا محلا رفيعاً جداً بين العمل الأدبي كله في القرن السابع ، أو قل في عهد المماليك على الإطلاق . وإن كانت البردة أكثر شهرة ، فالهمزية أطول نفساً ، وأكثر إيراقاً ، وأعم موضوعاً ، وأدق إحكاماً ، وأقوى بناء ، وأخلص فكرة ، وأبهى إشراقاً إنها « ملحمة » شعرية فريدة موضوعها حقائق سدة ولحمة ، وموضوعات غيرها من « الملاحم » أساطير طولا وعرضاً . فهي تبلغ سبعة وخمسين وأربعمائة بيت ، وليس للشعراء ولا للشعر عهد بهذا الطول خاصة إذا التزم الشاعر وزناً واحداً وقافيه واحدة في شعره ، وهي بهذا المقياس تعدل عشرات القصائد مما يعده الناس قصيدة في أدنى قدر لها أو أبعد قدر معروف عند الشعراء المقلين منهم والمكثرين .

إن عهد الشعراء بالشعر هو المتوسط فيه لأن طول القصيدة يعرض الشاعر للسقوط والتكلف والإعياء فلا يسلم شعره من النقد .

وطول القصيدة يتطلب استعداداً وافراً في تجربة الشاعر ولغته وقدرته على التعبير وقوة إحساسه . كما يتطلب « خصوبة » في موضوع القصيدة نفسها لأن الموضوع إذا تعددت جوانبه وفاض عطاؤه ساعد على إلهام الشاعر صورة بعد صورة ، ومشهداً بعد مشهد ، كلما أنهى فكرة يحسن التعبير عنها بدت له فكرة أخرى وهكذا حتى يبلغ حسب استعداداته ومواهبه وقدرته على الصياغة أبعد مدى ممكن في التصوير . أما إذا اضمحل الموضوع فلا سبيل للإطالة حتى مع وجود الموهبة والاستعداد . لأننا إذا شبهنا الشاعر بنازح ماء فإنه مهما نزح من « البحر » فلا يزال لنزحه موارد وموارد . أما إذا كان نزحه من « بركة » أو « مستنقع » فإن عدة من الدلاء قلت أو كثرت قد تأتي على « مائها » كله فإن حاول نزحاً بعد فلا ينزح سوى الطين !؟

وفي قصيدتنا هذه « الهمزية » توافرت كل عناصر الإطالة في موضوعها وفي قائلها على السواء .

فموضوع القصيدة هو «محمد بن عبد الله أول المسلمين، وخاتم النبيين» وحياة محمد عليه السلام وشمائله ومناقبه وخصائصه بحر عميق الغور مترامي الأطراف. ينزح منه النازحون فلا يأخذون إلا القليل، ويسبح فيه السابحون سبحاً مهما بعد فإنه إلى الشاطئ أقرب!! ويغوص فيه الغائصون غوصاً مهما عمق فإنه إلى السطح أدنى.

هذه حقيقة أدركها كل دارس لعظمة محمد عليه السلام واستفاضة موارد الفضل والكمال فيه وفي ذلك قال بعضهم:

وعلى تفنن واصفيه بوصفه ... يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

ويقول آخر:

فما بلغت كف امرئ متناولا ... من المجد إلا والذى فيه أطول

ولا بلغ المهدون في القول مدحة ... ولو حذقوا إلا فيه أفضل

وعذر هؤلاء جميعاً أن آيات القرآن قد مدحت محمداً عليه السلام بما هو أهله والقرآن لا يجامل أحداً ولا يحابيه، ولا يمدح إلا من يستحق المدح، ولا يمدح من استحق المدح إلا بما هو فيه. وإن آية واحدة في القرآن الحكيم مدحت محمداً عليه السلام مدحاً وجيزاً جداً في مبناه، عظيما جداً في معناه حيث يقول الله تعالى مخاطباً رسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) هذه الآية الكريمة قد جمعت كل متفرق، وانتظمت كل فضل فماذا - ياترى - يقول المادحون بعدها؟!

وليست هذه الآية وحدها: فإن في القرآن آيات متعددات أثنت على محمد عليه السلام، وجمعت فأوعت. فإذا مدحه بعدها المادحون حاموا حول الحمى ولن يبلغوه، وأصابوا بعضه ولن يستقصوه. فدون البلوغ والاستقصاء أمد بعيد. وفي ذلك يقول ابن الفارض السعدي. وصدق فيما يقول:

أرى كل مدح في النبي مقصراً ... وإن بالغ المثني عليه فأكثرا

إذا الله أثنى بالذي هو أهله ... عليه فما مقدار ما يمدح الورى

إن موضوع هذه القصيدة «الهمزية» أغنى ما يتحدث عنه المتحدثون وأوسع ما يتناوله الكاتبون. ولو أن شعراء مثل البوصيري أتوا بقصائد مثل «الهمزية» على وفق حروف الهجاء بائية وتائية وثائية وجيمية وحائية وخائية... وتوسعوا فيها

مثلما توسع البوصيري في «همزيته» لما استقصوا جوانب الفضل في تلك «الشخصية» الفذة . ذات الكمال الحق والسجايا العطرة ، والمنزلة الرفيعة .

ففي القرآن الكريم وصفان لمحمد عليه السلام . أو منزلتان لم ينعم الله بمثلهما على مخلوق قط . ولم يصف بهما مخلوقاً قط . ولم يشغلهما من عباده أحد قط . خلقا لمحمد عليه السلام وخلق محمد لهما ، فهما له وهو لهما .

أولهما أنه أول المسلمين ، وثانيهما أنه «خاتم النبيين» فبماذا استحق محمد عليه السلام أن يكون أول المسلمين . ؟ وبماذا استحق أن يكون خاتم النبيين .

فالأولية ترجع في جملتها إلى طهارة العقيدة والسلوك . وفي هذين المجالين حقق محمد عليه السلام ما يرضي خالقه عنه ، فليست هناك عقيدة أصح وأقوى من عقيدته ، وليس هناك سلوك أسمى وأفضل من سلوكه . كل فضل قدمه عبد في محاريب العبادة ، أو في ميادين الجهاد . كان الفضل الذي قدمه محمد عليه السلام أسمى وأعظم منه . وكل عقيدة اعتقدها عبد مقرب إلى الله كانت عقيدة محمد عليه السلام في الله أصح وأقوى وطاعته لله أسرع وأوجب ، وبهذا صار محمد أول المسلمين كل المسلمين أنبياء ومرسلين ، وصديقين وشهداء في كل الأمم . إذ المراد من «المسلمين» الإسلام بمعنى الطاعة وليس ما يخص أمته عليه السلام .

محمد عليه السلام أعرف الخلق بالله ، وأتقاهم له وأخشاهم منه وأقربهم إليه ، لأنه أولهم .

والخاتمية : مرجعها كمال الهداية فيما جاء به لريادة الحياة في جميع مجالاتها حتى يرث الله الأرض ومن عليها . فلم يكن ما جاء به نوح مثلا كافياً لهداية البشرية في تاريخها الطويل ، ولم يكن ما جاء به إبراهيم ، ولا ما جاء به موسى . ولا ما جاء به عيسى وغيرهم من الرسل عليهم الصلاة وأزكى السلام . لم يكن كل ذلك ولا بعضه كافياً لهداية البشرية ولذلك لم يصلح أي منهم أن يكون خاتم النبيين ، لأن المجال بعد لم يزل فيه متسع لحق يقال وشريعة توضح ، ووحي ينير . فلما بعث الله محمداً عليه السلام بالقول الفصل ، واشتملت رسالته على كل منابع الهدى والرشاد ، وصلحت لريادة الحياة على امتداد تاريخها الطويل عصراً تلو عصر ،وجيلا بعد جيل .

جفت الأقلام ، وطويت الصحف ، وكمل الدين وختمت الرسالات وتمت النعمة . واستقر في الأرض زادها النافع لها ، كما استقر فيها رزقها الكافل لحياتها . وكان محمد عليه السلام بهذا «خاتم النبيين» كما كان بما تقدم أول المسلمين . وليس بعد هذه «الأولية» وتلك «الخاتمية» فضل لمرتاد ، أو مجال لمنافس . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم هذا فيما يختص بموضوع القصيدة .

أما ما يختص بقائلها فقد توافرت فيه عناصر الإطالة والإجادة من حيث الخصائص النفسية ، والقدرة اللغوية ، والإحاطة بدقائق الموضوع . من حيث الخصائص النفسية فقد دق إحساسه ورقت مشاعره الدينية بما راض به نفسه في آفاق التصوف الواعي العميق ، والتصوف في حقيقته إنما هو صفاء النفس وتخليصها من سلطان الشهوات والسمو بها في مدارج الكمال الروحي ولا جرم فقد كان البوصيري ﷺ تلميذ العارف بالله أبي العباس المرسي الذي أحب محمداً ﷺ واتخذ من شريعته طريقه إلى الله حتى أصبح استشعار عظمته عليه السلام ماثلا في خاطره في كل حين وكان أبو العباس المرسي يقول : لوغاب ذكر محمد عليه السلام عن خاطري طرفة عين ما عددت نفسي مسلماً ، فإذا كان هذا هو حال الأستاذ فإن حال التلميذ كانت صورة صادقة من حال أستاذه . فغمر قلبه بحب الله ورسوله وصحابته وتابعيه . وحمله هذا الحب على دراسة السيرة الطاهرة وأحاط بدقائقها . وتلك الإحاطة كانت مدده الذي لم ينقطع وهو يصوغ قصيدته الرائعة حقاً «الهمزية» وكمل له بهذين وفرة الخصائص النفسية وغزارة المادة المعبر عنها . وهما عنصران هامان وراء تلك الإطالة . وكان وراء هذا كله عاطفة مشبوبة وإحساس صادق وراء كل كلمة في هذه الدرة اليتيمة والروضة الفيحاء .

أما القدرة اللغوية فلا دليل لي عليها سوى ما يراه القارئ لقصيدته من ائتلاف قوافيها المتعددة سواء مع المعنى الجزئي المعبر عنه في البيت الواحد ، أو المعنى الكلي المراعى فيه مجموع أبيات القصيدة كلها ، وكفى دليلا على ذلك أن كلمات القوافي لم يلحظ فيها التكرار على الرغم من بلوغها أكثر من أربعمائة كلمة . كما أن ما شاع في أبيات القصيدة من ألفاظ وتعبيرات يدل على تمكن البوصيري من ناصية البيان .

وميزة أخرى تراها في هذه القصيدة ، وهي استواؤها كلها في درجة واحدة من القوة والرصانة ، فلا تحس في بيت واحد من أبياتها أنه فتر فيه أو هبطت شاعريته ، أو تكلف معناه ، أو اقتسر لفظه ، صحيح أن فيها أبياتاً بلغت القمة في الروعة والجمال وقوة التأثير ، وهذا لا يؤثر في سلامة القصيدة وقوة صياغتها .

وقد اختار الناظم بحر الخفيف فنظم عليه جميع أبياتها . وقد شهد العروضيون بسلامة القصيدة من عيوب النظم وأوزان بحر الخفيف الذى نظم عليه الشاعر قصيدته هي :

فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن   فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن

وهي من الأبحر ذات التفاعيل الست وكل تفعيلة مكونة من سبع وحدات صوتية - في الأغلب - فيكون عدد الوحدات الصوتية في البيت الواحد اثنتين وأربعين وحدة ، ومع هذا كله خلصت القصيدة من عيوب النظم والقافية . يقول العلامة ابن حجر في وصفه لها :

« . . السالمة من عيوب الشعر من حيث العروض كإدخال عروض على أخرى ، وضرب على آخر ومن حيث فن القوافي كالإيطاء . . . والإقواء . . »[1].

ومن المزايا التي شاعت في هذه القصيدة فوق ما تقدم كثرة الصور البلاغية من تشبيه ومجاز وكناية وبديع . وهو على كثرته فيها لا ترى فيه تكلفاً ولا غموضاً وإنما وقع موقعه من حيث اقتضاء المعنى إياه ومن حيث صفاء اللفظ وانسجامه مع ما سبقه وما لحق به . فلا يكاد بيت من قصيدته يخلو من تلك الصور ، وقد يجتمع في البيت الواحد ألوان شتى من التصوير البلاغي الأنيق فتستعذبها جميعاً ، وتستطيبها جميعاً . وقد تعروك نشوة ويستهويك طرب مما تقرأ له أو تسمع ، فتعيده أو تستعيده دونما ملل أوفتور .

ففي أول بيت منها تطالعك استعارتان بينهما نسب وصلة :

كيفَ تَرقى رُقيكَ الأنبياءُ   ياسماءً ما طاولتها سماءُ؟!

---

(١) المنح المكية في شرح الهمزية ص ٥ طبعة قديمة والإيطاء والإقواء عيبان من عيوب القافية والأول هو تكرار لفظ القافية قبل سبعة أبيات تليه ، والثاني اختلاف حركة القافيتين .

أولاهما في « ترقى » وثانيهما في « سماء » وبين الرقي والسماء من قوة التناسب ما لا يخفي أمره . ومن فضائل البيان أن كلمة « ترقى » قد استخدمها الشاعر في مجازها وحقيقتها اللغوية ، فقد أراد من الرقي المعنوي بعلو المراتب وسمو المنازل ، وهذا هو جانب المجاز في العبارة كما أراد الرقي الحسي المادي وهو العروج إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج وهذا هو جانب الحقيقة في العبارة واستثمار اللفظ في مجازه وحقيقته فضيلة بيانية لا تتأتى في كل الأحوال .

كما جاء في البيت لونان من البديع هما رد العجز على الصدر أو التصدير وذلك سماء وسماء حيث وقعت الأولى في صدر الشطر الثاني من البيت ، ووقعت الثانية في آخره ، والجناس اللفظي بينهما أيضاً ، وحيث قلنا إن في السماء الأولى استعارة حيث شبه محمداً ﷺ بالسماء ، فإن في السماء الثانية ترشيحاً للاستعارة ، لأنه من ملائمات المعنى المجازي ، وهو ترشيح غاية في الجودة ، ولا يفوتنا روعة الاستفهام المصدر به البيت وما فيه من فخامة وقوة .

ولا أظنك تختلف معي إذا قلت أن التشبيه الذي في قول الناظم :

إنما مَثلوا صِفاتِكَ للنا ... سِ كما مَثلَ النُجومَ السماءُ

شعلة مضيئة من شعل البيان الآسر ، وصورة مشرقة من صور الخيال المبدع ، ولو أن الفرزدق الذي سجد عندما سمع بيت لبيد :

وجلا السيول عن الطلول كأنها ... زُبرَ تجد متونها أقلامها

أتاح له القدر أن يسمع هذا البيت ، وهو الخبير بصياغة الشعر - لرآه أولى بالسجود من بيت لبيد ولما رفع جبهته من على الأرض ، ولوجد الفرزدق مواضع كثيرة جداً في هذه القصيدة لا يدين لها النقاد والأدباء إلا بالإعجاب إعجاباً وتقديراً مثلما فعل الفرزدق مع قول لبيد[1].

وغير ذلك كثير جادت به فيوضات العبقرية البوصيرية الشاعرة ، لا سبيل لتتبعها فذلك أمر صعب المنال ، فحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق !

---

(١) جاء في الوساطة للجرجاني ص١٧٨ أن الفرزدق سجد حين سمع قول لبيد المذكور ، فلما لامه بعض الحاضرين من العلماء قال الفرزدق أنتم تعرفون مواضع السجود من القرآن ، ونحن نعرف مواضع السجود من الشعر ولبيد يصف أثر السيل في المنازل القديمة البالية .

وميزة أخرى تراها في هذه القصيدة ، وهي أن الناظم قد حرص فيما أرى على أن يضع بين كل فقرتين لكل منهما فكرة خاصة بيتاً بمثابة الفاصلة بين هاتين الفقرتين بحيث تراه مشرقاً متلألئاً بينهما في شموخ وزهو . .

ولكنه مع هذا ليس غريباً في موضعه ، بل هو مثل العروة التي تربط بين لغتين بينهما رحم ماسة ، وهو أحياناً يجمع فيه ما تفرق من المعاني في سابقه ، أو يجعله دليلا ناصراً لفكرة أو أفكار سبقت ، أو مثلا أو حكمة وعلى كل حال فأنت واجد فيه روحاً وخفة واستطابة قد تملأ نفسك بالانبهار وتمتع ذوقك بالروعة ، وقد حرصت - بدوري - أن أولي تلك الأبيات الفواصل عناية خاصة بالتنبيه عليها في موضعها من هذا الشرح المتواضع وحتى أشركك معي في إدراك هذه الحقيقة - من الآن - فإني أضع أمامك نماذج منها علنا نتفق .

فصل الناظم بين المجموعة الأولى في القصيدة التي تتحدث عن محمد عليه السلام وهو سر من أسرار الغيب والمجموعة التي تتحدث عن بشائر قدومه فصل بين هاتين المجموعتين بقوله :

تتباهى بكَ العصورُ وتسمو   بِك علياءُ بعدها علياءُ

ويقول بعد ذكره النعم التي منَّ الله بها على حليمة السعدية مرضعة الرسول عليه السلام بسبب إرضاعها له :

وإذا سخرَ الإلهُ أناساً   لسعيدٍ فإنهُم سعداءُ

ويفصل بهذا البيت بين تلك الفقرة والفقرة التي تتحدث عن قدوم حليمة السعدية إلى مكة بعد انقضاء فترة الرضاع الأولى لعرضه على جده عبد المطلب .

ويقول عقب ذكره حب النبي للعبادة والنسك والخلوة والتأمل في مخلوقات الله :

وإذا حلتِ الهدايةُ قلباً   نشطت في العبادة الأعضاءُ

ويفصل بهذا البيت بين تلك الفقرة التي يتحدث فيها عن الخوارق التي صاحبت بعثته ﷺ .

ويقول بعد الفقرة التي تحدث فيها عن رفض المشركين دعوة الحق ، واهتداء المؤمنين بمحمد عليه السلام :

ربّ إنَّ الهدَى هُداك وآياتِكَ   نورٌ تهدي بها من تشاءُ

ويفصل به بين هذه الفقرة وبين الفقرة التي يشير فيها إلى بعض الخوارق ثم يعقبها بقوله فاصلا بينها وبين ما بعدها :

ويحَ قومٍ جفوا نبياً بأرضٍ ... ألِفَتْهُ ضِبابُها والظِباءُ

ويعرض بعد هذا البيت لحادث الهجرة ثم يذكر بعدها قوله :

وَتَغَنَّت بمدحه الجنُّ حتى ... أطرَبَ الأنسَ منه ذاك الغناءُ

ويبلغ ذروة الإجادة إذ يذكر بعد قصة الإسراء والمعراج هذا البيت :

رُتَبٌ تسقطُ الأمانيُّ حَسرى ... دُونها ما وَرَاءهُنَّ وَراءُ

ونمضي مع القصيدة غير بعيد ، فنرى الناظم يتحدث عما أصاب النبي من أذى القوم . ويتخيل أن بعض الناس ساوره الشكوك نحو : كيف يتعرض محمد عليه السلام لمثل هذا السوء ، أليس هو نبياً له عند الله كرامة وعهد . أيقلل من شأن محمد عند الله وعند الناس . ولكي يزيل الناظم هذا الوهم من الخواطر في ثلاثة أبيات أتى بها على شكل هرمي كان ثالثهما هو ذروة ذلك الهرم بلاغة وحكمة . يقول ﷺ :

لا تَخَل جَانِبَ النبيِّ مُضَامًا ... حين مسّتهُ منهم الأسوَاءُ

كلُّ أمرٍ نابَ النبيينَ فالشدةُ ... فيه محمودَةٌ والرَخاءُ

لو يَمسُّ النضارَ هونٌ من النـ ... ـارِ لما اختيرَ للنضارِ الصلاءُ

لله درك يا بوصيري . فما أروع ماقلت . فالله قد وصف أشد الرسل عذاباً من قومهم بأنهم «أولو العزم» فليس ينقص من قدر رسول مضاعفة عذاب قومه له ، بل هو شرف له ومثوبة ورفعة درجات . والرسل عند البوصيري مثلهم مثل الذهب . فالذهب يصهر بالنار فيزداد صفاء ولا يلحقه من النار هون ولا نقص ، وكذلك الرسل يزيدهم عناد قومهم وأذاهم قوة وشرفاً ، ويقيناً وثباتاً . وليس لنا من تعليق على هذا سوى قوله عليه السلام : «إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة» .

ويقول ﷺ مبيناً سعة حلم النبي عليه السلام :

جهِلت قومُه عليه فأغضى ... وأخو الحِلم دأبُهُ الإغضاءُ

ويقول ﷺ بعد وصفه مشهداً من مشاهد الرسالة والرسول وأن في ما جاء به عليه السلام كفاء للناس فلا حاجة بهم لهدي سوى هديه ، وشرع سوى شرعه :

أمعَ الصبحِ للنجومِ تجَلّ   أم مع الشمس للظلامِ بقاءُ؟

محمد عليه السلام ورسالته صبح وشمس . ومع إشراقة الصبح ، ونور الشمس تختفي الحاجة إلى « المصابيح » وتصبح تلك المصابيح لا جدوى لها . فالنجوم تتألق ليلاً في غيبة الصبح والظلام يغشى كل شيء . فإذا أقبل الصبح ، وآذن الله للشمس بشروق تبدد الظلام واختفى تألق النجوم .

ثم تأمل أخي المسلم روعة الاستفهام في صدرى شطري البيت . ثم تأمل روعة الصورة الأدبية التي أراد الناظم التعبير عنها لبيانها . فأحسن في التعبير والبيان .

لقد صفت ألفاظه حتى كأنها أصبحت غاية في نفسها لا معنى لها سوى ذلك الصفاء . ولقد صفت معانية حتى لكأنك تستقيها من غير لفظ دال عليها . صفاء ألفاظ مع صفاء معان من ورائها صفاء نفس وصدق إحساس وسحر مجاز .

هذا قليل من كثير مما حفلت به هذه « الوثيقة » الرائعة حقاً . والتحفة البيانية القمراء . وسنعرض عند الحديث لشرحها لكل الأبيات التي من هذا القبيل .

ويبقى بعد ذلك أمر مهم جداً نريد أن نحدد لنا موقفاً منه قبل الخوض في شرح القصيدة . ذلك أن الناظم سرد في قصيدته هذه ألواناً مختلفة من الخوارق التي صاحبت أمر الرسالة والرسول سواء وهو جنين في بطن أمه . أو عند ولادته ، أو حال رضاعه ، أو في مراحل نشأته واشتغاله بالتجارة ، أو عند وبعد بعثته الميمونة ، الطاهرة تلك الخوارق التي أرخى لها « الناظم » العنان فسيطرت على جانب كبير من « همزيته » يقف منها المثقف المعاصر مواقف مختلفة . فريق ينكرها جملة وتفصيلا ، لأنها لم تقم على أساس علمى مسلم . ولا هي من مسلمات العقل عنده . فهو ـ لهذا ـ يرفضها مطلقاً ويسمي التسليم جهلا ، كما يسميها هي في نفسها « خرافة » وهذا الفريق تغلب عليه نزعة الإلحاد وإن شاركهم في هذا الفهم فريق من المؤمنين .

وفريق آخر يتشكك فيها ولم يبلغ بها مبلغ الإنكار والرفض وإنما هي عنده أمور « ثانوية » تثبت إذا أيدها الدليل القاطع ، وتدفع إذا خلت من دليل مؤيد ، ويكاد هذا الرأى يكون هو الغالب في مثل هذه الأمور .

والذي سهل على الفريقين انتهاج هذا المنهج فيها ، أنها لم يشاهدها أحد من المعاصرين . لأن ظهورها كان في لحظة لم تطل على فرض وقوعها وأصبحت بعد

اختفائها خبراً من الأخبار التي تحتمل الإثبات والنفي أو الصدق والكذب ، والفرق بين منهجي الفريقين السالفين أن الفريق الأول يطبق عليها جانب النفي ، والثاني يجوز الأمرين ما لم يقم الدليل القاطع على ترجيح أحدهما .

وفريق ثالث ينهج فيها نهجاً ثالثاً هو التسليم بها جملة وتفصيلا حتى قيل إنها قد وقعت ، ويبنون ذلك على أن أي أمر من الأمور حتى ولو كان جائز الوقوع أو يقع بكثرة إنما ينكر وقوعه من حيث فاعله ، ومن حيث من وما وقع من أجله أي من حيث مفعوله وإن تعدد ، ولا نفي للشيء من حيث هو في نفسه إلا المستحيل المؤبد .

فالإقدام على الموت المحقق في رضا أمر لا يتكرر كثيراً في حياة الناس لأن الحياة مغرية ، ولكن قد تفعله أم شديدة الحب لابنها من أجل ذلك الابن المحبوب ، فإذا أحست بالخطر يقترب من ابنها تقدمت بلا تردد لتدفع عنه ذلك الخطر حتى ولو تأكدت أنها ستموت هي ليبقى هو . مادام في موتها فداء له وحياة ! .

فالموانع وإن كانت عظيمة تزال من أجل الغايات العظيمة ، كما أن الغايات الرخيصة يضن أمامها بالمانع وإن كان هينا أو تجتنب حتى مع عدم المانع وإذا طبقنا هذه القاعدة على مجال الخوارق والمعجزات التي كرَّم الله بها رسله وجدنا شروط الحصول متوافرة :

فالفاعل هو الله ، والله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فلا غرابة في حصول الخارقة أو المعجزة إذا كان فاعلها هو «الله» والمفعول من أجله هو الرسل وإثبات صدق دعواهم . ورسل الله عند الله لهم خطر عظيم ، ومنزلة لا تضارع فلا غرابة إذن في حصول الخارقة من أجلهم .

كما لم تكن غرابة في حصولها من حيث فاعلها ، ولا عبرة ـ هنا ـ بقوانين العلم والعقل . لأن الخارقة أو المعجزة لا تكون خارقة ولا معجزة إذا كانت خاضعة لقوانين العقل أو العلم أو العادة المألوفة لعامة الخلق ، صحيح أن الله تعالى ربط المسببات بأسبابها . وجعل وجوه المسبب مقتضياً لحصول سببه . هذا فيما يصدر عن الخلق من أعمال ، أما هو فلا خضوع لصنائعه لهذا القانون المسمى بقانون «السببية» فسلطان قدرته الفائقة فوق هذا القانون فجائز في حقه أن يوجد المسبب مع عدم

وجود السبب ، وتأييد رسله غاية عظيمة تزال من أجلها كل المواقع ، وليتنح العقل ، وليتوار العلم ولتختف العادة لتحصل المعجزة أو الخارقة ويحصل التصديق بالدعوى التي يدعيها الرسول لتصبح تلك الدعوى حقيقة راسخة في النفس بعد قيام الدليل على صحتها .

فالطوفان الذي غمر الكون في عهد نوح أمر خارق للمألوف ، لم يسبق له مثيل ، ولم يلحق به . فما هي إلا دعوة توجه بها نوح إلى ربه حيث يقول : ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ (القمر:١٠-١٢) فكان في ذلك معجزة لقومه وعبرة للمؤمنين .

وإبراهيم عليه السلام كان احتراقه بالنار حين ألقي فيها وقد أضرمت وتأججت . أمراً مسلماً في شريعة العقل والعلم والعادة ، فتتدخل القدرة العليا لتعطيل قوانين العقل والعلم ومجرى العادة ، وماهو إلا نداء واحد تحصل به المعجزة : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (الأنبياء:٦٩). فكانت النار برداً وسلاماً على إبراهيم . وحصلت المعجزة . كانت بردا فلم تحرقه ، وسلاماً فلم تؤذه .

وموسى عليه السلام قد جعل الله سره في «عصاه» فمرة يضرب بها الحجر فينفجر منه الماء ، ومرة يضرب بها البحر فينفلق فرقاً ، وثالثة ، يلقيها من يمينه فتنقلب حية تلقف ما فعل الساحرون . أفي ذلك خضوع للعقل أو العلم وقوانينهما ، أم خضوع للعادة . . لا . . وألف لا . ولم يكن ما فعله موسى عليه السلام سحراً وإنما كانت معجزات أنجزتها قدرة آمرة تدبر لها إرادة محكمة «ولتختف» كل من العقل والعلم والعادة مرة أخرى ولنترك المجال فسيحاً لحقائق الإيمان .

وعيسى عليه السلام ذلكم الطبيب المعجز بإذن ربه ، لم يقتصر طبه على شفاء المرضى وإنما زاول إحياء الموتى بإذن ربه ، والمخترع المعجز بإذن ربه لم يقف إبداعه عند «تنسيق الأشكال» بل صلح لبث الحياة فيها بإذن ربه فيصبح ما يصنعه من «أشكال» حيواناً كامل الحياة بإذن الله ، أكان في ذلك كله خضوع لعقل أو علم أو عادة . . لا . . وألف لا . . وإنما هي معجزات صانعها الوحيد هو الله لا غيره .

والمعجزات التي أيد الله بها محمداً عليه السلام إنما هي من جنس ما أيد الله بها سائر رسله من حيث إنها أمور لم يجر بها عرف ولا عادة ولم تخضع لقوانين العقل

أو العلم ، وهي بعد ذلك نوعان أحدهما مؤقت بزمن حصوله . والثاني مستمر إلى يوم القيامة ، وهو القرآن الحكيم . والنوع الأول أورد منه الناظم قدراً كبيراً مثل النور الذي صاحب ساعة مولده ، وتدلي النجوم ، وهتاف الملائكة والجن ، وشق صدره الشريف وإظلال الغمامة له ، وكذلك الشجر ، وتكليم ذراع الشاة المسمومة إلى غير ذلك من الخوارق . وهذه الأمور بالقياس إلى المعجزات التي ثبتت للرسل بنص القرآن الأمين لا يسع قلب المؤمن إلا التصديق بها لأن من يؤمن بالله يثبت له قدرة لا تعجز . فمتى ورد الخبر بها صلحت للاعتقاد بلا تردد .

والقلب الذي ينكرها ـ اعتماداً على أنها لم تستند إلى دليل عقلي أو علمي ـ قلب ليس فيه متسع للإيمان ، أو هو في حاجة إلى «ترويض» لتقبل حقائق الإيمان . فيسلم بما قوي عليه الدليل ، ويرد ما لم يؤيده دليل ، ولكن لا لأنه مستحيل الوقوع . بل لأن الدليل لم يقم على إثباته . ومن رحمة الله بالناس أنه لم يجعل رسالة محمد عليه السلام في حاجة إلى إثبات تلك الخوارق التي وقعت وانقطعت وتنازع الناس فيها بين مسلم ومنكر وإنما المعجزة الكبرى على صدق الرسالة إنما هو القرآن الخالد المستمر الوجود .

والسر في ذلك أن رسالة محمد عليه السلام خالدة مستمرة ، فوجب أن يكون الدليل القاطع على صحتها خالداً ومستمراً . فمن نازع في شيء من تلك الخوارق التي مضت فإنه لن يستطيع أن ينازع في معجزة الإسلام الكبرى لأنها بين أيدينا لم تغب ولن تغيب . وإليها يرجع مقياس التصديق لهذه الرسالة العظيمة . فالقرآن منزل من عند الله . ومن يشك في هذه الحقيقة فعليه أن يأتي بقرآن مثله وليستعن بمن شاء . فإن عجز ، ولابد أنه عاجز . فلا سبيل أمامه إلا التسليم بصدق المدعي .

على هذا النهج سنمضي في بيان تلك الخوارق وإن تعددت نصدق منها ما أيده الدليل . ونرد ما عداه مع التسليم ابتداء بأن دائرة الإيمان أرحب صدراً ، وأطول باعاً وأوسع أفقاً من مقررات العقل والعلم والعادة .

ويتصل بموضوع «الخوارق» من حيث تنازع الناس فيها موضوع آخر تعرض له الناظم في «همزيته» وهو التوسل بغير الله وبغير صفاته أو طلب النجدة من غير الله . وهذا الموضوع يثير حساسية بالغة بين المؤمنين سواء في المجال النظري البحت ،

أو المجال العملي التطبيقي فالوسيلة إلى الله نفسه ، أو بصفة من صفاته ليست محل خلاف بين الناس فالله مفزع خلقه وواهبهم أمنهم وقرارهم ، ومستجيب دعاءهم ورافع كربهم ومزيل همومهم . فليدعه المؤمن وليبتغ إليه الوسيلة به نفسه أو بصفة من صفاته الحميدة ، أو بعمل صالح قدمه المتوسل نفسه فنبينا عليه السلام كان يتوسل إلى الله بصفاته فكان يقول : «اللهم أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ..».

وورد في الحديث جواز التوسل إلى الله بالعمل الصالح الذي يقدمه المسلم نفسه أى بعمله هو لا بعمل غيره . وذكر شاهداً على ذلك قصة أصحاب الصخرة الذين انكفأت عليهم صخرة في كهف فسدته عليهم حتى كادوا يموتون فأخذ كل منهم - وكانوا ثلاثة - يتوسل إلى الله بعمل صالح قدمه ويرجو منه أن يفرج عنهم ما كانوا فيه ، فكان إذا ذكر أحدهم عمله انفرج جزء منها وهكذا فما كاد الثالث يذكر عمله ويتوسل به إلى الله حتى انفرجت الصخرة كلها وخرجوا مما نزل بهم .

أما التوسل إلى الله بغير الله أو صفاته ، أو العمل الصالح ، أو التوسل إلى غير الله أو طلب النجدة من غير الله فمنهج مرفوض عند المؤمنين . ومع ذلك نرى الناظم في «همزيته» هذه يفعل شيئاً من هذا الذي يعتبره كثير من المؤمنين مرفوضاً . فهل لذلك من باعث عنده؟

إن البوصيري رجل قد أرهف التصوف مشاعره وملأ حب محمد عليه السلام وخلفائه الراشدين ، وصحابته الطاهرين - نفسه فالتمس فيه وفيهم القدوة الحسنة ، وجعلهم مثله الأعلى في حياته الدينية وما لذلك من سبب سوى قربهم من الله ، وإخلاصهم له . وحبهم إياه .

فباعث التوسل عنده ليس كباعث التوسل عند العوام من اعتقادهم النفع والضر في جانب غير الله . البوصيري يتوسل في وعي كامل بحقائق الدين فهؤلاء هم القدوة الصالحة . ولهم عند الله فضل عظيم . محمد عليه السلام منزلته عند الله لم تعرف لمخلوق ، وصحابته الأطهار كفاهم فضلا أن ورد فيهم قوله تعالى يمدحهم : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ (الفتح:٢٩) .

ويقول فيهم عليه السلام : «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» .

ويقول : «لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدًّ أحدهم ولا نصيفه» .

فإذا توسل بهم البوصيري فلم يتوسل بهم إلا توسلا موصلا بالله في جملته وفي تفصيله . وعلى أن التوسل نوع من الاستشفاع والشفاعة جائزة بأركانها الثلاثة :

المتشفع ، والشافع ، والمشفوع عنده . وبواعثها هي حاجة المتشفع عند المشفوع عنده ، وضعف صلة المتشفع بالمشفوع عنده فتملي عليه حاجته أن يقرن طلبه إياها عند من يملك النفع والضر بعض مرجحات الاستجابة . فيلجأ إلى من هو قوي الصلة بالمشفوع عنده ليشفع له في قضائها . وقد يكون في الشفاعة نوع من الحياء والأدب من جانب الطالب نفسه «فهو يرى نفسه أقل من أن يواجه المشفوع عنده بطلبه لاتهامه نفسه بالقصور في جانبه . وبدهي أن المتشفع لا يرى الشافع إلا وسيلة بين يدي حاجته ، أما صاحب الفضل فهو المستجيب سواء كانت استجابته بناء على شفاعة أم استجابة مجردة .

وشعور البوصيري بتقصيره في جانب الله واتهام نفسه بالسوء هو الذي ألجأه إلى هذا التوسل الذي سنراه في موضعه مع شيء من التفصيل . ونراه يصرح بهذا القصور إذ يقول في كلمات كلهن إخلاص لمولى النعم وبارئ النسمات :

كنتُ في نومة الشباب فما ... استيقظتُ إلا ولِمتي شمطاء

وتماديتُ أقتفي أثر القومِ ... فطالت مسافةٌ واقتفاءُ

فور السائرينَ وهو أمامي ... سُبُل وعرة وأرض عراء

حَمِدَ المُدلجونَ غِبَّ سُراهُم ... وكفى من تخلف الإبطاءُ

ثم يقول :

وتذكرتُ رحمة الله فالبشـ ... ـرُ لوجهي أني أنتحي تلقاءُ

فألح الرجاء والخوفُ بالقلـ ... ـبِ وللخوف والرجاء إخفاءُ

صالح لا تأس أن ضعُفت عن ... الطاعة واستأثرت بها الأقوياءُ

إن لله رحمــــةً وأحـــقُّ النـــاِ س بالرحمـــــةِ الضُّـــــعفاءُ !

فابق في العُرج عند مُنقلب الـذو د ففي العود تســبقُ العرجــاءُ !

فالرجل لا يطلب الفضل إلا من موليه ، وهو الله ، ولكنه حين جد في الطلب وجد قوماً قد سبقوه فأصبح وراءهم أماماً له وبينهم وبينه مسافات ومسافات ، وأرض وعرة السير ، فهو يطلب من أولئك السابقين الذين بلغوا الغاية أن يعتذروا له ، فهو قادم وراءهم ولكن وصوله ـ لا محالة سيجيء متأخراً . وعزاؤه في هذه أمله في رحمه الله الواسعة فهو كلما تذكر تلك الرحمة تهلل وجهه واستبشر أنه ضعيف ورحمة الله بالضعفاء ألصق ، وهم بها أحق .

والبوصيري في هذا التوسل متشفع أو طالب شفاعة ، أما المقصود الأعظم له ـ في تحقيق ما يرجوه ـ فهو الله ، والله وحده فلولا قرب من توسل بهم من الله . وحبه لهم لحسن صلتهم بالله لما اتخذ منهم مثله الأعلى ، ولما أعارهم من حبه وولائه حبة خردل .

فرحم الله الإمام البوصيري خنساء أهل الفضل في البكاء عليهم وحسّانهم في صوغ آيات مدحهم . وهو نفسه قد أضفى على نفسه هذين الوصفين إذ يقول :

أنا حسّان مدحكم فـإذا نُحْـــ ـــت عليكم فـإنني الخنســاء؟!

رحم الله البوصيري ، فهو وحده العليم بمقصده مما قال ، الخبير ببواعث قوله ، ودقائق مشاعره . وهبه قد أساء في بعض المواضع ، أو جانبه الصواب وهو يتوخاه . فإن مواضع قصوره أو حتى إساءته على فرض وقوعها ، لهي ككلف القمر لم يحل وجوده به من تألقه وجعله مضرب المثل في البهاء والرفعة .

والآن أدعوك عزيزي القارئ لنبدأ معاً ـ رحلتنا الطويلة مع هذه التحفة ولا يخيفنك طول الرحلة لأنها ممتعة وممتعة .

* * *

مطلع القصيدة

قال ﷺ :

كيــفَ ترقــى رُقيــكَ الأنبيــاءُ ... ياسمــاءً مــا طاوَلتــها سمــاءُ[1]

بدأ الإمام البوصيري ﷺ همزيته في مدح النبي عليه السلام بهذا المطلع الجميل المشرق . ومطالع الكلام لها وقع خاص عند السامع ، ولذلك فإن الأدباء والكتاب والمفكرين يعنون عناية خاصة بمطالع كلامهم حتى يروق القارئ والسامع والنقاد على السواء . وكم مدح النقاد مطالع أوفاها قائلوها حقاً من صفاء اللفظ وروعة المعنى . وكم ذموا مطالع لقصورها عن الكمال .

فمن ما مدحوه قول أبي محمد الخازن يهنئ ابن عباد بمولود جديد ، قال فيه :

بشرى . فقد أنجز الإقبال ما وعدا ... وكوكب المجد في أفق العلى صعدا

لأنه جمع إشراق اللفظ ، وحلاوة المعنى . ومدحوا كذلك مطلع قصيدة لأشجع السلمي يمدح قصراً قال فيه :

قصــرٌ عليــه تحيــة وســلام ... خلعــت عليــه جمالهــا الأيــامُ

وهو ، وإن لم يكن في حُسن السابق ، فإنه لم يخل من الروعة التي أضفى عليها المجاز في شطره الثاني سحراً وجدة .

وأثنى النقاد كذلك على قول القطامي في مخاطبة آثار الديار حيث جاء فيه :

إنــمّا محيوك فاسلم أيهــا الطلــل ... وإن بليت وإن طالت بك الطيل[2]

---

(١) كيف : اسم استفهام مقصود منه التعجب والإنكار

ترقى : تصعد من الرقي بمعنى الصعود حسياً أو معنوياً . والمراد منه هنا كلا نوعيه الحسي والمعنوي .

سماء : الأولى المراد منها محمد عليه السلام .

وسماء :الثانية المراد منها الأنبياء والرسل ما عدا محمداً عليه السلام . وهما استعارتان أصليتان تصريحيتان . وسماء الأولى منصوبة وإن كانت نكرة مقصودة ، لأنها موصوفة فهي شبيهة بالمنادى المضاف .

وطاولتها : غالبتها من التطاول بمعنى التجاوز والغلبة .

(٢) الطلل : ما بقي من آثار ديار الأحبة .

الطيل : أماد الدهر .

الشاعر وفيٌّ باقٍ على عهده ، لم يتغير وإن ذهب أحباؤه وعفت ديارهم ، وهذه نزعة إنسانية محمودة ، ولهذا فإن النقاد يوصون أن يكون قول القطامي هذا قدوة لمن يبكي الديار ، ويجتر الذكريات .

ولهم في جمال المطلع بحوث مستفيضة وممتعة يكفينا منها ما ذكرناه وحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق كما يقولون .

أما المطالع التي تقصر عن الكمال فلا وزن لها لا عند الناقد ولا عند السامع . ومن أمثلة ما ردوه منها قول أحد الشعراء يرثي المتوكل :

مات الخليفة أيها الثقلان ... فكأنني أفطرت في رمضان

هذا الشاعر نعى الخليفة في الشطر الأول إلى الثقلين : الإنس والجن . فسما أيما سمو ثم عاد وشبه أثر موته في نفسه ـ في الشطر الثاني ـ بإفطاره في رمضان!؟ .

ولا علاقة بين الحادثتين . فموت الخليفة مصيبة عامة والشاعر نفسه لم يرض أن يكون المتأثر بها الإنس وحدهم ، بل جعل أثرها عند الجن كأثرها عند الإنس ، ولذلك نعاه إليهما . أما إفطاره في رمضان فتلك مصيبة خاصة به نفسه لاتعدوه إلى سواه . فكيف ساغ له أن يسوي بينهما؟!

وحتى الإفطار في رمضان ليس جريمة في كل حال . فقد يكون إفطاره لعذر فلا جريمة حينئذ وقد يكون إفطاره حال الغروب ، وهذا أمر واجب . وعلى كلٍّ فالشاعر ليس موفقاً في هذا المطلع الخافت . والنقاد على حق في رده وعده من المطالع السيئة . والشاعر الذي يتعثر بعد الخطوة الأولى مباشرة يصبح عاجزاً عن السير إلى نهاية الطريق .

ويروى أن أحد البرامكة بنى داراً أنيقة ودعا الشعراء لوصفها والتغني بجمالها فقال أحدهم :

أربع البلى إن الخشوع لبادِ ... عليك وإني لم أخنك ودادي

سلامٌ على الدنيا إذا مارحلتموا ... بني برمك ، من رائحين وغاد[1]

---

(١) الربع : الدار . البلى : الفناء . باد : ظاهر

رائح وغادى : بين الرواح والغدو وهما وقت الصباح ، ووقت المساء .

والمعنى : يا دار الفناء إن الخشوع ظاهر عليك وأنا وفي بعهدك ، وليس للدنيا وجود بعد ذهابكم وخلوها منكم يا بني برمك؟! .

وقع هذا القول موقعاً سيئا من نفس صاحب الدار ، ومن نفوس الحاضرين ، لأن الشاعر تنبأ ، وهو في حفل الافتتاح ، بنهاية الدار ، بل وبنهاية بني برمك جميعاً . فلم ينل قوله هذا إلا السخط والملل .

ومن جمال المطلع أو حسن الابتداء اعتبار لطيف يسميه البلاغيون براعة الاستهلال ويعنون منه أن يكون مطلع الكلام دالا على موضوعه من أول وهلة . وقد تحقق ذلك في قول أبي محمد الخازن «بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا» كما تجلى في قول أبى تمام يهنئ المعتصم بفتح عمورية بعد أن أنبأه المنجمون بأن الفتح لن يتم في الوقت الذي أصر على قتال العدو فيه . قال أبو تمام :

السيفُ أصدق إنباء من الكتبِ ... في حده الحد بين الجد واللعب

لأن معناه أن القوة حققت الانتصار والفتح فصدقت وكذب المنجمون حيث جاء الأمر على خلاف مازعموا .

وبذلك المطلع الحكيم الدال على موضوع القصيدة كلها حاز أبو تمام الحسنيين : جودة المطلع في نفسه ، وبراعة الاستهلال بالدلالة على موضوعه وهذا مسلك يقل المجيدون فيه .

وحين نتأمل مطلع الإمام البوصيري الذي استفتح به هذا العمل الفذ نجده قد استجمع فيه كل مقومات الجمال الشكلي والموضوعي . صفاء وإشراق ألفاظ ، وشرف وقوة معنى يتعانقان في ألفه وإحكام مع جلال الموضوع وخطره ونظرة واحدة تريك أن هذا المطلع يتألق كالشمس الصافية ألفاظاً ومعاني . . أما الألفاظ ، فليس من بينها لفظ واحد يخلو من الرفعة والتألق . خذ إليك كلمتي «ترقى رقيك» والرقي الصعود والصاعد متألق دائماً ؛ لأنه يتسامى بصعوده فيخترق حاجز «الخمول»!

وكلمة «الأنبياء» ملحوظ فيها الرفعة حساً ومعنى . أما حساً فلأن أصل كلمة «نبي» هو «النبوة» وهي المكان المرتفع وهذا أحد قولين في بيان أصل هذه الكلمة . والقول الثاني أن أصله «النبأ» بمعنى الخبر . لأن النبي مخبر «عن الله ما أوحى إليه من شرع ، أو هو مخبَّر من الله» . والخبر ملحوظ فيه الذيوع والانتشار كما قال الشاعر :

ألم يأتيك والأنباء تنمي بما لاقت لبون بني زياد[1]

أي والأخبار من شأنها الذيوع . وحتى اشتقاقه من « النبأ » على هذا الرأي ــ دون الخبر ـ لأن النبأ لا يطلق إلا على الخبر العظيم . وفي ذلك تعظيم لشأن الأنبياء رائع جداً ، ودقيق جداً . أما الخبر فيطلق على العظيم وعلى غير العظيم . هذا هو جانب الرفعة الحسية في كلمة « نبي » أما الرفعة المعنوية فلأن كل نبي هو أشرف أهل زمانه ، لأنه موجه من الله ومختار منه والله لا يختار إلا الصالحين من عباده . ثم انظر إلى كلمات الشطر الثاني من البيت « ياسماء ما طاولتها سماء » فهل هناك ـ فيما ترى الأبصار ـ شيء يعلو السماء؟ لا . . وإذا جاز ورأينا سماء تنافس أخرى أيكون شيء ما أكثر منهما صعوداً وأبعد رفعة؟ لا . .

وحتى « كيف » وهي الكلمة الأولى في المطلع نصيبها من الرفعة ، مكفول ومحفوظ ، لأن المراد منها التعجب وهو لا يكون إلا من الأمور التي شأنها الندرة وعدم التكرار ، أو العظمة وجلال القدر .

وهل تطلب ـ أخي القارئ ـ دليلا بعد رفعة معاني هذا المطلع ، بعد أن وقفت على رفعة ألفاظه؟.. إن الدليل ماثل بين يديك لا أراك في حاجة إلى من يرشدك إليه فالألفاظ أوعية المعاني ، وهل يدل اللفظ المتألق الرفيع إلا على معنى مثله متألق رفيع ذلك هو شأن هذا المطلع في نفسه .

أما براعة الاستهلال فإنها لم تر في مطلع على مثل ماهي عليه هنا . إن هذا البيت على قصره ، حيث لم يزد على ثماني كلمات عداً . قد أجمل في قدرة هائلة معاني القصيدة كلها وقد جاوزت خمسين وأربعمائة بيت . حتى أنه يخيل إليك أنه قائد يتقدم جنده وهم ممتثلون أمره ويسيرون خلفه في نظام عجيب لا يتحرك واحد منهم حركة وإن صغرت إلا بوحي من القائد ، وليس أحد منهم بأوثق صلة من الآخر بقائدهم العظيم . وهذا الإلهام المبدع ليس بغريب عن رجل أزكى الورع سريرته ، وأرهف مشاعره . وملك عليه حبه لإمام المرسلين وآل بيته فكره وعقله وقلبه وهواه فاكتسب شفافية الحس ، وألهم سداد القول ودلائل الحكمة .

---

(١) لم يجزم الفعل « يأتيك » بحذف حرف العلة ، لأنه مقول بلهجة قوم يرون جزم المعتل بالحركات المقدرة .

يقول مخاطباً أكرم من خاطبه الله : كيف يحوز غيرك من الأنبياء وهم ذو فضل وكرامة ، ما حزته أنت من الفضل والكرامة ، وكيف يصعدون من درج المعالي ما صعدت وأنت سماء لم تنافسها سماء فيما حباك الله به من جلائل نعمه ، وعظيم منحه ! ؟

إن القوم ـ الأنبياء ـ يعرفون فضلك . ويحفظون لك قدرك فأنت المفرد والعلم وأول المسلمين ، وخاتم النبيين ، وليس قبل الأول في الفضل ، ولابعد الخاتم فيه منزلة ليطمع فيها طامع . فقد أهَلك ربك فيما أنت له أهل ، وبهذا أخذ العهود والمواثيق على المصطفين الأخيار من عباده « أنبياء ورسلا » وفي ذلك ورد قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ (آل عمران: ٨١) .

وليس المراد من قول « الناظم » ـ ورقيك » الرقي الحسي فحسب الذي هو « المعراج » وإنما المراد الرقيان الحسي بمعناه المتقدم ، والمعنوي وهو الدرجات العالية التي خص بها ﷺ من بين الرسل ، وهي درجات لا حصر لها ، سنشير إلى بعضها في غضون الحديث .

وفي هذا المعنى يقول « النظام » في بردته المشهورة :

فاق النبيين في خَلْق وفي خُلُق ... ولم يدانوه في علم ولا كرم[1]

وقوله ﷺ :

لم يساووك في علاك ، وقد حا ... ل سنامك دونهم وسناء[2]

إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجوم الماء

أنت مصباح كل فضل فما تصـ ... ـدر إلا عن ضوئك الأضواء

---

(١) فاق : علا وزاد . خلق : الخلقة الحسية . خلق : الطبع والسلوك .
لم يدانوه : لم يقاربوه . وهذه الجملة تأكيد لما قبلها .

(٢) حال : منع . سنا بدون همز : النور والبهاء . وسناء المهموز : هو الرفعة والشرف . مثلوا : صوروا .
تصدر : تأتي وتظهر .

بعد ذلك الإجمال البديع الذي ضمنه «الناظم» مطلع قصيدته ، بدأ يفصل ويشرح مظاهر الفضل والنعم التي منحها الله رسوله محمداً عليه وعلى جميع الرسل أفضل صلاة ، وأزكى تسليم ، وفي الشطر الأول من البيت الأول من هذه المجموعة تأكيد للمعنى المشار إليه في البيت الأول (المطلع) لأن معنى قوله «لم يساووك في علاك» هو معنى قوله السابق «كيف ترقى رقيك الأنبياء»؟

والمراد من «علاك» ما خصك الله به من الفضل ، ثم بين الناظم «سبب نفي المساواة بينه ، وبين الأنبياء عليهم السلام وهو أن الجمال الحسي وكمال الخلقة التي وهبها الله رسوله وخلوها من كل عيب ظاهر أو خفي ، ثم الشرف الرفيع الذي أضفاه الله عليه ، هذان كانا هما السبب الذي جعل الأنبياء في منزلة دون منزلة محمد عليه السلام خَلقاً وخُلقاً .

وفي ذلك يقول الناظم في بردته :

منزه عن شريك في محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم[1]

ويقول شوقي في همزيته النبوية :

أما الجمال ؛ فأنت شمس سمائه ... وملاحة الصديق منك إياء[2]

ويقول آخر يخاطب سيد المرسلين عليه السلام :

خلقت مبرأ من كل عيب ... كأنك قد خُلقتَ كما تشاء

ولنا وقفة قصيرة مع هذا التشبيه : كأنك قد خلقت كما تشاء «فإن الشاعر أتى به لبيان ما كان عليه ـ عليه السلام ـ من حسن ووضاءة ، وبراءة من العيوب ؛ لأن الذي تتاح له فرصة أن يختار الصورة التي يخلق عليها ينتقي لنفسه أروع وأجمل ما يراه . وهو بهذا الاعتبار ـ يعني التشبيه المذكور ـ مؤد للغرض الذي أراده منه الشاعر ، ولكن محمداً عليه السلام ، لم يخلق كما يشاء . فهل معنى هذا أن شيئاً من الكمال قد فاته؟ وأنه لو كان قد خير لاختار ماهو أفضل مما كان عليه كلاً ، وألف كلاً لأن محمداً عليه السلام خلق كما يشاء له ربه . فأبداه على أكمل صورة من الكمال الحسي

---

(١) جوهر الحسن : أصله يعني أنه كامل الحسن لم يغب عنه شيء .

(٢) إياء : نور الشمس : يعني أنه عليه السلام جمال الجمال ففي البيت تشبيه وخيال رائع .

والمعنوي ، والله وسع كل شيء علماً ، فما شاءه لرسوله كان هو الكمال ؛ لأنه لم يبخل عليه بشيء منه . وخيرة الله للعبد ، ولاسيما محمد ، خير من خيرة العبد لنفسه .

والأنبياء عباد مصطفون ، قلوبهم طاهرة ، ونفوسهم بالفضل عامرة ، اختارهم الله سفراء له ، يبلغون رسالاته للناس . وما من نبي أرسل إلى قوم إلا كان هو أزكاهم عند الله وأقربهم إليه ، وأرضاهم لديه ، وأعرفهم بحقه ، وألزمهم بطاعته ، وأخشاهم منه وأرجاهم له ، وأكثرهم ثقة فيه . أقوالهم حكمة ، وأفعالهم قدوة ، كلامهم إرشاد ، وصمتهم ذكر وذكرهم رحمة . هم مصابيح يبددون حجب الظلام ، وملائكة أطهار ينشرون العدل والحب والوئام . كرماء لا يبخلون ، كرام لا يذلون ، منصفون لا يجورون . أمناء لا يخونون ، أوفياء لا يغدرون ، صادقون لا يكذبون ولا يغترون . عفاف لا يتبذلون . شجعان لا يجبنون ، حلماء لا يطيشون ، حكماء لا يعبثون . صرحاء لا يتلونون .

وحسبك أن تسمع اسم واحد منهم يتلى في آية ، أو يجري على لسان خطيب ، فتتذكر دوره في الحياة ، وجهاده في الحق ، وبلاءه في سبيل الله ، وخلقه بين قومه ، ومآثره الخالدة التي وعاها سمع التاريخ ، ورددتها الأجيال في عصورها المختلفة . إنهم رواد الهدى وأبطال الكفاح ، كان كل منهم في نفسه أمة ، وفي أمته قمة . وفي قمته ضياء ونوراً وإذا استحضرت في نفسك تلك المآثر الحميدة ، والمناقب الفاضلة التي عرفت لأنبياء الله ورسله ، فإنك تستطيع أن تدرك المعنى الرائع الجميل الذي عناه « الناظم » في قوله :

إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مَثل النجومَ الماءُ

يعني أن الأنبياء والرسل السابقين ، مع أنهم كانوا في منزلة لا مطمع فيها لأحد ، فإن كل ما قدموه في حياتهم من جلائل الأعمال ، وما ضربوه للناس بقولهم وفعلهم من أرفع الأمثال، وما تحملوه في سبيل الدعوة من المشقات، وما بذلوا فيها من عزم.

إن تلك المآثر الخالدة من آدم إلى عيسى وما انتظمت سلسلة الرسل الطاهرة بينهما عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه . إذا قيست بصفاتك - يا محمد ﷺ - وبشمائلك الطاهرة ، وما حباك الله به من فضل فإن النسبة بين صفات الرسل السابقين وبين صفاتك أنت لا تعدو نسبة صورة النجوم المرئية على سطح ماء صفا لونه في نهر يجري على الأرض . إلى صورة النجوم الحقيقية وهي تتلألأ في عليائها العُليا .

فهي مصغرة إلى أبعد حدود التصغير على سطح الماء ، مكبرة إلى أقصى حدود التكبير في السماء . إن صفاتك هي النجوم في السماء ، وصفات الرسل التي من جنسها مع اختلاف « قيمتها » هي صورة تلك النجوم في الماء ، فشتان ما بينهما .

إن الذي يعتقد مطابقة صور النجوم في الماء لصورها في أجرامها الحقيقية لواهم بعيد الوهم ؛ لأن بُعد المسافة الهائلة بين « موطن » النجوم المصورة، وهو السماء وبين « موطن » الماء المصور ، وهو الأرض يعمل على تضاؤل الأشعة الساقطة من ذلك المكان العالي علواً لا يعلم حقيقته إلا الله ، فلا يصل منها إلى سطح الماء إلا مقدار يسير جداً هو الذي لامعاً في الماء ، والتفاوت بين مقياس الرسم في الصورة البادية على الماء ، وبين الحجم الحقيقى للنجم كبير جداً ، لأن الأجسام كلما بعدت عن الرائى صغر حجمها إلى أن تختفي تماماً عن الأنظار ، نشاهد ذلك في حياتنا اليوم ، فالطائرة تتحرك قريبا منا فتراها كما هي، وإذا ارتفعت عنا إلى طبقات الفضاء العليا ، أو قطعت مسافة بعيدة فوق الأرض نراها - في حجم العصفور ، ثم تتوارى فلا يراها أحد . وعلى الرغم من بُعد النجوم عن سطح الماء بعدا ليس بينه وبين الأبعاد التي تتحكم فيها نسبة فإن النجوم تبدو من خلاله ، وماذاك إلا لكبر حجمها الذي سمح لها بأن تخترق ذلك الفضاء الرهيب وتضع بصماتها على الماء .

وكذلك خلق محمد وسجاياه عليه السلام ليس بينها وبين سجايا الرسل والأنبياء وهم من هم كرامة وفضلا ، نسبة إلا مثل نسبة أجرام النجوم الحقيقية إلى صورها المصغرة فوق الماء أرأيت إلهاماً أروع من هذا الإلهام أو بياناً عرفه البشر مثل هذا البيان . إنها لبلاغة نادرة قلت نظائرها في أدب البشر وأقوالهم .

وحمل هذا البيت على هذا المعنى هو أحد ثلاثة آراء ، أراه أليقها . أما الرأيان الآخران . فأحدهما يجعل الضمير في « مثلوا » للأنبياء مثل السابق ولكن بمعنى مختلف .

ففي الرأى الأول كان المقصود من « مثلوا » حاكوا بأقوالهم وأفعالهم وسلوكهم ، فكانوا « نماذج » مصغرة لمثله العليا . أما في هذا الرأى فإن المراد من « مثلوا » أن الأنبياء كانوا يبشرون أقوامهم بمقدم محمد عليه السلام ويشرحون لهم أخلاقه وصفاته ولكنهم كانوا في شرحهم لتلك الأوصاف عاجزين عن بيانها بياناً تفصيلياً . فما استطاعوا أن يصوروا حقيقتها كاملة لعجزهم عن الإحاطة بها . فكانوا كالماء عندما يعكس أشعة النجوم المتساقطة عليه إلا بالقدر المتاح لبعد المسافة بين النجوم والماء.

وأما الرأى الثالث فيجعل الضمير في «مثلوا» للناس من غير الأنبياء عندما يتحدثون عن صفات محمد عليه السلام ويشرحها عالمهم لجاهلهم . وهنا لا يكون إلا بعد مبعثه عليه السلام . وأيا كان الرأي فإن الصورة الأدبية التي يدل عليها هذا التشبيه الساحر لا تتغير إلا أنها في الرأي الأول أدق وأبلغ حيث كان المقصود فيه من التمثيل إنما هو حياة الأنبياء بما فيها من هدى وقدوة صالحة للناس . وإلى الرأي الثالث يميل ابن حجر في شرحه للهمزية ويقويه على ما سواه .

ولا مغالاة في هذا فإن محمداً عليه السلام قد امتدح القرآن خلقه امتداحاً لم يحظ به غيره من الأنبياء حيث يصفه ربه فيقول : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم: ٤).

وتسئل عائشة رضي الله عنها عن أخلاقه عليه السلام فتجيب أوجز ماتكون الإجابة وأعمق ما يكون المعنى «كان خلقه القرآن» ومن كان القرآن خلقه ومنهج حياته وسلوكه فليس مثله إنسان . ذلك هو محمد بن عبد الله عليه السلام .

وقد توج «الناظم» تلك المجموعة بقوله رضي الله عنه :

أنت مصباحُ كل فضل فما تَصـــــدر إلا عن ضـوئك الأضواءُ

مشيراً بهذا إلى أن كل فضل كان سابقاً عليه في الوجود ، أو لاحقا ، فمنه هو مستعار ، لأنه ﷺ «قطب» الدائرة . أما الرسل والأنبياء والصالحون الذين سبقوه في الوجود فلأن كل تلك الرسالات والنفحات إنما كانت منارات على الطريق تمهد لدعوته عليه السلام بدليل أخذ العهد على كل نبى بالإيمان بمحمد عليه السلام ومتابعته إن أدركه ، كما مر في آية آل عمران السابقة ، وأما من جاء بعده من صالحي هذه الأمة فلأنهم اغترفوا من نهره ، واهتدوا بهداه ، فهو عليه السلام سبب في الفضل السابق وسبب في الفضل اللاحق . سبب نمائي فيما سبق عليه ، وسبب مؤثر وهاد فيما لحق به ومصباح الفضل هو ما هدى إليه وبينه للناس ، ففي العبارة تشبيه الصلة بين طرفيه ، المشبه وهو محمد عليه السلام ، والمشبه به وهو مصباح الفضل ، وثيقة العرى وإن كانت ترجع إلى الحس والمشاهدة في المصباح ، وإلى العقل والمعنى في محمد عليه السلام ، وإذا كان البلاغيون يسمون هذا التشبيه ـ تشبيها بليغاً ـ لاستيفائه شرط بلاغة التشبيه من حيث الصياغة ، والنظم ، فهو ـ كذلك ـ تشبيه بليغ من حيث

المعنى وإصابة عين الحق . يكاد كل من أحد طرفيه أن يكـون هـو الآخـر ، لعظـم ما بينهما من ألفة . .

وقد سبق الله الناظم وغيره من المادحين لشمائله ﷺ فقال في سورة الأحزاب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾(الأحزاب:٤٥،٤٦).

فوصف رسوله بأنه سراج ، ولكنه سراج من نوع خاص ، متوهج أبداً ، ومنير أبداً لا يخبو ولا ينطفئ . ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الحاقدون والمعاندون وصدق واهب الفضل إذ يقول :

﴿ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾(النساء:١١٣).

وقال ﷺ :

لكَ ذاتُ العلوم من عالـمَ الغيـ ـب ومنـها لآدمَ الأسـماءُ[١]

يريد أن يقول : إن الله فضلك على أبيك آدم وأبي البشر جميعاً ، فقد خصك بحقائق العلوم ودقائقها وأسرارها وحكمها ، بينما لم يعط لآدم منها إلا أسماءها وصورها الظاهرة ، والفرق كبير جداً بين معرفة الأسماء ومسمياتها معرفة تفصيلية ، وبين معرفة الأسماء فحسب . الأول كان لك ، والثاني كان لآدم ، والذي منحك ذلك الفضل هو عالم الغيب . وفي التعبير بعالم الغيب دون غيره من الأسماء المعروفة لله مناسبة بليغة جداً ؛ لأن المعطى الموهوب هو دقائق العلوم وأسرارها . كون معطيها هو «عالم الغيب» دون الرحمن ، أو العزيز مثلا . فضيلة بيانته لا يهتدي إليها إلا ذوو الفهم الدقيق لأسرار التعبير فليس من يقول : فرج كربي يا كريم ، كمن يقول : فرج كربي ياقهار . إذ لا مناسبة بين تفريج الكروب والقهر . وإنما تظهر روعة التناسب بين تفريج الكروب وبين الكرم .

وهو يشير في هذا البيت إلى قصة تعليم الله آدم الأسماء عندما أمر الملائكة ، بالسجود له فاستفهموا عن سر الحكمة في ذلك لأنهم كانوا يرون آدم دونهم في الفضل . فأظهر الله فضل آدم عليهم بما استودعه فيه من العلوم وأقام بين الملائكة

---

(١) ذات العلوم: حقائقها . والمراد من العلوم جميع المعارف .

وآدم ما يشبه مسابقة علمية ظهر فيها عجز الملائكة وفلاح آدم . والقصة وردت في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾
(البقرة: ٣١-٣٣)

وفي إضافة العلوم الحاصلة لمحمد عليه السلام إلى عالم الغيب «الله» لمحة مشرقة من ذكاء «الناظم» ودقة تعبيره فوق ماتقدم . لأن محمداً عليه السلام لم يتلق علومه عن مصدر بشري . وإنما كل ما وعاه عقله وقلبه من علوم ومعارف كان مصدرها هو الله . أما عن الإلهام أو الوحي المنزل ، وليس لإنسان ما أدنى فضل في تعليمه : فهو «صنع الله» خَلقاً وخُلقاً وعلماً وتوجيها .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾
(الشورى: ٥٢)

تحصر هذه الآية وظيفة تعليم الرسول عليه السلام في الوحي . فهو قبل الوحي لم يكن يدري الكتاب ، ولا له به عهد ، ولم يكن يدري حقيقة الإيمان والعلوم المتعلقة به فمحمد عليه السلام «رباني» علماً وعقيدة .

وتؤكد آية أخرى هذه الحقيقة إذ تقول :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٨) أي ما كنت تقرأ كتاباً ـ أى كتاب ـ وما كنت تكتبه ، ولو كان الأمر كذلك لوجد المبطلون منافذ للتشكيك فيما جئت به من وحي ، ولروجوا ذلك ، ولوجدوا من يصدقهم .

لكنك كنت معروفا فيهم بأنك لا تقرأ ولا تكتب ، شأن الكثيرين منهم . فكان ذلك أقطع لحججهم ، وأدحض لشبههم ، وأوصد لمناقد الجدل أمام باطلهم فإذا قلت :

«إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ» لا يكذبونك، ولكنهم بدلائل الحق يجحدون ولقد ردد القرآن الحكيم هذه الحقيقة في أسلوب جدلي هادف واضح معجز إذ يقول :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(يونس:١٥،١٦)

طلبوا منه أن يأتي بأمر آخر غير القرآن أو يبدله . فعلمه الله كيف يكون الرد : لست أملك أمر القرآن حتى أبدله . ماهو بكلامي إنما هو وحي اتباعه واجب، ومخالفته معصية ولو شاء الله ما تلوت عليكم القرآن، ولا دريتم به، لأنه كلامه، ولقد عشت فيكم عمراً قبل نزول القرآن عليَّ . فما عرفتم لي بياناً مثل هذا البيان، ولا حديثاً مثل هذا الحديث. أما عندكم ذرة من عقل تردكم عن هذه المزاعم الباطلة. ما أنا إلا مُبلغ ما يوحى إليَّ من ربي . وليس لي من الأمر شيء .

ولعلك تدرك ـ الآن ـ أخي القارئ ـ صدق تعبير «الناظم» وقيمة «حيطته» في إسناد تعليم الرسول عليه السلام إلى «عالم الغيب» .

محمد في عالم الغيب

وقال ﷺ :

لم تزل في ضمائر الكون	تختار لك الأمهات والآباءُ[1].
ما مضت فترة من الرسل إلا	بشرت قومها بك الأنبياء
تتباهى بك العصور وتسمو	بك علياء بعدها علياء

إنك يا محمد لم تزل عناية الله تحوطك وترعاك وأنت سر من أسرار الله، وما خلت فترة بعث الله فيها رسولا إلا بشر ذلك الرسول قومه بك تفتخر بك العصور عصراً بعد عصر وكلما اقترب مقدمك زاد فخر العصور بك . فهي بك تتصاعد إلى الكمال حتى جاء عصر مبعثك، مفخرة العصور، وعصر النور الذي أشرق بك فيه مجرى الحياة، ومسار التاريخ .

---

(١) ضمائر الكون : أسرار الغيب، تتباهى : تتفاخر . تسمو : ترتفع وتعلو .

آباؤك وأمهاتك من لدن آدم عليه السلام مختارون من أطهر الناس ، وأشرفهم وأكرمهم إلى أن انحدرت من ظهر أبيك عبد الله بن عبد المطلب . واستودعت في رحم أمك الطاهرة آمنة بنت وهب بنت عبد مناف . حفظك الله ورعاك ، وحفظ آباءك كلهم وأمهاتك كلهن من أجلك ولك مصداق ذلك من القرآن الحكيم قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

(الأحزاب:٣٣)

ومن أجل هذه الغاية النبيلة ، والمنزلة الرفيعة حفظ الله سلسلة النسب النبوي الشريف ، وسجل ذلك الكتاب المبين إذ يقول الله لرسوله فيه : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾(الشعراء:٢١٩) يعني الكرام التقاة على ما يرى بعض المفسرين . على أن يكون كرمهم شاملا لكل صفاتهم خَلْقاً وخُلُقاً وهكذا كانوا .

فقد سلم منحدر ذلك النسب من كل المعايب الخَلْقية والخُلُقية . وتحلى بالفضائل حتى غير الأنبياء منهم قد حفظ لهم التاريخ كثيراً من المناقب والمآثر الشريفة وقد تعددت الآثار والأخبار في شرف هذا النسب الكريم .

روى أبو نعيم أنه عليه السلام قال : «والله ما افترقت فرقتان منذ خلق الله آدم إلا كنت في خيرهما».

وروى الطبراني وأبو نعيم وابن عساكر عن علي ﷺ . قال : قال رسول الله ﷺ : «خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ، لم يصبنى من نكاح الجاهلية شيء ، ما ولدني إلا نكاح كنكاح الإسلام» .

ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾(التوبة:١٢٨) على قراءة من فتح الفاء . أي أزكاكم وأطهركم . وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

حفظ الإله كرامة لمحمد ... آباءه الأمجاد صونا لاسمه

تركوا السفاح فلم يصبهم عاره ... من آدم ، حتى أبيه وأمه

ولم تكن سلامة المنحدر مقصورة على حمايتها من مغامز النسب فحسب . وإنما جمعت إليها نبل السيرة ، وكرم الطبع ، ونباهة الذكر ، وحسن الصنع ، والريادة والشجاعة . وكثير من آبائه وأجداده عرف بين الناس في عصره بصفة من صفات النباهة والنبل ، فحلت تلك الصفة محل اسمه العلم الذي كان معروفاً به منذ صباه .

فصارت معرفته بتلك الصفة أعرف وأشهر من معرفته باسمه العلم وقد تمحو تلك الصفة الاسم العلم فلا يكاد يعرفه به أحد . وفيما يلي نبذة قصيرة عن مناقب آبائه وأجداده عليه السلام .

● كرامة نسب النبي

المتفق عليه بين جمهور النسابين أن النسب المضبوط الذي لا مجال للشك فيه ينتهي عند « عدنان » وهو الجد العشرون للنبي عليه السلام . أما نسبه بعد عدنان فغير مضبوط التسلسل ، وإن كان هناك رجال معروف بالتأكيد أنهم من سلسلة النسب النبوي الشريف . ولذلك فسنقصر حديثنا عن مناقب أجداده الذين عرفوا بعد عدنان وتأخروا عنه في الوجود . وهم على الترتيب .

« محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصي ، ابن مرة ، بن كعب ، بن لؤى ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النضر بن كنانه ، ابن خزيمة ، بن مدركة ، بن إلياس ، بن مضر ، بن نزار بن معد ، بن عدنان ».

فعبد المطلب وهو الجد الأول الذي حفر بئر زمزم خشية لله بعد أن رأى في النوم هاتفاً يأتيه مرات ويحثه على حفرها ، وهو الذي قدم أحد أبنائه ـ عبد الله أبا الرسول ـ يذبحه وفاء لنذر عليه لله ، وهو الملقب بشيبة الحمد لكثرة حمد الناس ، لأنه كان مفزع قريش وملاذها في الأزمات كما أطلقوا عليه وصف « الفياض » لكثرة كرمه . ووصفوه بأنه « مطعم السماء » لأنه كان يطعم الطير والدواب والوحوش على مائدة كرمه .

والجد الثاني له عليه السلام وهو « هاشم » غلبت عليه صفة هشم الثريد وتقديمه لقومه ، فسمي « هاشم » واسمه العلم المعروف به منذ صباه هو « عمرو العلي » فتوسي اسمه وعرف بالصفة الغالبة بين بني عصره ، وفي التاريخ . وسمي آله باسمه فقيل « الهاشميون » وكان الأصل أن يقال : العمريون العلويون !!

وقصة هشم الثريد معروفة في مناقبه حين أصيب الناس في مكة بمجاعة طاحنة ، فذهب عمرو العلي « هاشم » فيما بعد ، إلى فلسطين ، واشترى دقيقاً وقدم به إلى مكة فصنع الخبز ونحر الإبل وقدم الطعام للناس فأكلوا جميعهم منه حتى شبعوا وأخذ يهشم الثريد بيديه فعرف من يومها بـ « هاشم » .

وهو أول من وسع التبادل التجاري بين مكة والمدن المتحضرة المجاورة لها فعقد اتفاقاً مع قيصر الروم وقتذاك بحرية تنقل العرب للتجارة شمالاً إلى الشام صيفاً ، وجنوبا إلى اليمن شتاء . وكانت تجارة مكة قبل الاتفاق مقصورة على أسواقها المحلية .

وقد سجل القرآن ـ فيما بعد ـ هذه الواقعة في معرض الامتنان على قريش فقال :
﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ (قريش: ١-٤).

ولهاشم مناقب أخرى يضيق المقام بذكرها .

والجد الثالث « عبد مناف » كانوا يطلقون عليه « قمر البطحاء » لحسنه وجماله ، وكان كريماً جواداً لا يحب أن يأكل طعاماً وحده . فكان يسعى لاستضافة من يأكل معه كلما أراد أن يتناول طعاماً . فإذا لم يجد من يأكل معه فإنه كان يعمد إلى صخرة ليأكل بجوارها . فيأكل لقمة ، ويلقي إليها لقمة أخرى وهكذا حتى يرفع عنه الطعام .

والجد الرابع : « قصي » هو الذي استطاع أن يستخلص البيت الحرام من قبيلة خزاعة ، ونقل سيادة البيت إلى قومه بعد أن وحد صفوفهم وجمع شتاتهم وله كلمات مأثورة في سياسة الجماعة تفيض بالحكمة وبُعد النظر وسداد الفكر ومن مآثره المحفوظة نصحه لقومه أن يبنوا بيوتهم حول الكعبة ليكونوا حراساً لها ففعلوا وظلت تلك البيوت قائمة إلى عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان[1] .

ويعزى إليه أيضاً أنه أول من نظم قبائل قريش ، وعندما حضرته الوفاة حذر بنيه من شرب الخمر وقال لهم إنها تفسد الأخلاق .

والجد الخامس « كلاب »[2] كان معروفا بالكرم والبذل ومن أسمائه حكيم والمهذب وفي كرمه وبذله يقول بعض العرب :

حكيم بن مرة ساد الورى ... ببذل النوال وكف الأذى

---

(١) عمل الخليفتان على شراء تلك البيوت من أهلها ثم هدمها وبنيا مكانها مسجدا .

(٢) سئل بعض العرب لم تسمون أبناءكم بأشر الأسماء : كلاب وذئب . وتسمون عبيدكم بأحسن الأسماء : مرزوق ورباح ؟ فقال : إننا نسمي أبناءنا لإرهاب أعدائنا ، ونسمي عبيدنا لأنفسنا ؟ !

والجد السادس «مرة» كان ملحوظاً فيه القوة . ولذلك سمي «مرة» وقيل إنه مشتق من المرارة . والقوة والمرارة سلاحان ماضيان أمام الأعداء .

والجد السابع «كعب» هو أول من جمع العرب يوم العروبة «الجمعة» وخطبهم فيه وكان يدعوهم إلى المكارم ويحذرهم من المساوئ ، وله تأملات في بعض مشكلات الوجود ، وكان يبشرهم بمبعث نبي جديد من العرب وأقسم لو أدركه لينصرنه ويعمل معه على نشر دعوته . ويقال إنه أول من استحدث كلمة «أما بعد» في مطلع الخطبة .

والجد الثامن «لؤي» كان حكيما حليماً في قومه . ومن المأثور عنه قوله : «من رب معروفة لم يَخْلَق ولم يخمل . وإذا خمل الشيء لم يذكر . وعلى من أولى معروفاً أن ينشره ، وعلى المولى تصغيره وطيه» .

فهو ينصح بمضاعفة عمل الخير ليدوم ذكره ، ويدعو المحسن إلى كتمان إحسانه أما المحسن إليه فيدعوه إلى التحدث به وكتمان الصدقة شعيرة من شعائر الإسلام .

والجد التاسع «غالب» سمي بهذا الأسم من الغلب والفوز ، وكان من الذين يشتغلون بالكهانة مثل ورقة بن نوفل ، وبعض الكهان ، وغالب ؛ كان ذا بصيرة وحكمة .

أما الجد العاشر «فهر» فقد حفظ له التاريخ كثيراً من المناقب الفاضلة أبقاها أثراً أن قبائل قريش تنتسب إليه ؛ لأن من أسمائه «قريش» وهو الذي هزم أهل اليمن حين قدموا لأخذ أحجار الكعبة إلى اليمن وكان قائدهم هو حسان بن عبد طلال . فهب فهر إلى مقاتلته وقاتلهم حتى انهزموا وأسر القائد وبقي في الأسر ثلاث سنين وكان فهر حكيما عاقلا كثيراً ما ينصح أبناءه بعدم التطلع إلى ما في أيدي الناس .

والجد الحادي عشر (مالك) كان مالكا لأمر العرب في عصره وله حِكم قولية عميقة المعنى منها قوله : احذر الصور واطلب الخبر .

والجد الثاني عشر (النضر) سموه (النضر) لجماله وحسنه . ويرى فريق من العلماء أنه جماع قريش مثل (فهر) فلا يقال لأحد من أولاد من فوقه قرشي . أما ولده هو فقرشيون .

والجد الثالث عشر (كنانة) يحفظ سر قومه من كل سوء . وكان ذا علم وحكمة يقصده العرب لعلمه وفضله ، وكان يبشر بمقدم نبي اسمه أحمد يدعو إلى الله ومكارم الأخلاق .

وهكذا لاتجد في سلسلة نسبه الشريف إلا الكرام من الناس ، قد ذكرنا نبذة سريعة عن مآثر ثلاثة عشر رجلا منهم وماتوقفنا إلا خشية الإطالة . فليكن ما ذكرناه دليلا على ما لم نذكره . ولا يغرب عن الأذهان أنه كلما تباعد بنا الزمن عن أفراد تلك السلسلة من الأجداد الذين عاشوا في أزمنة سحيقة ، فإن العثور على تفاصيل حياتهم شيء عزيز المنال لعدم العناية بالضبط والرواية في تلك الأزمنة . ولكن القاعدة التى لا خلاف فيها أنهم جميعاً مصونون من الرذائل ، محلون بالفضائل سواء علمنا عنها شيئاً أو لم نعلم .

وغير خاف ـ كذلك ـ أن خمسة من الرسل كانوا ضمن تلك السلسلة المضيئة وهم: إسماعيل ؛ وإبراهيم ؛ ونوح ، وإدريس المسمى (عيبر) وهود عليهم السلام[1] .

ولا يقدح في ذلك أن أبا إبراهيم كان كافراً بنص القرآن[2]. لأن هذا القول غير مسلم ، فقد ذهب بعض أهل العلم أن آزر المذكور في القرآن عم إبراهيم وليس أباه ، وإطلاق الأب على العم ليس بعيداً . وأقول : إن التعبير القرآني يؤيد هذا الرأي بدليل أن صياغته جاءت على هذه الصورة .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام: ٧٤).

في هذه الصياغة نجد كلمة « أبيه » مقدمة على كلمة « آزر » وكلمة أب عند الإطلاق لا تنصرف إلا للأب الذي انحدر الولد من صلبه ، ولو كان المقصود بها أبو إبراهيم الحقيقي لما كانت هناك حاجة لذكر الاسم بعدها إذ لا ضرورة تدعو إليه .

وهنا يرجح أن المقصود من كلمة « أبيه » هنا شخص آخر غير الأب الذي للصلب فكانت كلمة « آزر » بياناً لذلك الشخص المقول له هذا الكلام . ومادام ذلك هو المقصود من كلمة « أبيه » فإن ذكر ما يفسره ويبين المراد منه جاءت به الصياغة

---

(١) الإمام السهيلي يرى أن « عيبر » هذا هو اسم إدريس . وغيره يجعله لهود عليهما السلام .

(٢) لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ (التوبة: ١١٤).

القرآنية وافية . ولو عكس الوضع فقيل : لآزر أبيه . لكان الوصف (أبيه) نافياً لكل تأويل ولما احتمل المقام إلا الأب الذي للصلب . فتقديم « أبيه » على « آزر » لمحة لها قيمتها البيانية في هذا المقام ، وهذا هو ما يجب أن يصار إليه فيما أرى .

ويقوي هذا الفهم أن كثيراً من المصادر تنص على أن أبا إبراهيم كان اسمه « تارح » أو « تيرح » ولا يبعد أن إبراهيم عليه السلام كان يدعو عمه آزر أباً لرعايته له فضلا عن علاقه النسب التي تربط « العم » بأبي إبراهيم عليه السلام . وليس هذا بدعاً فكثير من الأنبياء في أحضان غير آبائهم .

ومما تجدر الإشارة إليه أن كلمة « آزر » لم ترد على لسان إبراهيم ، بل وردت فيما حكاه عنه القرآن الأمين وذلك في موضع واحد هو الذي أثبتناه آنفاً وما عدا ذلك فليس فيه كلمة « الأب » فكأن ذكر آزر في هذا الموضع رافعاً لكل احتمال في المواضع الأخرى .

وقد اختلف العلماء حول المقصود من « آزر » ولهم في ذلك آراء متضاربة كلها مبنية على الظن والتخمين ، بل بعضها مردود بالتأمل في صياغة العبارة نفسها دون البحث عن دليل آخر يردها من خارجها . ويؤيد ما ذهبنا إليه أن طهارة سلسلة النسب النبوي من عبد الله أبي النبي عليه السلام ، إلى آدم أبي البشر ، أمر مقرر ، قامت عشرات الأدلة بل مئاتها على تأكيده فلماذا إذن الاختلاف حول عقيدة أبي إبراهيم مع عدم دليل قاطع على ضلالها . .؟!

وليس نسبه عليه السلام من جهة أمه ، بأقل شأناً من نسبه من جهة أبيه . مع العلم أن أمه تلتقي مع نسب أبيه في الجد الخامس « كلاب » أو حكيم بن مرة كما كانوا قد سموه . وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة . وكان أبوها وهب سيد بني زهرة نسباً وشرفاً ، وكانت ابنته آمنة أكرم نساء قريش نسباً وموضعاً كما كان أبوه عبد الله أحب أولاد عبد المطلب إليه ، وإلى قومه من قريش . وهذه المنزلة هي التي جعلت رجال قريش ونساءها يتسارعون نحو عبد المطلب ليحولوا بينه وبين ذبح عبد الله حينما أراد أن يذبحه وفاء لنذره كما ورد في كتب السيرة إن هذا العرض اليسير لمناقب آبائه وأمهاته عليه السلام يرينا كم من المعانى الجميلة قد أشار إليها قول الناظم :

لم تــزلْ في ضــمائرِ الكــونِ   تختــارُ لــك الأمهــاتُ والآبــاءُ

أما ما أشار إليه من بشارة الرسل به أقوامها فقد ورد فيه النص في القرآن الكريم حكاية عن عيسى عليه السلام : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (الصف:٦)

كما ورد نص آخر يفيد البشارة به في كل من التوراة والإنجيل في قوله تعالى :

﴿ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف:١٥٧).

واقتصار ذكر البشارة في القرآن الحكيم على التوراة والإنجيل دون غيرهما ، لعل سببه أن هذين الكتابين هما الباقيان في جملتها من الكتب السماوية ، ولأن النصرانية واليهودية أقرب الرسالات إلى رسالة محمد عليه السلام من حيث الترتيب الزمني . لذلك اكتفى القرآن بالإشارة إليهما .

على أن آية الميثاق المتقدمة : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ (آل عمران:٨١) يمكن حملها على البشارة به عليه السلام لدى جميع الأنبياء والرسل . وقد نقل الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية هنا القول عن علي وابن عباس ﷺ . وزاد أن المطلوب من الأنبياء أن يأخذوا العهد على أممهم المرسلين هم إليها بالإيمان بمحمد عليه السلام . وعلى هذا فإن قول « الناظم » :

ما مضتْ فترة منَ الرسلِ   إلا بشّرت قومها بكَ الأنبياءُ

قولا مطابقاً للواقع لامبالغة فيه لأن صياغته على أسلوب القصر الذي طريقه النفي والاستثناء مفيد لاشتمال جميع الأنبياء على البشارة به والآية تفيد هذا المعنى كذلك .

وقال ﷺ :

بشائر مولده

وبدَا للوجود منكَ كريمٌ   من كريم آباؤهُ كرماءُ[1]

---

(١) بدا : ظهر . حلاء : جمع حلية ، وهي المعادن الكريمة في الأصل كالذهب والفضة والألماس . والمراد منها هنا : الطهارة والشرف والكرامة . قلدتها : جعلتها قلادة لها . والجوزاء : برج في السماء حوله مجموعة نجوم مثل القبة . حبذا : كلمة مدح مثل نعم وهى فعل مركب مع فاعله ذا على رأي . عقد هو الممدوح . سؤدد : مجد . فخار : فخر وتمدح . اليتيمة : الفريدة . عصماء : مصونة . محيا : وجه . أسفرت : أبانت . غراء : مشرقة . ازدهاء : فخر .

نسبٌ تحسبُ العُلى بحُلاه قلّدَتها نجومَها الجوزاءُ
حبّذا عقدُ سؤدَدٍ وفخار أنتَ فيه اليتيمةُ العصماءُ
ومحيًا كالشمس منكَ مضيء أسفرت عَنهُ ليلةٌ غرّاء
ليلة المولد الذى كان للدين سرورٌ به وازدهاء

ويقول : إنه بمولدك يا محمد ظهر منك للوجود كريم فكأنه جعل كرم الرسول عليه السلام لكماله فيه صنعة مستقلة لها وجود مخصوص ، وهذا ما يسميه البلاغيون تجريداً ولا يصار إليه إلا عند كمال الصفة في الموصوف ، فأنت كريم ، وأبوك كريم ، وآباء أبيك كرماء .

إن نسبك الشريف حين يتأمله الإنسان يظن أن الجوزاء هي التي نظمت عقده بزهر نجومها وعلقته قلادة في عنقه . لأنه نسب كريم مضيء . وقد بلغ خيال الناظم في هذا البيت قمة الصفاء والخصوبة . وبفضل ذلك الصفاء أبرز هذه الصورة الجميلة :

إن كل حبة في ذلك العقد النظيم مضيئة متلألئة ولكن عروس ذلك العقد حبتك أنت تزهى بحسنها ورونقها الذي لا مثيل له في جميع الحبات ، وهي مع حسنها وبريقها مصونة لم تعبث بها يد ، وحسب الناظر إليها متاعاً أن ينظر إليها وكفى وجهك الكريم شمس لا يغرب قرصها ، ولا يزول ضوؤها أبانت عنه ليلة مولدك المشرقة . ذلك المولد الذي أقبل بالسرور والفخر حيث اكتملت بمقدمك رسالات السماء وازدهى الدين . فغيرك لا ينتظر ، ومثلك لا يُحتاج معه إلى غير . . أنت أنت ، بعث الله من قبلك الرسل يبشرون بك ، ويمهدون السبيل لموكبك العظيم ، الذي بدأ سيره بمقدمك ، وظل يسير ، ولن يزال يسير حتى يرث الله الأرض ومن عليها . ليس معك ولا بعدك رسول ، وليس مع شريعتك ولا بعدها شريعة .

أيحتاج السارون بعد إشراقة الشمس إلى إيقاد الشموع وحملها؟! لا وحتى لو ظلوا يحملونها فما جدواها وقد غمرت أشعة الشمس الفضية جوانب الكون كله . وما أصدق القائل :

لا تذكروا الكتب السوالف قبله جاء الصباح فأطفأ القنديلا

يريد « الناظم » بكرمه ﷺ : ومن كرم أبيه ، وكرم آباء أبيه . طهارة معدنهم وصونهم من أنكحة الجاهلية ، وأنكحة الجاهلية على ما جاء في كتب السير أنواع

كلها فاسدة ماعدا نوعاً واحداً شبهه عليه السلام بنكاح الإسلام وهو الذي ولد عن طريقه هو وآباؤه عليه السلام وإليك هي :

١- **نكاح البغايا** : وهن جماعة من النساء كنَّ ينصبن على أبوابهن رايات علماً عليهن ، ليعرفهن الناس من أصحاب الشهوات ، فمن أراد دخل عليهن وقضى وطره . وربما دخل على الواحدة منهن في اليوم الواحد عشرات الرجال . فإذا وضعت إحداهن من هذا «السفاح» دعوا لها القافلة ، وهي الخبيرة بمعرفة شبه الولد بأبيه ، فإذا أشبه الولد رجلا منهم ألحقوه به وصار له أباً؟!

٢- **نكاح الاستبضاع** : كان الرجل إذا طهرت من حيضها زوجته يقول لها : أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه «يعني يعاشرها معاشرة الزوج» ثم يعتزلها فلا يمسها ، فإذا حملت من «فلان» هذا جاز لزوجها أن يواقعها إذا أراد؟! .

٣- **نكاج الجمع** : وهو أن يجمع الرجل بين الأختين في عصمة واحدة فتكون الأختان زوجتين له يدخل على من يشاء منهما ، ويعاشر أيهما أراد .

٤- **نكاح زوجة الأب** : كان الرجل إذا مات وترك زوجة وله أبناء من غيرها . فمن حق أكبر أولاده أن يتزوج امرأة أبيه هذه وكل هذه الأنواع فاسدة ، ولذلك حرمها الإسلام . وليس في نسب النبي عليه السلام شيء من هذه الأنكحة التي أبطلها الإسلام . بل كان مولده عليه السلام ومولد آبائه عن طريق نكاح آخر كان معروفاً في الجاهلية وهو نكاح فيه صداق وإيجاب وقبول وشهود .

ولهذا شبهه عليه السلام بنكاح الإسلام . يقول الإمام السبكي «لم يقع في نسبه ﷺ منه إلى آدم إلا نكاح صحيح مستجمع لشرائط الصحة كنكاح الإسلام الموجود اليوم .. فاعتقد هذا بقلبك ، وتمسك به . ولا تزل عنه فتخسر الدنيا والآخرة».

والمقصود من نكاح الإسلام ما يشمل التسري ، لأن نكاح السرايا (المملوكات) جائز في الإسلام ، وليس في نسبه عليه السلام نكاح من هذا النوع إلا في حالة واحدة وهي أم إسماعيل عليه السلام . لأنها كانت مملوكة لإبراهيم عليه السلام في رأي ويقابل هذا الرأي أن إبراهيم عليه السلام عتقها قبل أن تحمل بإسماعيل وأنه عقد عليها وتزوجها فأولدها إسماعيل . وعلى هذا فنكاح التسري ليس له وجود في نسبه الشريف ﷺ .

ويريد الناظم «من قوله : أنت فيه اليتيمة العصماء» أن الرسول عليه السلام هو أكرم وأشرف أفراد تلك السلسلة . وسلسلة نسبه الكريم أشرف سلاسل النسب الإنساني ، وكونه ﷺ أشرف أفراد تلك السلسلة فهو من باب أولى أشرف الناس جميعاً . بل هو أكرم عند الله من الملائكة عند المحققين من أهل العلم .

وإذا مثلنا سلسلة نسبه الكريم ابتداء من آدم إلى مقدمه هو عليه السلام بنهر يجري . فإن آدم هو المنبع ، وهو عليه السلام «المصب» والمعروف أن الماء عند المنبع يكون أشد صفاء منه عند المصب ، لما يحمله معه على امتداد طول المجرى من مكدرات .

ولكن هذا لم يكن بالنسبة لمجرى النسب النبوي الشريف لأنه كان عند المصب أكثر صفاء ، وأعزب وألذ طعماً . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وفي إيثار «الناظم» لكلمة اليتيمة لمحة ذوقية مرهفة ، لأن المراد منها الفريدة التي ليس لها مثيل ، ولهذا سمى الثعالبي كتابه المشهور «يتيمة الدهر» أى الكتاب الذي لا يجود الدهر بمثله لندرته وجدته .

ومعنى قوله : «محيا كالشمس . .» وصف للحسن الحسي الذي كان فيه عليه السلام . والمحيا الوجه . والليلة الغراء هي المشرقة المضيئة وهي ليلة مولده عليه السلام . وهنا يرد سؤال . ذلك أن كثيراً من العلماء على أن الرسول عليه السلام ولد نهاراً ولم يولد ليلا . فكيف ينسب الناظم الولدة إلى الليل ويذكر ذلك مرتين في بيتين متتاليين ألهذا وجه؟ .

نعم ، لأن من القائلين بأن مولده عليه السلام كان نهاراً قالوا إنه كان وقت الفجر : والفجر قريب من الليل . وما جاور الشيء يعطى حكمه . أو يراد بذلك الليلة التي سبقت نهار مولده عليه السلام . على أن «الناظم» نفسه عاد بعد ذلك فذكر اليوم بدل الليل ، وإطلاق اليوم على النهار كثير وشائع ، وإن كان من المحتمل الصحيح حمله على الليل والنهار معاً .

ولما كان عليه السلام مكملا لأمر الدين فقد أفسح «الناظم» المجال لخياله . فصور الدين بمن يحس ويدرك ، ويتأثر . فأثبت للدين سروراً بمولده الشريف عليه

السلام . وحمله ذلك السرور بهذا الطالع المشرق على أن يزهى ويفخر بليلة المولد ومقدم الوليد .

وهذا مجال فسيح متروك للقرائح تلونه بما تلهم من صور التعبير وصدق الشعور «وهي مجالات» لا يقال لمرتادها أنه كاذب فيها بل المعول عليه في مثلها صدق الإحساس والشعور . وللناظم في هذه القصيدة فجوات كثيرة ملأها بخياله الخصب . ولونها بريشته المبدعة . فأخرج لنا صوراً حية حياة شعوره . جميلة جمال إخلاصه وحبه لمن تحدث عنه وتغنى بذكراه . وشدا بسيرته . فأمتع عواطفنا . وأثرى أحاسيسنا في غير ما تكلف ولا غلو .

وقال ﷺ :

وجاءت ساعة المولد

وتوالت بشرَى الهواتف أنْ قدْ	ولد المصطفى وحقَّ الهناءُ[1]
وتداعى إيوانْ كسرَى ولولا	آيةٌ منكَ ما تداعى البناءُ
وغدا كل بيت نار وفيه	كربة من خمودها وبلاءُ
وعيون للفرس غارت فهل كا	نَ لنيرانهم بهاَ إطفَاءُ
مولدٌ كانَ منه في طالع الكفْـ	ـر وبالٌ عليهمْ ووباءُ

يقول : عندما شرف الله الوجود بمولد محمد عليه السلام تتابعت البشارات بمولده ﷺ . ومن ذلك ما رووه من أن هاتفاً كان يقول عند الحجون صبيحة مولده :

فاقسم ما أنثى من الناس أنجبت	ولا ولدت أنثى من الناس واحده
كما ولدت زهرية ذات مفخر	مجنبة لؤم القبائل ماجده

كما رووا أن أمه آمنة كانت تسمع قرب ولادته ﷺ صوتاً يقول ولا ترى مصدره :

أعيذه بالواحد	من شر كل حاسد

---

(١) توالت : تتابعت . الهواتف : الأصوات التي لا ترى مصادرها . تداعى : تساقط إيوان : بيت الملك ومقر سلطانه . وكسرى أنو شروان هو ملك الفرس ، كسرى لقب لكل ملوك الفرس ، وقيصر لقب ملك الروم ، وتبع لقب لملوك اليمن ، والنعمان لملك العرب من قبل العجم . والنجاشي لملك الحبشة ، وفرعون لملك القبط . والعزيز لملك مصر . بيت نار : بيوت الفرس . الخمود السكون . الوبال والوباء : الشدة .

وكـــل خلـــق زائـــد ... مـــن قـــائم وحاصـــد
عـــم الســـبيل حائـــد ... علـــى الفســـاد جاهـــد
مـــن نافـــث أو عاقـــد ... وكـــل خلـــق مـــارد
يأخـــــذ بالمراصـــــد ... في طـــــرق مـــــارد

وغير ذلك كثير ومتعدد ، منه أن الكهان والرهبان قد تنبأوا بمولده عليه السلام وأخذت معاقل الكفر ، في التساقط حيث تهدم جزء كبير من إيوان كسرى وكان بناء محكما لا سبب فيه للتساقط إلا أن يكون آية من آيات مولده عليه السلام كما أشار « الناظم » .

كما أخذت مظاهر عقائدهم الفاسدة تزول . فالنيران التي كانت توقد في كل بيوت الفرس للعبادة أطفئت عند مولده عليه السلام ، وعيون مياههم غارت وغاضت في الأرض . ويتساءل « الناظم » في أسلوب تهكمي ساخر هل هناك علاقة بين ظاهرتي انطفاء النيران وخمودها وبين ذهاب عيون الماء ، فيكون الماء الغائر هو الذى أطفأ النيران المشتعلة . وأيا كان الأمر فقد حل بهم الشقاء لما رأوا نيرانهم قد خمدت . ومياههم قد غارت وذهبت .

إن مولده عليه السلام كان شؤماً في طالع الكفر إذ أخذت معالمه تندثر ، ومظاهره تزول ، وعروشه تتساقط ، وماهم بمالكين من أمرهم شيئاً سوى الحسرات والآلام .

وقال ﷺ :

فهنيئَــاً بــه لآمنــة الفضــــ ... ــــلُ الذي شرفتْ بـه حـواء[1]
من لحوَّاء أنــها حملــت أحْمـــ ... ــــدَ أو أنــها بــه نفســاءُ
يومَ نالت بوضــعه ابنــة وهــب ... من فخــار مــالم تنلــه النســاءُ
وأتــتْ قومهــا بأفضَــلَ مــماً ... حملــت قبــلُ مــريمُ العــذراءُ

---

(١) هنيئاً : اسم فاعل من الهناء أو صفة مشبهة . وهي كلمة يبارك بها كل نعيم . من لحواء : استفهام إنكاري يعني أن أمه لم تكن تدري من هو الذي حملت به حواء كناية عن المرأة . العذراء : المصونة العفيفة .

يقول ما أسعد أمه بهذا الفضل العظيم الذي تشرفت به النساء بحمل آمنة أحمد عليه السلام . قد حازت أمه فضلا لم يعرف لغيرها من قبل . فوليدها ، أفضل من وليد مريم العذراء، ومن وليد أم كل رسول أو نبي، لأنه ﷺ أفضل خلق الله أجمعين .

ثم أخذ « الناظم » يبين بعض الآيات التي أحاطت بمولده هو في نفسه عليه السلام فقال ﷺ :

دلائل الرفعة

شمتته الأملاكُ إذا وضعته	وشفتنا بقولها الشفاءُ[1]
رافعاً رأسه وفي ذلك الرفـ	ـع إلى كل سؤدد إيماءُ
رافعاً طرفه السماء ومرمى	عين من شأنه العلو العلاءُ
وتدلت زهر النجوم إليه	فأضاءت بضوئها الأرجاء
وتراءت قصور قيصر بالرو	م يراها من داره البطحاء

يقول : حين عطس محمد عليه السلام ساعة ولد شمتته الملائكة فقالت : رحمك الله ورحم بك حدثت بهذا القول قابلته الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ونقل عنها هذا ولدها عبد الرحمن وزادت فقالت : وأضاء لى ما بين المشرق والمغرب نور حتى رأيت بعض قصور الروم . ثم قالت : فلم يزل ذلك في نفسي حتى بعثه الله فكنت من أول الناس إسلاماً .

وإلى هذا أشار « الناظم » بقوله : « وشفتنا بقولها الشفاء » وحين ولد عليه السلام كان رافعاً رأسه إلى أعلى وقد التمس « الناظم » بهذا الرفع علة وسبباً هو أن محمداً عليه السلام كان يرفع رأسه متطلعاً إلى كل فضل وكان نظره ـ كذلك ـ إلى السماء وهل من خلق للعلاء والرفعة ينظر إلا إلى مصدرها وموطنها . ذلك ما فسر به « الناظم » الهيئتين اللتين صدرتا منه عليه السلام وهما : رفع الرأس ، والتحديق في السماء . وهو إلى تقرير الواقع أقرب منه إلى خيال التصوير .

ويشير « الناظم » بقوله . . تدلت زهر النجوم . . إلى آية لايكاد يخلو منها كتاب من كتب السيرة والأصل في ذلك ما قالته امرأة ممن حضرن مولده عليه السلام ، وهى

---

(١) شمتته : قالت له يرحمك الله عندما عطس . الشفاء : هي أم عبد الرحمن بن عوف . إيماء : إشارة . رامقاً : ناظراً . شأنه : حاله . تدلت : نزلت . زهر النجوم : لوامعها . البطحاء : بطحاء مكة .

فاطمة الثقفية رضي الله عنها فقد قالت : لما حضرت ولادة رسول الله ﷺ رأيت البيت حين وقع - يعني نزل - قد امتلأ نوراً ورأيت النجوم تدنو حتى ظننت أنها تقع عليَّ ، وتقدم أن الشفاء قد تحدثت عن هذا النور ولكنها لم تبين مصدره كما فعلت فاطمة الثقفية . وتحدثت به أمه آمنة فيما رواه أبو العجفاء في حديث مرسل أنه عليه السلام قال : « رأت أمي حين وضعتني سطع منها نور فضاءت له قصور بصرى » وتعددت روايات هذا الأثر مع اختلاف في الصياغة . فابن سعد في الطبقات روى عن أبي العجفاء . كما روى أبو نعيم في دلائل النبوة ما يقوي حديث أبي العجفاء إلى غير ذلك من الروايات . وقد سجل عمه العباس هذه الآية في قوله :

وأنت لما ولدت أشرقت الأر ... ضُ وضاءتْ بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفي النو ... ر وسبل الرشاد نخترق

ولا غرابة في ذلك فالقرآن يومئ إلى مثل هذا في قوله تعالى :﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾

(المائدة:١٥، ١٦)

قد يقال : كيف يرى من بالحجاز قصور الروم بالشام وبين الموضعين أضعاف أضعاف المسافة التي يمكن أن ينتهي إليها البصر . وهل ذلك النور كان أقوى من نور الشمس الذي لا يستطيع الرائي فيه أن يرى منازل الشام وهو موجود بمكة؟.

هذا قول صحيح لو كنا نقرر واقعة تحدث في الظروف العادية . أما هنا فإن الأمر مبني على اختراق العادة . وما دام الأمر كذلك فإن كل شيء جائز لأن الفاعل لهذه الخوارق هو الله . والله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء إنه على كل شيء قدير .

وقال رضي الله عنه :

خوارق واكبت الإرضاع

وبدت في رضاعه معجزات ... ليس فيها عن العيون جفاء[1]

---

(١) بدت : ظهرت . معجزات: خوارق للعادة . جفاء : بعد وغموض . الشاه : جمع شاة . شول : جمع شائل وهي الناقة التي لا لبن لها أصلا استعار منها هذا الوصف للشاة . عجاف : هزيلة . أخصب : زاد . محل : فقر . يالها : كلمة تعجب . منة : نعمة ونصبت على التمييز .

إذ أبتــــه ليتمـــــه مرضــــعات | قلن مــا في اليتـيم عنــا غنــاء
فأتتــــه مـــن آل ســعد فتــاة | قــد أبتــها لفقرهــا الرضــعاء
أرضـــعته لبانــــها فســـقتها | وبنيهـــا ألبانــــهُنَّ الشــاءُ
أصبحتَ شوَّلا عجافــاً وأمســت | مابـــــها شــائل ولا عجفــاءُ
أخصب العيش عندها بعــد محــل | إذ غــدا للــنبي منـــها غــذاءُ
يالــها منة لقد ضوعف الأجــــ | ــر عليها من جنســها والجــزاءُ
وإذا ســـخر الإلــــه إناســـاً | لســعيد فإنــــهم ســـعداء

يقول : وظهرت في أمر إرضاعه آيات خارقة للمعهود في دنيا الناس ، وهى آيات ظاهرة للنظر : فقد أعرضت عنه المرضعات عندما علمن بأنه يتيم إذ لا أب له ينفق عليه وأقبلت كل واحدة منهن تطلب رضيعاً يرجى من ورائه الخير فظفرت بمطلوبها إلا امرأة من بني سعد لم ترغب فيها أم لإرضاعها وليدها ؛ لأنها فقيرة ، وهي كانت ممن أعرض عن محمد عليه السلام ليتمه فلما لم تجد غيره أخذته خشية أن ترجع ولا رضيع معها ، فكان هذا تدبير الحكيم العليم ، فقد عادت به إلى دارها وكانت شاؤها عجفاء لادر لها . فلما أرضعت محمداً عليه السلام من لبنها جادت شاؤها بألبانها فسقتها منها هي وبنيها . وذهب ما بها من عجف ويبوس واخضر العيش وتجمع لها من الفضل والإنعام ما لا عهد لها به من قبل كرامة لمحمد عليه السلام من ربه . فما أعظمها نعمة ضاعف الله فيها الأجر . فأيهما كان سعيداً بصاحبه . امرأة بني سعد سعدت بمحمد عليه السلام ، أم محمد سعد بها؟ إن محمداً لسعيد سواء كان لدى تلك المرأة أم عند غيرها أم ليس عند أحد وإنما حليمة السعدية هي التي سعدت بمحمد عليه السلام وإلى هذا المعنى أشار « الناظم » :

وإذا ســـخر الإلــــه إناســـاً | لســعيد ، فإنــــهم ســـعداء

ومن أعظم المنن التي أسعد الله حليمة بها لإرضاعها رسوله عليه السلام أن هداها للإسلام هي وزوجها وبنيها .

ومن الأمور التي للفكر فيها تأملات وسبحات أن الأشخاص الذين كانت لهم صلة بر ورعاية بمحمد عليه السلام أو نسب قريب كانوا معروفين بأسماء لها من الفضل وحسن الفأل ماليس لغيرها . فاسم جده عبد المطلب واسم أبيه عبد الله ، وإضافة « عبد » إلى الله والمطلب لمحة وضيئة من لمحات القدر المكنون ، واسم أمه آمنة بنت

وهب . وآمنة اسم فاعل من الأمن ووهب مشعر بالمواهب الكريمة والأمن له في حياة الناس أثر كبير إن لم يكن هو الحياة نفسها واسم قابلته الشفاء مبالغة الشفاء وما أحلى الشفاء وأعذبه عند الناس لأنه يعني السلامة وطيب الخاطر ، واسم مرضعته حليمة السعدية وللحلم والسعد ظلال ورفة في حديقة الحياة ، واسم حاضنته هو : أم أيمن بركة الحبشية . وهو يدل على اليمن والبركة . واسم أخيه من الرضاع عبد الله مثل أبيه ، واسم أخته من الرضاع هو «الشيماء» وهو اسم فيه من الدلالة على الرفعة والشرف ما يفهم من مجرد لفظه قبل تذوق معناه . وكانت الشيماء هذه تحب أخاها محمداً وتتغنى بحبه فتقول مرة :

يا ربنا أبق أخي محمداً . . حتى آراه يافعاً وأمردا
وأكبت أعاديه معاً والحسدا وأعطه عزاً يدوم وأبدا

ومرة تقول :

هذا أخ لى لم تلده أمي وليس من نسل أبي وعمي
فديته من مخول معم فأنمه اللهم فيما تنمي

وقد أدركت الشيماء بعثته ﷺ فوفدت إليه ، فأكرمها ومنحها مالا ورجعت إلى ديار قومها .

ثم يستطرد «الناظم» في بيان الآيات فيقول رضي الله عنه :

حبة أنبتت سنابل والعصـ ـف لديه يستشرف الضعفاء[1]
وأتت جده وقد فصلته وبها من فصاله البرحاء
إذا أحاطه به ملائكة اللـ ـه فظننت بأنهم قرناء
ورأى وجدها به ومن الوجـ ـد لهيب تصلى به الأحشاء
فارقته كرها وكان لديها ثاوياً لا يمل منه الثواء

يقول : إن تلك البادرة الكريمة من حليمة السعدية بإرضاعها محمداً عليه السلام كانت مثل الحبة الواحدة التي تبذر في أرض خصبة فتنمو وتزدهر وتنبت سنابل كثيرة

---

(١) حبة : بذرة . سنابل : جمع سنبلة وهي جماع حبوب القمح . العصف : الورق النباتي . يستشرف : يتطلع إليه الضعفاء . البرحاء : الألم الشديد . قرناء : شياطين الوجد : الحب الشديد . تصلى : تحترق . الأحشاء : جمع حشي وهو ما بين الضلوع في القفص الصدري . ثاوياً : مقيم . لا يمل : لا يكره .

وهو في هذا التصوير الأدبي الجميل يستلهم الفكرة من البيان القرآني حيث يقول الكريم جل في علاه مبيناً مضاعفة الأجر للمتصدقين المحتسبين : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (البقرة: ٢٦١).

لأن حليمة جوزيت بإرضاع النبي عليه السلام ، وهو عمل واحد أنعاماً لا حصر لها وذلك بفضل إكرام الله لنبيه عليه السلام .

وأن هذه الأنعام التى كوفئت بها حليمة كانت في وقت الجدب فيه كل بقعة من بقاع بني سعد ، وكان أقصى أمل عند الناس أن ينظروا إلى ورق النبات الجاف المتقطع ولا طمع لهم في الأخضر ، ولا في الثمار والنعمة التي ترى وسط حشد من الأزمات نعمة لها وقع خاص في نفوس الناس ، وليس في الدنيا شيء ألذ وأطيب من شربة على ظمأ ، ولقمة على جوع . ولذا فقد صعب على حليمة فراق محمد عليه السلام حينما أتم رضاعه فجاءت إلى مكة وهي أشد ما تكون رغبة في إقامته عندها . وما فكرت في إعادته إلى أمه إلا بعد أن شاهدت جمعاً غير معروف لها محيطين به فظنت أنهم شياطين جاءوا لإصابته بسوء ففرقت عليه . ولم تكن تدري أن هؤلاء ملائكة الرحمن جاءوا بأمر ربه لشق صدره وتطهيره . ورأى جده عبد المطلب عظم حبها له وشوقها إليه . وإنه لوجد مضن لا قدرة لها على احتماله . فارقته حليمة وهي تكره فراقه فمثل محمد عليه السلام لا يمل المقام معه .

وليست هذه أول مرة تقدم به إلى مكة . فقد قدمت به قبل ذلك بعد انتهاء المدة المتفق عليها وأظهرت رغبتها في إقامته عندها فاستجاب لها جده . . حتى بلغ هناك أربع سنوات من العمر في إحدى الروايات أو أقل أو أكثر في روايات أخرى .

وكيف تمل حليمة إقامة محمد عليه السلام عندها وهو الذي أكرمها الله وأكرم قومها بني سعد بوجوده بينهم . إنهم إن لم يحبوا إقامته بينهم من أجله ، فحبها من أجل أنفسهم لازم لهم ، وهم قد أحبوها من أجله وأحبوها من أجل أنفسهم وكأن لسان حالها كان يقول :

والله ما فارقتكم قاليا لكم ولكنما يقضى فسوف يكون

ثم قال ﷺ :

شُق مـــن قلبِـــه وأخـــرجَ منـــه مضغة عنـــد غَســـله ســـوداء[1]
ختمتْـــه يمـــنى الأمـــين وقـــد أو دع مـــا لم يـــذع لـــه أنبـــاء
صان أسراره الختـــام فـــلا الـــ فـــض ملـــم بـــه ولا الإفضـــاء
ألف النسك والعبـــادة والخلـــ ـــو طفـــلا وهكـــذا النجبـــاء
وإذا حلـــت الهدايـــة قلبـــاً نشـــطت في العبـــادة الأعضـــاء

يقول : شق جبريل في جمع من الملائكة صدر الحبيب محمد عليه السلام وهو ثاو في بني سعد، وأخرج من قلبه مضغة سوداء هي حظ الشيطان في قلب كل إنسان، ثم ختم مكان الشق بيمناه . فكان ذلك الختم صوناً له من الفض والتهتك ، ومن الإفضاء وإذاعة الأسرار التي فيه مما اختص به الله رسوله من ينابيع الحكمة وثلج اليقين . وكان لذلك أثره في حياة محمد الطفل عليه السلام ، حيث جنح بقلبه وحبه وفكره وعقله ونفسه إلى التأمل في ملكوت السماء والأرض ، والتعمق في أسرارهما ، والتنسك للخالق على فطرته الطاهرة قبل أن يعرف ماهو الكتاب وما هو الإيمان ، فهجر ملاهي القوم وملاذهم ولجأ إلى غار في بطن جبل حيث الهدوء والصفاء ، يستلهم الحقائق من مصورها الأصيل ـ الكون ـ يتعبد فيه ربه الليالي ذوات العدد ، ولا يهبط إلى مكة إلا ليتزود بالطعام والشراب ، ولا يلبث أن يعود إلى غاره وكهف نسكه يخلو بنفسه مفكراً متأملا .

وقصة شق صدره الشريف أمر اختلف فيه الناس اختلافا بعيداً . ففريق يسلم به ولا ينكره ويؤمن بأن شق الصدر كان أمراً واقعيا حسياً ويستدل بمثل قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (الشرح:١) ويحمل الشرح الوارد في هذه الآية الكريمة على معناه الحسي . ويضم إلى هذا الدليل الآثار الواردة في ذلك . ففي صحيح الترمذي ورد حديث عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن النبي عليه السلام

---

(١) مضغة : قطعة صغيرة الحجم . أنباء : أخبار . الختام : الختم الذي حصل بيمنى جبريل عليه السلام . الفض : الفتح والقطع . الإفضاء : إذاعة السر المكتوم . النسك : العبادة . النجباء: الكاملون المتحلون بكل فضل . حلت : حل بالمكان أقام به والمراد بالحلول هنا وجود الهداية في القلب . نشطت : خفت . الأعضاء : الجسم كله .

حدث أنه شق صدره بينما هو بين النائم واليقظان عند البيت وأخرج قلبه وغسل ثم أعيد . وتعددت الرواية في هذه الواقعة . وأنصار الشق الحسي يقولون إنه حدث مرتين . مرة وهو ثاو في بني سعد ، ومرة أخرى عند البيت . الأولى استخرجت فيها المضغة المشار إليها في قول الناظم والثانية غسل فيها قلبه وطهر .

والفريق الآخر ينكر أن يكون شق الصدر وشرحه حسياً ، ويحملون الشرح الوارد في الآية على الهداية والتوفيق ، وما أودعه الله فيه من أسباب اليقين وقوة العقيدة والصبر على المكاره . ويرد هؤلاء بأن الآثار الواردة في قصة الشق الحسي كلها ضعيفة ، ليس فيها أثر واحد استوفي شروط الصحة وأن القرآن الكريم لم يرد فيه نص قاطع يثبته . وإثبات الشرح في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ حمله على المجاز أقوى من حمله على الحقيقة . بدليل أن ما عطف عليه من وضع الوزر ، ورفع الذكر هيئات معنوية ، مجازية لا واقعية مادية .

على أن إثبات شرح الصدر ليس خاصاً به عليه السلام ـ مع الاختلاف في درجة الهداية ـ بل في القرآن الكريم جواز إطلاق هذا الوصف على كل مسلم هداه الله للحق: وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الأنعام:١٢٥) فهل كل مسلم حدث له شرح صدره حسياً ؟ !

والمسلك الأمثل في مثل هذه القضايا أن لا يتعصب المسلم لإثباتها ولا لإنكارها حتى ولو كان هناك مرجح يقوي أحد الجانبين . لأن التنازع فيها إثباتاً ونفياً يجلب من الأضرار أضعاف ما يصاحبه من منافع إن كانت له منافع . وليست هذه الخارقة ولا غيرها من الخوارق مما تتوقف عليه صحة الرسالة . واستمرارها . فمعجزة محمد عليه السلام موجودة لا سبيل لدفعها ، وهي « القرآن الكريم » ومن كانت معجزته الكبرى هي القرآن فليس هو في حاجة إلى معجزة غيرها وإن جلت . وقد تقدم في مقدمة هذا الكتاب عرض واضح يحدد علاقة المسلم بمثل هذه « الخوارق » غير القرآن . والأدب الذي ينبغي أن يتحلى به أمامها . فارجع إليه إن كنت ممن يحتاج إلى مثل ذلك البيان .

أما البيتان الأخيران من هذه المجموعة . فقد أشار فيهما الناظم إلى طهارة نشأته ـ إجمالا ـ ومن الخير أن نعرض لبعض جوانبها ففيها القدوة الحسنة لنا جميعاً شباباً وغير شباب .

النشأة

لم تكن نشأة محمد عليه السلام تكراراً لنشأة أي شاب وطئ الأرض قبله ولم تكررها نشأة أي شاب وطئ الأرض أو يطؤها بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . فهي صورة فريدة غير قابلة للتكرار في أى صورة يكون ، وقصارى كل نشأة طيبة غير نشأة محمد بن عبد الله أن تسمو في مدارج الكمال إلى غاية دون الغاية التي بلغتها نشأته في الطهر والكمال . أما أن تسجل في صعودها نفس الرقم الذي سجلته نشأته ﷺ فذلك أمر غير معهود في حياة أي إنسان كائناً من كان .

لأن نشأة محمد ـ عليه السلام ـ حتى في فترة الطفولة ، وهي فترة سماح في حياة كل طفل ، كانت تسير على منهج فريد من سلامة السلوك ، ونبل الخلق ، ولم يفعل قبل البعثة ـ طفلا وشاباً وكهلاً ـ عملا تندم على فعله بعد البعثة لوقوعه مخالفاً لما شرعه الوحي . بل كانت أفعاله كلها قبل البعثة وبعدها تصدر عن سلامة فطرة لم يزدها الوحي إلا صفاء . وسلامة تفكير لم يضف إليه الوحي إلا نضجاً . وحياء وجه لم يزده الوحي إلا قوة واستنارة بصيرة صقلها الوحي وزادها جلاء ووضوحاً . خفة ونشاطاً لكل عمل طيب ، وعزوف ورفض لكل نقيصة . وكل ما نقلته الرواية عن سير حياته يوحي بالخير والنجابة ، والطهر والعفة .

فأم أيمن تروي فيما تروي أنه عليه السلام في أيام طفولته لم يشك مرة واحدة أنه جائع . ونقول : وربما شرب شربة من ماء زمزم ثم عرض عليه الطعام فيقول : لا حاجة لي به . إنني شبع . وقد تقدم أنه حينما كان يرى بني عمه أبي طالب يتسابقون على التهام الطعام كان يمسك ولا يأكل ولا يشكو ذلك لأحد . مما حمل عمه أبو طالب على عزل طعامه عن بنيه وقد ورد أيضا من طريقين مختلفين أنه عليه السلام كان ينأى عما يمس الحياء فقد شوهد مع غلمان يلعبون ويشدون إزاراتهم «يعني أطراف أثوابهم» على أكتفتهم ليحملوا عليها الحجارة التي يلعبون بها . ماعدا هو عليه السلام فإنه كان يحمل الحجارة على كتفه دون شد إزاره عليه لأن في شد الإزار كشفاً وتعرية لأسفل الجسم!

ابن هشام روى ذلك في سيرته على أنه حدث في صغره عليه السلام وقد ورد في الحديث الصحيح أنه كان وهو كبير عند تجديد بناء الكعبة ، ولا منافاة بين ما رواه

ابن هشام وبين ما جاء في الحديث الصحيح ، لأن الذي يفعل ذلك في حال صغره يكون خليقاً به فعله في حال نضجه ورشده ، ولا يقدح في هذا ما قيل من أنه عليه السلام همَّ أن يشد إزاره كما فعل أترابه ، ثم نُهي عنه إذ سمع صوتاً يقول لا تشد إزارك يا محمد فخر مغشياً ثم أفاق وهو يقول ردوا إزاري ، ولم يهدئ من روعه إلا عمه العباس لأن هذه السجية رسخت في سلوكه فعرف بها ، لأن تلك النشأة الطاهرة كانت بتوفيق من الله . وسواء كان ذلك يحدث بالإلهام الفطري ، أو كان يحدث بالتوجيه والأمر فالمصدر واحد .

ومن مزايا نشأته الطاهرة أنه لم يكن يحضر مع قومه أعيادهم التي كانوا يعظمون فيها الأصنام . تقول أم أيمن حاضنته عليه السلام : كان « بُوانة » صنماً تعظمه قريش وتذبح عنده الذبائح ، وتحلق عنده وتعكف عنده يوماً إلى الليل . وكان أبو طالب عم الرسول وكافله يحضر هذا الصنم مع قريش ، فطلب من محمد عليه السلام أن يحضر معه فأبى ، وأخذ يلح عليه وهو يرفض ، حتى غضب عليه ، وغضبت عليه عماته عليه السلام ، وأخذن يقدمن له النصح . يقلن نخشى أن يصيبك من آلهتنا سوء . ولم يزالوا به حتى ذهب ، ثم رجع مرعوباً فزعاً . فسألته عماته ما الذي دهاك . فقال لهن : كلما هممت أن أمس صنما تمثل لى رجل طويل أبيض يصيح بي ويقول : وراءك يا محمد ولا تمسه . . وبعد هذه المرة لم يشترك عليه السلام مع قومه في أعيادهم التي يعظمون فيها الأصنام . وتروي عائشة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سمعت زيد بن عمرو يعيب كل ما ذبح لغير الله تعالى كان زيد يقول لقريش : إن الشاة خلقها الله تعالى وأنزل لها الماء من السماء ، وأنبت لها الكلأ من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله . سمع محمد عليه السلام هذا الكلام من زيد ، وكان زيد يعبد الله على دين إبراهيم عليه السلام . فلما سمع منه ذلك قال فيما ترويه عائشة رضي الله عنها : « فما ذقت شيئا ذبح على النصب ـ يعني على غير الإسلام ـ حتى أكرمني الله برسالته » .

وزيد بن عمرو هذا أحد أربعة . هجروا ما كانت عليه قريش من عبادة الأصنام وتعظيمها قبل الإسلام . والثلاثة الآخرون هم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ابن عمة الرسول عليه السلام « أميمة » وعثمان بن الحويرث .

وقد طُبع عليه السلام على كراهية الأصنام ، وذلك واضح من هذه القصة ، ومن رده عليه السلام على بحيرى الراهب حين حلفه باللات والعزى ، حيث قال له عليه السلام : «لا تسألني بهما ؟! فإني ـ والله ـ ما أبغضت شيئاً بغضهما» وفي ذلك يقول عليه السلام ، «لما نشأت بُغضت إليَّ الأوثان ، وبغض إليَّ الشعر».

وحين سئل عليه السلام عن أمور منها عبادة الأوثان أجاب بأنه لم يعبدها قط . فقد قيل له : هل عبدت وثناً قط؟ قال : لا . هل شربت خمراً قط ؟ قال : لا : ومازلت أعرف أن الذي عليه هم كفر ، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان».

وهو ـ عليه السلام ـ يتحدث بعد البعثة عن سلامة نشأته قبل البعثة فيقول : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به من الغناء إلا ليلتين كلتاهما عصمني الله منهما . قلت ليلة لبعض غلمان مكة ونحن في رعاية غنم أهلنا فقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الصبيان فقال : بلى . فدخلت حتى إذا جئت أول واد من دور مكة سمعت عزفاً وغرابيل ومزامير . قلت : ما هذا؟ قيل تزوج فلان فلانه فجلست أنظر . وضرب الله على أذني ، فوالله ما أيقظني إلا حر الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت؟ فقلت ما فعلت شيئا ثم أخبرته بالذي حدث» ثم حدث مرة أخرى مثلها . فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما إلى شيء من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته» .

قدر أهل الجاهلية فضل هذه الأخلاق ، وأدركوا بأنها طراز جديد لم يعرفوه من قبل وإن عرفوا بعضا من سماته في أفراد قلة . أما هذه الصفات مجتمعة فلم يروها في أحد قط إلا في محمد بن عبد الله . ولذلك سموه أو أطلقوا عليه «الصادق الأمين» فالصدق يعني سلامة الأقوال ، والأمانة تعني سلامة الأفعال .

أصبح محمد عليه السلام مختصاً بينهم بهذين الوصفين . معروفا بهما ، وشاب في مثل سنه ﷺ يتحقق له هذا الفضل لهو شيخ الشباب وشباب الشيوخ .

اطمأنت إليه القلوب فلم تتهمه بريبة ، واستراحت إليه النفوس ولم تتوقع منه منقصة ، وذاع فضلة بين الناس فلم ينكره أحد ، وأجمع القاصي والداني على مدحه ولم يذمه لسان ، وحكموه فيما شجر بينهم فما عارض حكمه شيخ ، ولا رده راد .

كان سكوته حكمة ، وقوله موعظة ، وفعله قدوة ، في زمان كان الناس فيه ظمأى لحكمة تقيهم مواطن الزلل . وموعظة تهديهم إلى جلائل العمل ، وقدوة تريهم مدارج الحق ، ومجمع النبل .

أخذت تلك السجايا المشرقة يزيدها الزمن قوة ونضجاً ، وكلما خطا عليه السلام خطوة من عمره الميمون كثر عطاؤه للحياة ، ونما خيره وتنوع إثماره لونا وحجما وطعما . ومهما تنوعت الألوان والحجوم والطعوم فإن المنظر جذاب ، والحجم ثقيل وإن ضؤل ، والطعم لذيذ وممتع حتى اكتسبت تلك الشخصية الفذة نوعًا فريداً من الجاذبية الساحرة جمعت حوله القلوب . وصوبت نحوه الأنظار . وأكثرت به الإعجاب فلم يعرف له قبل البعثة عدو . وما كان في الناس له خصوم ، وحين أكرمه الله بالرسالة وناصره قوم وخاصمه آخرون كان كل من الأنصار والخصوم مجمعين على «مثاليته» وإن أنكرها - في الظاهر - حقد المعاندين ومع هذا فإن صاحب تلك السجايا المشرقة لم يظلم خصما لأنه خصم ، ولم يحاب صديقاً لأنه صديق . بل يقر الحق في موضعة ولا يبالي أين وقع في نفس هي له محبة ، أم في نفس هي له مبغضة . فلا غرو أن يجتمع الناس حوله من جميع الطبقات . من الأغنياء والأقوياء والأحرار والرجال . ومن الضعفاء والفقراء ، والعبيد والنساء والشباب والصغار ويبين القرآن الحكيم - فيما بعد - سر هذه الألفة ، ومصدر ذلك الجذب والإعجاب فيقول : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ ولكنهم لم ينفضوا من حوله ، لأنه لم يكن فظا ولا غليظ القلب ، فلم ينفض أحد من حوله ، بل ألفه الجميع ، وأحبه الجميع . حتى أعداؤه عرفوا له فضله وكرم خلقه ، وطيب شمائله . وصدق الله إذ يقول له عليه السلام : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام:٣٣) [1] وبعد الإشارة إلى كمال نشأته عليه السلام توج هذه المجموعة من الأبيات ببيت من عيون شعر الحكمة ، وهو قوله :

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت في العبادة الأعضاء

لأن الإنسان إنما يتحرك استجابة لإحساسه وشعوره ، والقلب مع صغر حجمه هو المحرك لكل نشاط ، وإذا اقتنع القلب بفكرة ونزلت منه منزلا خاصاً أتعب جسمه ، وأدمى قدميه في السعى وراءها حتى الحصول عليها كما يقول الآخر :

---

(١) معنى الآية : إنهم يصدقونك فيما تقول ، ولكنهم يجادلون بالباطل .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وكم من المصلحين ، والكاتبين والخطباء يجدون في الاستشهاد ببيت « الناظم » برداً وروحاً وإمتاعاً وإقناعاً .

آيات البعثة

وقال ﷺ :

بعث الله عند مبعثه الشهـ ـب حراساً وضاق عنها الفضاء[1]

تطرد الجنَّ عن مقاعدَ للسمـ ـع كما تطرد الذئابَ الرعَاء

فمحت آية الكهانة آيا ت من الوحي مالهنَّ امحاء

يقول : حين شرف الله الكون ببعثة محمد عليه السلام ، أرسل الله الشهب الحارقة لطرد الشياطين من استراق السمع . وكانت الشياطين قبل مبعثه ﷺ تسترق السمع مما يدور بين الملائكة حول شأن أهل الأرض وقد كان هذا السلوك مصدر سلطان للكهان والعرافين في السيطرة على عقول الناس والتحكم في توجيههم . وقد ورد ما يؤيد هذا عن ابن عباس رضي الله عنه . وثابت بنص القرآن اتصال الإنس بالجن في قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (الجن:٦) فاتصال الكهان بالجن واستقاء الأخبار منهم قبل المبعث كان من الأمور المعروفة .

ولكن مع بدء تكليفه ﷺ منعت الجن من استراق خبر السماء وأصبح من يحاول منهم الاقتراب منه يجد له شهابا رصداً ، فيلقى عليه وقد حكى ذلك القرآن الأمين فقال حاكياً لقولهم :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (الجن:٨-١٠).

---

(١) الشهب : النجوم ، الرعاء : حراس الأغنام وهي ترعى . محت : أزالت . الكهانة : العرافة . وكان أمرها ذائعاً في الجاهلية فأبطلها الإسلام . الوحي : القرآن والإلهام .

ولما منع الشياطين من استراق السمع بطل أمر الكهانة والكهان لزوال مصادرهم التي كانت تغذيهم بالأخبار . وهكذا انمحت ظاهرة التكهن وظل الحق النازل من السماء عن طريق الوحي يرقى بالفكر الإنساني طوراً فطوراً في مدارج النضج والكمال . لن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل الله العزيز الحميد .

ومن الصور الأدبية الرائعة ما عقده الناظم ، من تشبيه بين دفع الملائكة والشهب للشياطين المبطلين مسترقي السمع ، ومن دفع الرعاة الذئاب عن افتراس الأغنام . فالحارس شبيه بالملك في دفاعه عن الحق والشيطان شبيه بالذئب في الاعتداء والتسلل والخيانة . وإن من البيان لسحراً .

وقال ﷺ :

ورأته خديجــة والتُّقــى والزُّهــ	ـــد فيــه ســجية والحيــاء[1]
وأتاهـــا أن الغمامـــة والســـ	ـرحَ أظلتـــه منـــهما أفيـــاء
وأحاديـــثُ أن وعــــد رســــول	الله بالبعــث حــان منــه الوفــاء
فدعته إلى الـزواج ومـا أحـــ	ـسنَ ما يبلغُ المنى الأذكيـاء

يقول : علمت خديجة بنت خويلد بورعه وزهده وعلو شأنه خَلقاً وخلقاً . . . وبلغ سمعها ما كان يتردد على ألسنة الناس من أمر الخوارق التي كانت تقع من أجله وما كان يردده الرهبان والكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى بأن نبياً كان سيبعث قد حان وقت الوفاء به وعلمت من خلقه ﷺ عن قرب ما جعلها تظهر رغبتها في الزواج وذلك حين عمل لها بالتجارة في مالها مع غلامها ميسرة . فكان أميناً أروع ما تكون الأمانة ، ميموناً أثمن ما يكون اليمن ، فحقق لها من الربح الكثير .

وكان اشتغاله بالتجارة في مال خديجة قول عمه أبى طالب ، وهو في كفالته ، : يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتد الزمان ، وأقبلت علينا سنون منكرة (عجاف) لا خير فيها وليس لنا مادة ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى

---

(١) سجية : طبع . الغمامة: السحابة . السرح : شجر طويل لا شوك فيه . أفياء : ظلال . حان : أزف . الوفاء : التنفيذ .

الشام . وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع . فلو عرضت نفسك عليها لأسرعت إليك ولفضلتك على غيرك لما تعلم به من طهارتك وإن كنت أكره ذهابك إلى الشام وأخاف عليك من اليهود ولكني مكره على ذلك . فقال له عليه السلام . لعلها تبعث إليَّ هي . فقال : أخشى أن تبعث غيرك . فبلغ خديجة مادار بينهما من حوار . فأرسلت إلى محمد ﷺ فقالت له :

إني دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك ، وعظم أمانتك وكرم أخلاقك وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلا من قومك. فخرج ﷺ مع غلامها ميسرة. فقالت خديجة لميسرة : لا تعصي له أمراً ، ولا تخالف له رأياً . وفي الطريق إلى الشام ظللته الغمامة ، وتضامت أفرع وأوراق شجرة لتظله حين جلس تحتها . وتبين الراهبان بحيرا ونسطورا وهو في طريقه إلى الشام أنه يحمل علامات نبي سيبعث ويكون خاتم الرسل ، وتوددوا إليه وأكرم بحيرا القافلة ، التي يسير فيها من أجله وأوصى به خيراً ، وحذراه من اليهود ، وكانا يعرفان تلك الأوصاف من الإنجيل المنزل على عيسى ابن مريم عليه السلام .

شاع أمره ﷺ فرغبت خديجة في التزوج به وقد تقدم إليها كثير من كبار رجالات قريش ، وأعلاهم كعباً ، فلم ترغب في واحد منهم ، ولكنها طلبت بنفسها التزوج بمحمد الصادق الأمين ﷺ . وتم ذلك الزواج الميمون بحضرة رجال من قريش من أهلها وأهله فكان هذا الزواج ثمرة يانعة من ثمار القدر الذي كان يخطط لمحمد عليه السلام ، ويقدر له الخير حيث كان وكان لخديجة بعد ذلك دور عظيم في مساندة محمد عليه السلام في أمر الدعوة . . وأحبها حباً شديداً ظل يلهج به وفاء لها حتى نفستها فيه أم المؤمنين عائشة ﷺ .

وكان سن محمد عليه السلام حين تزوج خديجة خمساً وعشرين سنة ، أما سنها فقد بلغ الأربعين ، ولما بعث عليه السلام بلغت هي من العمر الخامسة والخمسين . وكان هو في الأربعين في عمره المبارك وكان لتقدم سن خديجة عام البعثة ، ونضج تفكيرها أثر ظاهر في التثبت والرأي الصائب عندما دخل عليها عليه السلام وهو يرتعد من شدة الوجل لما جاءه جبريل لأول مرة وبدأ نزول القرآن الكريم .

وقال ﷺ :

الوحى فـي بيت خديجة

وأتـــاه في بيتـــها جبرئيـــل ولذي اللبّ في الأمور ارتيـاء[1]

فأماطت عنـها اللثـام لتـدري أهــوَ الـوحيُ أم هـو الإغمـاء

فاختفى عند كشفها الرأس جبريـ ـل فما عـاد أو أعيـد الغطـاء

فاستبانت خديجة ، أنـه الكنـ ـز الذي حاولتـه ، والكيميـاء

يقول : إن جبريل أمين الوحي نزل ليبلغ الرسول عليه السلام ما أمر به من ربه وهو في بيت خديجة . فغاب شعوره ﷺ لعظم الأمر الذي يتلقاه ، حيث يتجه إلى تلقيه بكل ما يملك من أحاسيس ومشاعر وانتباه فلا تبقى لديه عليه السلام ذرة من شعور تنصرف لغير الوحي . فلما رأت خديجة ذلك أرادت أن تعرف أهو الوحي الذي شغل محمداً عنها وعن الدنيا كلها ، أم هو إغماء ألمّ به ، وهو من الأعراض الجائز لحوقها بالرسل في بعض الأحيان . فكشفت رأسها فسري عن رسول الله عليه السلام لأن جبريل لا يدخل بيتاً به امرأة رأسها مكشوف فتيقنت وقتذاك أنه الوحي فأعادت ستر رأسها بالغطاء فعاد الوحي فاطمأنت خديجة حين ظهرت لها حقيقة هي أسعد الناس بها .

وهنا أمور يجب مناقشتها وهي :

أولا : كيف يقال إن جبريل أتاه ﷺ في بيتها ومعلوم أن جبريل إنما أتاه أول مرة في غار حراء وليس معه أحد ، وأنه ريع من هذا اللقاء غير المعهود له وأقبل مسرعاً إلى بيت خديجة ينبئها الخبر؟ وكيف فطنت خديجة ، إلى أن الذي تراه من أحوال محمد عليه السلام في تلك اللحظة يمكن أن يكون الوحي ؟

وللإجابة نقول : إن هذا الذي أشار إليه «الناظم» صحيح ، لأنه يتحدث عن نزول ثان للوحي ، وليس مقصوده المرة الأولى التي لقي فيها جبريل محمداً عليه السلام .

---

(١) ذى : صاحب . اللب : العقل . ارتياء : رأي وفطنة . أماطت : أزاحت . اللثام غطاء الرأس والعنق أو بمعنى حتى استبانت: علمت . الكنز في الأصل خزينة المال والمراد به هنا : الفضل والشرف . حاولته : أرادته .

إذ لا خلاف في أنها كانت بغار حراء . ثم فتر الوحي بعدها فترة عاد بعدها يوحى إلى محمد عليه السلام ما شاء الله أن يوحيه إليه .

أما كيف فطنت إلى ذلك . فلأنها حين أخبرها باللقاء الأول وذهبت به إلى ورقه ابن نوفل أفتاهما بأن الذي حدث إنما هو الوحي الذي كان ينزل على عيسى عليه وعلى نبينا السلام .

ثانيا : أكان عليه السلام يغمى عليه حين يتلقى الوحي فيغيب عن الوعي الظاهر . وإذا سلمنا بذلك أليس يكون مسايرة لأعداء الإسلام والمشككين في الوحي الذين يزعمون أن القرآن الحكيم إنما هو رؤى وأحلام كان يتلقاها محمد في النوم ؟

وللإجابة نقول : إنه ليس إغماء ولا غيبة وعي أبداً . فالمغمى عليه والغائب وعيه لا يدرك شيئا أبداً . والذي كان يعتري محمدا عليه السلام حين يتلقى الوحي إنما هو استقطاب لكل قوى الإدراك التي فيه لتتصرف كلية إلى تلقي ذلك الأمر العظيم حقاً ، والجليل حقاً ، فهو وإن لم يشارك بوعيه في إدراك شيء مما حوله من أمور الحياة . فإنه أشد ما يكون إدراكاً . وأقوى ما يكون وعياً في تعقل وتفهم أمور أخرى هي أعظم مما في الدنيا . وأعظم من الدنيا كلها . إنه انصراف عن شئون الدنيا في لحظة يقبل فيها بكل قواه الذهنية والفكرية إلى ماهو أخطر وأجل .

وأنه ليقع لكل منا ما يماثل هذا الوضع . فعندما يستغرق فكر الإنسان في أمر هام يشغله ، لا يسمع ما حوله من أصوات ، بل ولا يبصر بصراً مميزاً ما تقع عليه عينه من مرئيات ، وربما تردى مرات فلا يتنبه إلا أن ينبه بوساطة لمس جسمه بيد ونحوها . وإذا وقف إنسان أمام إنسان آخر له منزلة رفيعة في دنيا الناس وهو من دنيا الناس . فإنه يعتبر هذا الوقوف لحظة فريدة في حياته ، خاصة إذا بادله الحديث ، فيذهل عن كل ما حوله لاهتمامه البالغ بمن يحدثه ويقف أمامه فلا يقال إنه في هذه الحالة مغمى عليه ، أو أنه يحلم . وذلك هو الذي كان لمحمد عليه السلام . لأنه كان يتلقى كلام خالق الكائنات ، وليس في حياة محمد عليه السلام من هو أعظم عنده من ربه . ! فإذا أقبل محمد عليه السلام بشعوره كله وفكره كله ، وعقله ونفسه ليتلقى وحي ربه في وعي كامل لم يخالطه أدنى شيء من الخارج يقال إنه مغمى عليه . أو حالم؟! كبرت كلمة . تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذبا .

ويزعم بعض المفكرين الغربيين بأن محمداً ﷺ كان مصاباً بمرض عضوي هو الذى كان يعتريه !

وهذا قول كله زور وبهتان ، فلم يكن هذا المدعي شاهداً لتلك الحال ولا قام بتشخيصها وإثبات نتائج عنها . وهل المريض مرضاً عضوياً - كما يقول - يخرج منه عقب كل نوبة من نوباته بمثل ما كان يخرج به محمد عليه السلام من بيان معجز للإنس والجن ، بما تضمن من ألفاظ ومعان وحقائق جليلة ليس للفكر البشري - في حالة صحوه ووعيه إليها من سبيل . لو كان الأمر كما قال أكانت نوبة واحدة من نوبات ذلك المرض أخصب من السلامة الدائمة منه على مدى الدهر عند الناس جميعاً . ولكان ذلك المرض هو الصحة في أجلى صورها . ولكان الفكر لدى المصاب به حالة تعتريه أثمر بكثير من أرقى ما تجود به العبقريات الفذة في لحظة من أغنى لحظاتها الأكاديمية عمقاً وإصابة وموضوعية . فما أفلح ذلك المرض (!) وما أخسر كل صحة سواه ؟!

ثالثا : شبه الناظم الوحي بالكنز والكيمياء فما هي القيمة البيانية لهذا التشبيه؟

والجواب : أن تشبيه الوحي بالكنز تشبيه رائع جداً لأن كلا من المشبه والمشبه به من الأمور التي كان من شأنها الحفظ والستر ، وإعطاء صاحبها المال يصون صاحبه ويكفيه العوز والفقر ، والوحي يهدي صاحبه إلى الحق ويغنيه عن تلمس الهدى فيما سواه ويحميه من الضلال والحيرة . أما تشبيه الوحي بعد ذلك بالكيمياء فلأن الكيمياء يتوصل العالمون بها إلى « صهر الخامات » وتحويلها من شكلها وطبيعتها الساذجة إلى أشكال وطبائع جميلة أكثر نفاسة وأقوى جذباً وكذلك الوحي ، فإن المؤمنين به ، الدعاة إليه ، إذا اتخذوه مبدأ للإصلاح فإنهم يتوصلون به إلى تغيير عقيدة المدعوين ، وتوجيه سلوكهم إلى ماهو حق وخير ، فيصبحون في وضع جديد مغاير تماماً لما كانوا عليه قبلا .

وهكذا فعل القرآن أول ما فعل في شعب شبه الجزيرة العربية ، والنازل بلغتهم ، وعلى لسان رسول منهم . هداهم بعد ضلال . وحضرهم بعد بداوة ، وجمعهم بعد

تفرق ، وأعزهم بعد هوان ، ونظمهم بعد فوضى ، وسودهم بعد سوقة . حتى أصبحوا بفضله أئمة ، يهدون بأمر الله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

فما أروع هذا التشبيه ، وما أصوب قائله فيه . وكذلك يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

وقال ﷺ :

محمد يدعو الناس إلى الحق

ثم قام النبي يدعو إلى الله	وفي الكفر نجدة وإباء[1]
أمما أشربت قلوبهم الكفر	فداء الضلال فيهم عياءُ
ورأينا آياته فاهتدينا	وإذا الحقُّ جاء زال المراءُ
رب إنَّ الهدى هداك وآيا	تك نور تهدي بها من تشاءُ

يقول : نهض محمد عليه السلام من صمته يدعو الناس إلى توحيد ربهم وعبادته عندما جاء الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(الشعراء: ٢١٤). وهنا تكليف بدعوة قومه خاصة ، ثم عمم أمر الدعوة بعد ذلك في قوله : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤) فكلف عليه السلام بدعوة الناس عامة بعد دعوة قومه خاصة . قام محمد عليه السلام يواجه الدنيا كلها بمفرده يدعو إلى الله العلي الحميد .

وقد بدأ عليه السلام يدعو إلى الله الناس فرداً فرداً . من يثق فيه منهم إذ كانت الدعوة سراً لا ذيوع لها ، لأنه عليه السلام لم يؤمر بإعلان الدعوة ابتداء ، ولم يجد عناء في هذا الطور وتسابق إلى الإسلام لفيف من الرجال والنساء والشباب مثل خديجة رضي الله عنها،وأبو بكر الصديق،وعلي بن أبى طالب،وزيد بن حارثة مولى رسول الله .

وكان إسلامهم على الترتيب : خديجة ، فعلي ، فزيد ، فأبو بكر رضي الله عنهم . وكان لكل منهم به ـ عليه السلام ـ صلة قبل البعثة فخديجة رضي الله عنها أولى أزواج النبي عليه السلام

---

(١) نجدة وإباء . قوة في ذلك الحين ، وامتناع عن الاستجابة إلى الحق أشربت مزجت ، عياء مستعصي . المراء : الشك والحيرة . تشاء : تريد .

وعلي تربى في كفالة محمد عليه السلام لأن أباه أبا طالب كان ذا عيال وفاقة فعرض محمد عليه السلام على عمه العباس أن يأخذ كل واحد منهما ابنا من أبناء أبي طالب ليخف عليه العبء . فأخذ العباس جعفراً ، ومحمد عليه السلام علياً . ولذا حين عرض محمد عليه السلام الإسلام على ـ عليّ سارع إليه ولم ينتظر أن يستشير أباه كما بدا له أول الأمر وزيد كان مولى رسول الله وقد منّ عليه بالعتق ، وأبو بكر كان صديقا للنبي عليه السلام . وبإسلام أبي بكر أسلم كثير من الصحابة . مثل عثمان ابن عفان والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله . وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبي وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة والأرقم بن أبى الأرقم ، وسعيد ابن زيد وامرأته وعثمان بن مظعون ، وأسماء وعائشة ، ابنتي أبي بكر الصديق ولفيف غير هؤلاء من الرجال والنساء .

وإنما تعرض عليه السلام لكثير من صور العناد والأذى عندما أمره الله بالجهر بالدعوة فجمع قومه من قريش وانتزع منهم اعترافهم بصدقه وأمانته قبل أن يوجه إليهم الدعوة إلى الإسلام . فلما قالوها قال لهم : « إني نذير لكم بين يدى عذاب شديد» فقام أبو لهب وقال : تباً لك يا محمد . ألهذا دعوتنا؟ وكانت هذه الكلمة : أول درجة في سلم العداء بين الحق والباطل . وقد أشار « الناظم» إلى أن جانب الكفر في ذلك الوقت وهو وقت الجهر بالدعوة ، كان قوياً فيه نجدة ينجد بعضهم بعضاً ، وإباء وصدود عنيف عن سماع دعوة الحق ، ولعل مراده من ذكر هذا الموقف هو بيان إلى أى مدى بلغت شجاعة نبي الإسلام ورباطة جأشه . فقد تصدى لأقوام عتاة غلاظ فيهم رعونة وبطش بالغ وعكوف على القديم وقسوة في المشاعر والقلوب . فقد مزجوا الكفر بقلوبهم واستحكم الجهل والضلال في تصرفاتهم ، وحال بينهم وبين كل إصلاح وصعب على من يريد هدايتهم وإرشادهم . مقادهم واستجابتهم . والذى يستخرج الزرع البهيج من أرض مليئة بالصخور والرمال والنتوءات وسوء التربة عليه أن يتحمل من المشقات والمصاعب ما تنوء بحمله الجبال ، ولا يقدم عليه إلا ذوو الهمم الصلبة ، والإرادات القوية ، والصبر غير المحدود ، وهكذا كان محمد عليه السلام .

لقد كان رجلا في أمة ، وأمة في رجل . والله أعلم حيث يجعل رسالته وتحدث « الناظم» بعد الإشارة إلى العناد الذي قابل به المشركون الدعوة وصاحبها وهي

وليدة ، تحدث عن أولئك النفر الذين استجابوا لله وللرسول إذ دعاهم لما يحييهم قال : « ورأينا آياته فاهتدينا » بضمير المتكلم الجمع ، وهذه إشارة حكيمة إلى أن المؤمنين بعضهم من بعض . فهو ونحن لم نكن حاضري عصر تلك الدعوة إبان تأسيها . والذي رأى تلك الآيات في ذلك العصر الميمون جماعة شرفهم الله بصحبة أكرم خلق الله عند الله . ومع هذا فإن وحدة الشعور عند المؤمنين سوغت للناظم أن يشركنا معهم في شرف تلك الرؤية . فالعرى بيننا وثيقة . فهم نحن ، ونحن هم . رأوا فرأينا معهم ، فاهتدوا فاهتدينا معهم .

وتوج « الناظم » هذه المجموعة كما توج مجموعات غيرها بحكمته الجامعة .

رب إن الهدى هداك وآيا تك نور تهدي بها من تشاءُ

إن هذا البيت ، وما مر من أمثاله مما عنى به « الناظم » من الحكم والمعاني الجامعة لهي بمثابة فواصل بين صورة وصورة يمنحنا فيها الأمل وراحة النفس ونحن نتنقل بين رياض « همزيته » الفيحاء ، ينعشنا أريجها ويشجينا تغريد طيورها .

ويقول ﷺ :

كم رأينا ما ليس يعقل قد ألـ ـهم ما ليس يُلهم العقلاء[1]
إذ أبى الفيل ما أتى صاحب الفيـ ـل ولم ينفع الحجا والذكاءُ
والجمادات أفصحت بالذي أخـ ـرس عنه لأحمد الفصحاءُ

يقول : والدليل على أن الهدى هدى الله ، وسر من أسراره أننا سمعنا وعلمنا وسمع من عاصر عهد المبعث ، ومن عاش قبله خوارق تقدمت موكب قدوم النبي الكريم . وصاحبته أجرى الله فيها تلك الخوارق من جمادات لا عقل لها ولا حياة ، ومن مخلوقات لاوعي عندها ولا فكر تمهيداً لمقدم صاحب الموكب العظيم ، وتأكيداً له حين قام أمره . ونما عوده ، ففي عام مولده قدم شيطان صنعاء أبرهة الأشرم يجر فيله وجنده ليهدم بيت الله الحرام ، ولم يتورع أن ينتهك حرمة البيت فيقدم نحوه ليهدمه وتأبى الفيلة أن تقترب منه ، وكلما حملت على الإقدام نحوه

---

(١) كم : استفهام مراد به التكثير . أي كثير ما رأينا الفيل . هو فيل أبرهة الأشرم الذي أراد به هدم الكعبة . الحجا : العقل . الجمادات : الأجسام التي لا حياة لها . أفصحت : أبانت .

جعلت إلى الإحجام عنه . فلم ينفع العاقل عقله فأتى بالحمق كله ، ولم تقعد بالبليد بلادته . فأتى بالصواب كله .

أما الجمادات فقد تعددت الوقائع التي نسبوها إليها ، فاستجابت لدعائه شجرة ، ونبع تحت أصابعه الماء ، وسبح الحصى في يده . وكان يوما ﷺ يسير على جبل أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان كبار صحابته فاهتز الجبل هزة ملحوظة ، فضرب عليه السلام على الجبل بقدمه وقال : اثبت أحد فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان[1]. فزالت الهزة .

وسيأتي بعد قليل أمور أخرى من هذا القبيل أشار إليها الناظم في مواضع متفرقة ، ولا ضير في ذلك فإن الله يؤيد رسله بما شاء من المعجزات والخوارق التي لا يضيق بها فكر المؤمن ولاعقله ولا قلبه مادام مصدر الجميع هو الله جلت قدرته . فمن يؤمن بالله لا يرى غضاضة في مثل هذه الوقائع لأنه يثبت لله قدرة لا تعجز . ولنذكر دائما ـ نحن المؤمنين ـ أن الإيمان أرحب ساحة من العقل ، وأوسع مجالاً ، وليس معنى هذا أن الإيمان يلغي العقل ، أو يستهين به . فما قام إيمان إلا على عقل وأكثر المؤمنين ثباتاً أرجحهم عقولا ، ولكن العقل قد يختلق مواقف عداء مع الإيمان وتلك المواقف لا وجود لها في جانب الإيمان ، ولذلك فإن الإيمان سرعان ما يبسط راحته للعقل إذا استبان العقل بطلان تلك المواقف التي افترضها ، وإذا أنصف العقل فإنه يجب أن يعترف بعجزه أمام كثير من قضايا الإيمان ، وأن يعترف بقدرة الإيمان على توجيه كل المشكلات واستلهام حلولها .

وإلا فما الذي يفهمه العقل من « الروح » التي تتحقق بها الحياة أليست هي حقيقة لا يمكن إنكارها فما تفسير العقل لها وهل استطاع أن يخضعها للوسائل المعملية ليدرك كنهها . . أو يتحكم في الاحتفاظ . .؟!

---

(١) إذا صح الحديث ففيه تنبأ باستشهاد عمر وعثمان رضي الله عنهما . وذلك ليس بممتنع في حق الرسل فإن الله يطلع بعضهم على بعض الغيوب وهو القائل في القرآن الكريم : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾.

هذا دليل قاطع على أن العقل له مجال يعمل فيه لا يتعداه وأنه ليس صالحاً لتفسير كل شيء .. فعجز العقل عن إدراك حقيقة الروح فضلا عن التحكم فيها مؤدله إلى أن الإيمان استأثر بسر هذه الحقيقة إذ يقول الحكيم في كتابه المعجز ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٨٥) وغير هذا كثير مما أشرنا إليه في المقدمة وما ذكرت هنا هنا إلا تذكيراً بما مر لغرابة الوقائع التي أشارت إليها المجموعة الماضية . والتي ستشير إليها المجموعة الآتية .

وقال ﷺ :

الحديث عن الهجرة

ويحَ قوم جفوا نبياً بأرض	ألفته ضباها والظباءُ[1]
وسلوْهُ وحن جذعٌ إليه	وقلوهُ وَوَدَّهُ الغرباءُ
أخرجوه منها وآواه غارٌ	وحمته حمامة زرقاءُ
وكفته بنسجها عنكبوت	ما كفته الحمامة الحصداءُ
واختفى منهم على قرب مرآ	هُ ومن شدة الظهور الخفاء

يقول : ياهلاك قوم هجروا نبياً مثل محمد عليه السلام بأرض كمكة قد أحبه كل ما فيها حتى الضباب والظباء والذئاب والأسود والنمور والحيات وتسلوا عنه زهداً فيه في الوقت الذي حن فيه جذع من جذوع الأشجار إليه ﷺ ، وأظهر شوقه إليه .. وكرهوه حسداً وهم أهله في الوقت الذي عرف الغرباء عنه فضله ومنزلته فأنزلوه في قلوبهم قبل أن يفتحوا له أبواب مدينتهم ومنازلهم .

وفي الوقت الذي سخر الله فيه العنكبوت لتنسج خيوطا حول مخبئه حتى لا يظهر أمره فيصلوا إليه بسوء . ولم تكن الحمامة الورقاء الحصداء بأقل شأناً من الضباب

---

(١) ويح : هلاك . جفوا : هجروا . ألفته . أحبته . الضباب بكسر أوله والظبأ جمع ضب وظبية . سلوه : مالوا عنه . قلوه : كرهوه . آواه: ضمه . ورقاء : فى لونها بياض وسواد . كفته : سدت حاجته . الحصداء :الكثيرة الريش يصف الحمامة فى الموضعين بأنها كثيرة الريش فكأن كثرة ريشها كان من أجل إخفائه ﷺ عنهم .

والظباء والجذع والعنكبوت فأفرخت بيضها حول مقامه الكريم في غار النور ، ومقر الطهر والكرامة .

تعس هؤلاء القوم وخاب سعيهم . فليس ينتظرهم إلا الهلاك جزاء وفاقاً . طلبوه فلم يجدوا له أثراً ، أعمى الله أعينهم عنه وهم أقرب ما يكونون إليه . . ولا غرابة فإن الأشياء التي يخترقها النظر إذا لاصقت العين أعمتها برؤيتها فلم تكد تبصر شيئا . والشمس إذا أطال الناظر إليها نظره سلبته القدرة على الإبصار . أرادوا به كيداً فجعلهم الله هم الخاسرين وعصم نبيه وصاحبه أبا بكر من الشيطان وحزبه .

هذه المجموعة من الأبيات تتحدث عن واقعة الهجرة من مكة إلى المدينة وعداء المشركين لمحمد عليه السلام ومن اتبعه من المؤمنين . وهي إشارة قد يأتي لها ذكر بعد .

لكن الوقائع التي أشار إليها في هذه المجموعة منها ما وقع قبل الهجرة ومنها ما وقع في أثنائها ، ومنها ما وقع بعدها . فواقعة الضباب والظباء المشار إليها في البيت الأول حدثتا بمكة ، قبل الهجرة حسبما هو مسطور في كتب السيرة . وحنين الجذع حدث بالمدينة . ونسج العنكبوت وتعشيش الحمامة وتفريخ بيضها حدثتا في أثناء الهجرة .

وعذر الناظم أنه لم يرد أن يسرد حوادث السيرة سرداً تاريخيًّا وإلا لما جاز له أن يعود فيتحدث عن الإسراء والمعراج بعد حديثه عن الهجرة وهما حدثا بعدها . وسنعود إن شاء الله لبيان هذا مرة أخرى .

وواقعتا الضب والظبية فيهما كلام كثير ومؤدى الواقعتين أن الضب تكلم في حضرة النبي عليه السلام وأن الظبية اشتكت إليه اعتداء الصائد عليها . وقد قال كثير من العلماء المحققين إنهما موضوعتان ولا أساس لهما من الصحة ، ويرى آخرون أنهما ضعيفتان وليستا موضوعتين والفرق بينهما أن الموضوع مكذوب أساساً ، والضعيف أعلى منه لأنه يتردد بين الإثبات والنفي ، ولكن جانب النفي فيه أقوى من جانب الإثبات ، أما الموضوع فليس فيه إلا جانب النفي .

ويمكن حمل كلام « الناظم » على أن تلك المذكورات اطمأنت إليه ولم تخش منه اعتداء لأنه رحيم لم تشاهد منه أية بوادر اعتداء وهذا الفهم يؤيده قول الناظم نفسه

«ألفته» والألفة هي الأنس إليه وعدم الفرار منه . وليس هذا المعنى بمنكر لأنه يحدث لكثير من الناس حتى مع الحيوانات المتوحشة .

أما حنين الجذع إليه فقد تواتر نقله حتى كاد يبلغ درجة الصحة وحاصله أنه عليه السلام كان يخطب على جذع من النخل فلما صنع له المنبر انتقل إليه فكان المصلون يسمعون للجذع صوتاً مثل الحنين حدث هذا بالمدينة المنورة بعد الهجرة .

ونسج العنكبوت ، وتعشيش الحمامة مثل حنين الجذع في القوة ولا غرابة فيهما فقد كان من معجزات الأنبياء الثابتة ماهو أغرب كما تقدم .

وفي البيت الأخير يقول الناظم ومع شدة طلبهم ، وحرصهم عليه وبذلهم قصارى جهدهم في العثور ، فقد اختفى منهم وراء أبسط وسائل التمويه وهو أقرب ما يكون إليهم تلك هي حكمة الله ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (الصافات: ١٧١-١٧٣).

وفي قوله «ومن شدة الظهور الخفاء» إشارة إلى بعض قوانين الرؤية وهي أن لا يكون المرئي قريباً جداً لأنه يحجب الرؤية حال إبصاره . وهي من المعاني العامة التي كثيراً ما يفصل بينها بين مجموعات قصيدته .

وقال ﷺ :

ونحا المصطفى المدينة واشتا ... قت إليه من مكة الأنحاء[1]

وتغنت بمدحه الجن حتى ... أطرب الإنسَ منه ذاك الغناء

واقتفى أثره سراقة فاستهو ... ته في الأرض صافن جَرداءُ

ثم ناداه بعد ما سيمت الخـ ... ـسف وقد ينجد الغريق النداءُ

---

(١) نحا : اتجه . الأنحاء : الجهات . تغنت : رتلت . اقتفى : تبع . أثره : خطاه . سراقة اسم رجل . استهوته : جذبته وأمسكته الصافن . من الخيل التي تقوم على ثلاث قوائم وترفع الرابعة . جرداء : قليلة الشعر وهما صفة مدح في الخيل . سيمت الخسف : أذيقت الذل . ناداه : نادى سراقة بن مالك محمداً عليه السلام وطلب منه الأمان عفا عنه ﷺ . الغريق : هو ما سقط في الماء والمراد به هنا وقوع سراقة في شدة فهو استعارة .

يقول : قصد النبي الكريم المدينة دار هجرته بعد أن قنط المشركون من العثور عليه، وترك وراءه مكة لكل في ناحية فيها أثر وحياة، وهي أشد ما تكون شوقاً إليه. لأنه أكرم من ولد وعاش فيها، وتشرفت بنزول الوحي عليه فيها وملأت الجن الآفاق شدواً بكماله . وتغنياً بأفضاله، وسمع الإنس تغريد الجن حتى التذ سماعه، وطرب لنغماته وموسيقاه . ولم تزل بقية من حقد القوم ترصد الطريق، وتتعقب الأثر فهذا هو سراقة بن مالك عميل الكفر يرى الرسول وصاحبه ينحيان نحو المدينة فيملأ الفرح قلبه ويسرع وراءهما علّه يمسك به فيسلمه فريسة لرجال قريش، ويحظى هو بالجائزة السنية التي رصدوها لمن يأتي بمحمد عليه السلام حياً أو ميتاً ولم يدر الجاهل الغبي أن كالىء رسوله وصاحبه بقوته وتدبيره . فما كاد محمد عليه السلام يدعو ربه حتى غاصت قوائم فرس سراقة في الأرض مالها من خلاص، ومازال السعي الخبيث يتكرر . والغوص في الأرض يحدث حتى يئس سراقة وطلب الأمان من رسول الأمان، ورجع إلى مكة بخفاف حنين خائباً خاسراً . وأخذ حبيب الله يطوى الأرض طياً، الأرض تقله، والسماء تظله وترعاه ولم يصل إليه أحد بسوء، لأن الله أيده بجنود لم يروها أحد ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ .

في هذه المجموعة تعرض «الناظم» لنوعين من الخوارق صاحبا واقعة الهجرة .

أما أولهما : فهو تغني الجن بمدحه ﷺ، وقد ورد في هذا ما ذكره أهل السير عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت :

لما خفي علينا أمر رسول الله ﷺ أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل فقال أين أبوك؟ قلت : والله لا أدري . فلطم خدي لطمة خرج منها قرطي ولما لم ندر أين توجه رسول الله ﷺ أتى رجل من الجن يسمعون صوته ولا يرونه وأنشد :

جزى الله رب الناس خير جزائه	رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلا بالبر ثم ترحلا	فأفلح من أمسى رفيق محمد
فيالقصي ما زوى الله عنكم	به من فخار لا يجارى وسؤدد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم	ومقعدها للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شأنها وإنائها	فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

دعاها بشــاة حائــل فتحلبــت　　له بصريح ضــرة الشــاة مزبــد
فغادرها رهنــا لــديها كحالــب　　يرددهـــا في مصــدر ثم مـــورد

وفي هذه الأبيات إشارة إلى قصة أم معبد وخلاصتها : أن النبي عليه السلام وهو في طريقه إلى المدينة ومعه أبو بكر التمس طعاماً يشتريه من أم معبد هذه ، وكانت امرأة من خزاعة خرج زوجها يرعى غنما لهما . فلما سألها عليه السلام ، وهو يعرفها وهي لا تعرفه ، اعتذرت في لطف وأدب بأنها ليس لديها ما يطلبان ، فنظر عليه السلام فرأى شاة في جانب من الخيمة فقال لها : ماهذه . قالت شاة تخلفت عن القطيع لهزالها . قال عليه السلام : أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت ما بها لبن . فإن رأيت بها لبناً فاحتلبها . فوضع عليه السلام يده على ظهرها وعلى ضرعها وسمى الله عز وجل ودعا الله أن يباركها . فاحتلب منها لبناً كثيراً فسقى أم معبد ثم سقى أصحابه (أبو بكر الصديق ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر ، والليثى عبد الله بن الأريقط دليلهم) ثم شرب هو الآخر وقال : « ساقي القوم آخرهم شراباً » وقد بقيت تلك تحلب بعد ذلك زمناً طويلا .

قدم زوجها من المرعى فوجد اللبن وسأل عن مصدره فأخبرته أم معبد بالقصة . ووصفت له محمداً عليه السلام فقال زوجها إنه صاحب قريش الذي يتحدث عنه الناس وأعلن أنه لو أدركه لصدق بما جاء به .

ومعنى الأبيات : جزى الله محمداً وصاحبه أحسن الجزاء فقد نزلا بخيمة أم معبد واحتلبا شاة حائلا لم تلد قبل ، فيا للفخار الذي منحه الله المؤمنين ، وعرى منه المعاندين ، ولو سئلت الشاة لشهدت بتلك الخارقة العظيمة فقد جاد ضرعها بلبن كثير مزبد وكانت عجفاء هزيلة .

وقد سمع حسان بن ثابت شاعر الرسول ـ فيما بعد ـ بأمر هذه الأبيات فأنشد معارضاً لها ومحاكياً :

لقد خــاب قــوم غــاب نبــيهم　　وقدس من يسري إليــه ويغتــدي
ترحل عن قوم فضلت عقولـــهم　　وحل علــى قــوم بنــور مجــدد
هداهم به بعد الضـــلالة ربـــهم　　وأرشدهم من يتبع الحــق يرشــد

وهل يهتدي ضلال قوم تسفهوا عمى ، وهداة يهتدون بمهتدي
لقد نزلت منهم على أهل يثرب ركاب هدى حلت عليهم بأسعد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مسجد
وإن قال في يوم مقالة غائب[1] فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد
ليهن أبا بكر سعادة جده بصحبته ، من يسعد الله يسعد

وأما ثانيهما : فهو قصة سراقة بن مالك حين يقصد النبي وصاحبه ليفوز بالجائزة التي جعلتها قريش لمن يأتي به حياً أومياً . فلما دنى منهما ساخت قوائم فرسه في الأرض ، وتكرر هذا مرات . ثم طلب الأمان من رسول الله ﷺ على أن يخفي أمرهما ولا يحدث عنهما فكتب له كتابا بالأمان وعاد إلى مكة لم يحدث بشيء . وظل محتفظاً بكتاب الأمان الذي حصل عليه من رسول الله عليه السلام حتى فتح مكة . والتقى بالرسول عام الفتح وأظهر له الكتاب فوفى له عليه السلام بحقه . فأسلم وحسن إسلامه .

والذي جعل سراقة يكتم أمر رسول الله وصاحبه بعد عودته إلى مكة وخيبة مسعاه في التمكن منهما . هو ما رآه من غوص قوائم فرسه في الأرض مرات فعلم أن محمداً محمي بقوة الله . ومازال هذا الموقف يسيطر على تفكيره حتى أعلن إسلامه وتوبته عام الفتح .

وبعد أولست معي ـ أيها القارئ الكريم ـ أن قول الناظم في نهاية هذه المجموعة.

.... وقد ينجد الفريق النداء

هو من الفواصل الحكيمة التي يكاد يلتزمها بين كل فقرتين من قصيدته هذه . لا أظنك على خلاف ما أقول .

انتهى حديث الناظم عن الهجرة ، أو كاد ، ثم انتقل من الحديث عنها إلى الحديث عن الإسراء والمعراج ، وهما حادثان قبل الهجرة لا بعدها وذلك في المجموعة الآتية:

---

(١) يعنى إذا أخبر بأمر سيكون ، يكون إما في اليوم ، أو في غد .

قال رضي الله عنه :

والحديث عن الإسراء

فطوى الأرض سائراً والسموا ... ت العلى فوقها له إسراءُ[1]

فصفَ الليلة التي كان للمختـ ... ـار فيها على البراق استواءُ

وترقى به إلى قاب قوسيـ ... ـن وتلك السيادة القعساءُ

رتبٌ تسقط الأماني حسرى ... دونها ما وراءهنَّ وراء

يقول : خلص محمد عليه السلام من مؤامرات الحقد والشيطان فتح القدر له الطريق إلى المدينة بعد أن سطعت علامات الأمان الخضراء توحي بخلو الطريق مع طوله من كل المخاطر . وأخذ عليه السلام يطوي الأرض طياً ولا غرابة ، فقد طويت له من قبل المسافة الشاسعة بين الأرض والسموات في ليلة إسرائه الخالدة الذكر ، حيث انتقل ممتطياً البراق فوصل من مكة إلى بيت المقدس بالشام في جزء من الليل بينما كانت قوافل التجارة تقطع هذه المسافة في شهر لا تتوقف فيه عن السير إلا جزءاً من الليل ، ولكن الله قرب لرسوله البعيد من الشرف والفضل ، وبعد عنه القريب من السوء .

وكان هذا هو المدخل الأدبي والشعوري لذكر الإسراء والمعراج بعد ذكر الهجرة ، وكان النسق التاريخي يقتضي تقديم الإسراء والمعراج عن الهجرة « والناظم » لم يرد سرد حوادث التاريخ بقدر ما أراد الجانب الأدبي منها على أن بين هذه الأحداث كلها رباطاً جامعاً لها كلها في إطار واحد ، وهو أنها جميعاً حدثت من أجل رسول الله ، ويرى العلامة ابن حجر في شرحه أنه قدم الهجرة اهتماما بها لأنها أجل . وهذا قول لا يسلم به على إطلاقه . لأننا إذا نظرنا إلى الإسراء والمعراج وجدناهما أدخل في باب الخوارق من الهجرة خاصة المعراج ، وهذا الاعتبار ـ مع اعتبار التقدم في الوقوع ـ يقتضي تقديم الإسراء والمعراج على الهجرة . وإذا نظرنا إلى الآثار المترتبة على كل منهما فإن الهجرة أولى بالتقديم على الإسراء والمعراج : فقول ابن حجر السابق غير مسلم على إطلاقه .

---

(١) طوى : أسرع في سيره . إسراء : هو السير ليلا . البراق : الدابة التي أسرى عليها عليه السلام . استواء: استقرار واستقامة . ترقى : تصعد قاب قوسين . كناية عن الدنو . السيادة : العزة . القعساء : الثابتة .

والمتأمل في النص الأصلي للقصيدة يرى أن « الناظم » أقحم موضوع الهجرة بين أحداث مكة قبلا وبعداً . فوجبت الصيرورة إلى ما رأيناه من أن الناظم كان يسير في بناء قصيدته على هدي من التسلسل الشعوري النفسي غير ملتزم بالترتيب الزمني للوقائع التي ذكرها .

وأراد من قاب قوسين شدة قرب الرسول عليه السلام من ربه حينما عرج به إلى السموات ، فهو كناية عن ذلك القرب الذي لم يكرم الله به رسولا ولا ملكاً غير محمد عليه السلام . ومن حصل له هذا الفضل العظيم ، فهو الذي خصه الله بالقرب الدائم ، والشرف الرفيع . وليس لهذه المنزلة نظير في الوجود وإلى هذا المعنى أشار « الناظم » بقوله الرائع حقاً :

رتب تسقط الأماني حسرى ... دونها ما وراءهن وراء

فانظر إلى جلال التعبير كيف يكون عندما تمتلئ النفس الصافية بشريف المعاني وتنقاد لها مقاليد اللغة . فإن الذي يكون إنما هو السحر في آنق صوره وأشكاله .

ولعلك تذكر ما ألمحنا إليه قبلا من سياسة الفواصل التي يكاد يلتزمها « الناظم » بين فقر كلامه . إن كنت تذكر هذا فإن هذا البيت من آنق تلك الفواصل . وأكثرها إشراقا ، وفخامة ، فلله در القائل رحمه الله .

ثم قال ﷺ :

ثم وافى يحدث الناس شكراً ... إذا أتته من ربه النعماءُ[1]

وتحدى فارتاب كلُّ مريب ... أو يبقى مع السيول الغثاءُ

وهو يدعو إلى الإله وإن شقـ ... ـق عليه كفرٌ به وازدراء

ويدل الورى على الله بالتو ... حيد ، وهو المحجَّة البيضاء

---

(١) وافى : حضر وأقبل . النعماء : النعمة العظيمة وهي هنا الرسالة والتأييد . تحدى : غالب . ارتاب كل مريب : خرس كل شاك ووجم أمام هذه الحقائق . أو الهمزة أداة استفهام والواو حرف عطف وقدمت للاستفهام لأن له الصدارة والأصل . الغثاء: الرغاوى التي يحملها السيل . الورى : الخلق . الحجة البيضاء : الطريق الواضح .

يقول : بعد أن أكرم الله محمداً عليه السلام فأسرى به في جزء من الليل إلى بيت المقدس . ثم عرج به إلى السماوات وأصبح بين ظهراني قومه بمكة . أخذ يحدثهم شاكراً نعمة الله عليه وجادله القوم فحجّهم وغالبهم واستعداهم على أنفسهم أن يعجزوه عن شيء فوجم المشركون وخرسوا وسقطوا في أيديهم لجلال الحق الذي جاء به عليه السلام ، ونصاعة الحجة التي غالبهم بها . وهل ينتظر أحد أن يبقى الباطل الذي كان عليه القوم أمام قوة الحق الذي بعث له محمد عليه السلام أرأيتم السيل القوي الجارف حال مروره على الأرض ، أيبقى على وجه الأرض شيئاً من بقايا نبات متهشم، إنه يحملها في فقاقيعه ويكتسحها اكتساحاً فلا تقوى على مقاومته. ذلك مثل باطلهم مع الحق الذي أيد الله به محمداً عليه السلام وأيده بمحمد .

قام عليه السلام يدعو إلى الله ، ولم يمنعه كفرهم به وازدراؤهم له . واتخذ عقيدة التوحيد طريقاً إلى الله ووسيلة لمعرفته . وهل بعد التوحيد طريق موصل إلى الله ، إنه هو الطريق الواضح المستقيم .

والضمير في «كفر به» يعود على النبي عليه السلام . أما كفرهم فقد دلوا عليه بما حكاه الله عنهم في مواضع كثيرة منها وصفهم للرسالة بقولهم ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾. وأما ازدراؤهم له فقد دلوا عليه بما حكاه الله عنهم من مثل قوله : ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ يصفونه ، وهو فوق ما يظنون . بأنه ليس أهلا لرسالة ينزلها عليه الله ، كما كانوا يدعونه بينهم بابن أبي كبشة تحقيراً له ، وتهوينا لشأنه وهم يعلمون من هو بينهم فضلا وكرامة ، وقد أطلقوا عليه قبل أن يبعث أنه الصادق الأمين ، فكيف يستحق ما يقولون بعد أن أكرمه الله بالرسالة وزاده بها فضلا ونعمة . إنه الحقد الدفين ، أشعلته شياطينهم في قلوبهم فهم في نار قبل الموت ، وفي نار بعد الموت . كذلك يفعل الله بكل مفتر كذاب . نار الحقد تستعر فيهم من داخلهم ، ونار العذاب تحوط بهم من خارجهم وماهم بخارجين من النار .

مضى رسول الله ﷺ يبلغ رسالته متحدياً كل المصاعب والمشقات. لايني له عزمه، ولا تفتر له همة .

كان يمر على الناس في منازلهم ويقول لهم . أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . وأبو لهب يسير وراءه ويقول : أيها الناس إن هذا يأمركم أن

تتركوا دين آبائكم . وتلمسوا له بعد ذلك كل الطعون فقالوا : إنه ساحر وقالوا : إنه شاعر ، وقالوا : إنه مجنون ، وقالوا : إنه يريد ملكاً وسلطاناً واعتدوا عليه أبشع اعتداء . فهذا عقبة بن أبي معيط يضع رجله على رقبة رسول الله وهو ساجد ، وخنقوه مرة حتى كادت عيناه تبرزان . وشدوا شعر رأسه ولحيته حتى سقط على الأرض معظم شعره . ولم يتركوه حتى هب أبو بكر وقال لهم : أتقتلون رجلا يقول ربي الله؟!

واشتد إيذاء قريش له وهو ماض في طريقه لا يبالي ما أصابه من الأذى والعذاب ويقول : اللهم إن لم يك بك عليّ غضب فلا أبالي . فقوى الله شوكته بسبعة هداهم للإسلام . أبو بكر ، وعمار ، وعمر ، وأمه سمية ، وصهيب وبلال ، والمقداد ، وكان لأبي بكر منعة من قومه ، ولم يكن عمر بالرجل الذي يسهل على الأعداء امتهانه ، كما منع أبو طالب رسول الله ابن أخيه من أذى القوم . وكان هؤلاء ـ فيما عدا أبا طالب ـ هم أول من أظهر الإسلام .

وأخذ الصراع بين الحق والباطل يظهر في أوضاع مختلفة عنفاً وشدة ولكنه مهما اشتد وعنف لم يستطع أن ينال من الدعوة نفسها شيئاً .

إذ أخذ شأنها يزداد قوة يوماً بعد يوم ، ولم تنتكس إلى الوراء لحظة واحدة ، وإن كان الأذى الواقع منهم على الصحبة الطاهرة التي أحاطت برسول الله ﷺ مؤلما لا يتحمله إلا أهل الثقة في الله . الذين يرون كل ضرر نزل بهم في سبيل عقيدتهم القوية كيد شيطان لا يلبث أن يزول .

وقال رضي الله عنه :

الله يؤيد محمدا

فبما رحمة من الله لانت صخرة من إبائهم صماءُ[1]

---

(١) فبما : فبسبب . لانت : الليونة الرطوبة والمراد منها هنا لازمها وهو اليسر والسهولة . صخرة : هي الحجر الصلب ، والمراد منه هنا الشدة والخشونة . إبائهم : امتناعهم ، شبه امتناعهم في شدته وقوته بالصخرة ، وشبه ذهاب ذلك الامتناع بالليونة . فهما استعارتان الأولى « لانت » أصلية تبعية ، والثانية « صخرة » أصلية تصريحية .

واســتجابت لــه بنصــر وفــتح   بعد ذلك الخضــراء والغــبراء[1]
وأطاعــت لــه العــرب العــر   باء والجاهــلــيــة الــجُــهــلاء

يقول : لقد يسر الله لرسوله كل عسير ، وسهل له كل صعب فاستجاب لدعائه وقدر له النصر من السماء . وأجراه صوراً رائعة على الأرض . . فمن كانت الأرض مسراه ، والسماء معراجه ، والله وليه ونصيره ، فلن يغلب ولو بلغ أعداؤه ملء السهل والوعر .

وجمع الله حوله قلوب الصفوة من العرب الأصلاء ، ومن خيار رجالهم ونسائهم . أحرارهم ومواليهم ، شيوخهم وشبابهم ، فكانوا كزرع أخرج شطأه فآزره وقواه ، فاستغلظت أعواده واستوت قائمة على سوقها يؤتي أكله كل حين بإذن ربه . إنهم فتية آمنوا بربهم فزادهم هدى .

ومراد « الناظم » من طاعة « الجاهلية الجهلاء » وهم المعاندون اللديدو الخصومة إما أن يحمل على مسالمتهم مع بقائهم على كفرهم ، وذلك بعد الفتح العظيم الذي من الله به على رسوله والمؤمنين بفتح مكة ، لأنهم خضعوا لسلطان الفاتحين ، وأقروا ، كما يقال ، بالأمر الواقع ، إذ لا قدرة لهم على مناوأته فيكون قوله « وأطاعت له » مستعملا في حقيقته ومجازه . فالطاعة الحقيقة بالنسبة للمؤمنين ، والطاعة المجازية بالنسبة لمن لم يؤمنوا ، ولكنهم استسلموا للأمر المنتصر ودانوا له مكرهين . وعليه فإن الفرق واضح بين العرب العرباء والجاهلية الجهلاء » .

وإما أن يحمل على من آمن من الجاهلين الذين كانوا شديدي العناء حال كفرهم ، ثم هداهم الله للإيمان بعد الكفر ، والطاعة بعد العصيان وعلى هذا فلا فرق بين المعطوف عليه ، والمعطوف .

---

(١) الخضراء والغبراء : كنايتان لغويتان عن السماء والأرض . ووصف السماء بالخضرة لأن اللون الأخضر فيه معنى التفاؤل لأنه يعني ازدهار الحياة أما وصف الأرض بالغبرة فجار على حقيقته إذ هو لونها في الأصل . والمعنى أن النصر قدر لمحمد في السماء ، وتحقق فوق الأرض . العرباء: العرب الخلص .

ثم قال رضي الله عنه :

وتوالت للمصطفى الآية الكبرى عليهم والغارة الشعواء[1]
وإذا ماتلا كتاباً من الله تلته كتيبة خضراء

يقول : صمد محمد عليه السلام في مواجهة أعتى طغيان تعرض له صاحب دعوة وظل يخوض المعركة بكل ما فيها من ضراوة وعبوس وجاب أرجاء مكة وما حولها سائراً على قدميه الشريفتين ، مبلغاً دعوة الله إلى خلقه أبيضهم وأحمرهم قاصيهم ودانيهم عظيمهم ووضيعهم . غنيهم وفقيرهم ، أحرارهم وعبيدهم ، فأيده الله بنصره ومعجزاته ، نصراً تلو نصر ومعجزة إثر معجزة . لم تخفه إيعاداتهم ولم تثنه جحافلهم ، وأقسم أن لا يترك الدعوة إلى الله حتى يظهر الله دينه الذي بعثه لتبليغه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (المائدة:٦٧)

فقد بدأت انتصارات المسلمين بقيادة نبي الإسلام محمد عليه السلام بوقعة بدر الكبرى ، التى كان أوجز بيان وأعمقه لنتائجها العسكرية والأدبية قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ (آل عمران:١٢٣) .

فبين أن النصر الذي حازوه كان بتقدير الله وعونه ، وهذه أولى المعارك التي خاضها عليه السلام جندا بجند ، وسلاحا بسلاح ، ورغم أن القوتين لم تكونا متكافئتين لا في العدد ولا في العدة فقد منح الله نصره لرسوله وصحبه ، لأنها أول صدام مسلح بين جند الله وجند الشيطان . ولو عكست فيه النتائج فكان النصر في جانب أعداء الإسلام لترك ذلك أثراً سيئاً في نفوس المسلمين في باكورة عملهم الحربى ، ولكن حكمة الحكيم وهبت لهم النصر برداً وسلاماً مع بذلهم له ما يملكون من أرواح ومال . وكان هذا النصر هو الرائد للانتصارات المتعاقبة ، التي سجلها النضال الإسلامي على أيدي رعيله الأول في حياة الكريم الذي لم يترك الجهاد في سبيل الله حتى آتاه اليقين وهو يعد العدة ، ويجهز الجيوش لرفع لواء الإسلام خارج بلاد شبه الجزيرة .

وقد وقع بين بدر الكبرى وفتح مكة كثير من الوقائع التي أبلى المسلمون فيها بلاء حسناً فبعد بدر الكبرى وقعت غزوة أحد التي نصر الله فيها المسلمين بيد أن أنهم

---

(١) توالت : تتابعت . الغارة الشعواء : الحملات المهلكة للأعداء . تلا : قرأ . كتيبة خضراء : جيش مدجج بالسلاح ، وهي الكتيبة التى كان فيها الرسول عليه السلام عام فتح مكة .

أضاعوا هذا النصر لمخالفة الرماة توجيهات القائد ﷺ . وإقبالهم لجمع الغنيمة ، تاركين مواقعهم التي أمرهم ﷺ أن يظلوا فيها لحماية ظهر الجيش سواء انتصر المسلمون أم لم ينتصروا . وبعد أحد وقعت غزوة بئر معونة وغزوة بني النضير ، ثم غزوة ذات الرقاع ثم غزوة بدر الثانية ، ثم غزوة دومة الجندل ، فغزوة المريسيع ، فغزوة الخندق ثم غزوة الغابة . وصلح الحديبية ، ثم غزوة خيبر ، وغزوة مؤتة ، وذات السلاسل وبعد فتح مكة وقعت غزوتان حنين والطائف . هذا بالإضافة إلى السرايا[1] التي كان يرسلها ﷺ ، ثم الوفود التي جعلت تفد على المدينة من كل جانب تبايع رسول الله ﷺ ، والبعثات التى أوفدها من المدينة إلي رؤساء البلاد والشعوب تبلغهم رسالات ربهم .

كل هذه مواقف جليلة الأثر أشار إليها الناظم بقوله :

وتوالت للمصطفى الآيــة الكـــ ـــبرى عليهم والغارة الشــعواء[2]

ثم اختتم الناظم هذه المجموعة بقوله :

وإذا ما تــلا كتابــاً مــن اللــ ـــه تلتـــه كتيبـــة خضـــراء

مشيراً بذلك إلى الكتيبة التي دخل ﷺ مكة بها يوم الفتح ، وكانت كتيبة مدججة بالسلاح حتى غلب عليها لونه وهو السواد الذي عبر عنه بالخضرة للتفاؤل وكان ﷺ ساعة دخوله مكة ، يقرأ مرتلا سورة الفتح :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (النصر: ١-٣).

فكانت كتيبته تقرأ مثلما يقرأ ، وترتل مثلما يرتل في صوت رخيم ، وأداء جميل يبعث في النفوس البشر والتفاؤل .

وقد صدق الله وعده . فجاء نصره وفتحه ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً . وسبح رسوله ومن معه من المؤمنين بحمد ربهم . واستغفروه إنه كان تواباً .

---

(١) الفرق بين الغزوة والسرية: أن الغزوة خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه ، أما السرية فإنه يعين عليها قائداً سواه .

(٢) أفرد «الآية» وحقها أن تجمع، لأن «التوالي» يكون للمتعدد لا للواحد لأنه أراد - والله أعلم - من الآية الكبرى الانتصار، وهو وإن كان واحداً إلا أن مظاهره وصوره متعددة كما علمت .

وطهرت الكعبة من الأصنام والأوثان . وعلا فوقها صوت الحق بالأذان :

« الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح . الله أكبر ، الله أكبر . لا إله إلا الله ».

وقال ﷺ :

رد كيد الكافرين

وكفاه المستهزئين وكم سا	ء نبياً من قومه استهزاء[1]
ورماهم بدعوة من فناء البـ	ـيت فيها للظالمين فناء
خمسة كلهم أصيبوا بداء	والردى من جنوده الأدواء

يتحدث الناظم في هذه الأبيات عن مرحلة جليلة من مراحل تأييد الله لرسوله عليه السلام فأشار إلى أن كفاه المستهزئين وهم الكفار الذين بقوا على كفرهم وعادوا المسلمين عداء سافراً ، وأخذوا يسخرون من النبى عليه السلام ومن أتباعه . وقد حكي عنهم القرآن الأمين قولهم : ﴿ أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾ ساخرين هازئين وقد أوقعوا صنوفا من الأذى بذاته الطاهرة . فأم جميل كانت تضع الشوك في طريقه . وقد سجل ذلك القرآن أيضا حين يقول : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ وأم جميل هذه هي زوج أبي لهب الذي هو مرجع الضمير في قوله « وامرأته » ووضعوا مرة « فرث البعير » على ظهره وهو ساجد عليه السلام . وكانوا يطلقون عليه ابن أبى كبشة هزءاً وسخرية .

كفى الله رسوله أمر هؤلاء المستهزئين وعصمه منهم وفي ذلك يقول الله له :﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ ويقول : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ فالله أقام نفسه مقام رسوله وكفاه قتال المستهزئين ، بقدرته وتدبيره . . وهذا على حد قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾.

---

(١) كفاه : ردهم عنه . المستهزئين : الساخرين . فناء الأولى بكسر الفاء رحبة البيت وفناء الثانية بفتح الفاء الهلاك . الداء : المرض . والردى الهلاك . الأدواء : جمع داء بمعنى المرض أيضاً .

وكل ما فعله عليه السلام أمام هؤلاء أن دعا عليهم دعوة من حول الكعبة فدهمتهم دهما . ولقوة تأثير هذه الدعوة منهم عبر عنها الناظم بقوله «رماهم» والرمي لا يكون إلا للسلاح والأجسام ففي العبارة مجاز بالاستعارة وقد وفق الناظم في هذا التعبير أيما توفيق .

وأجمل الناظم قصة خمسة من المستهزئين انتقم الله منهم لكيدهم رسوله ، فأرادهم بالأمراض . وكما يقول الناظم نفسه فإن الأمراض جند من جنود الهلاك . ولكن من هم أولئك الخمسة الذين هلكوا؟ وما الذي حدث لهم؟ ذلك ما سنراه الآن .

ثم قال ﷺ :

فدهى الأسود بن مطلب أ	يُّ عمى ميت به الأحياء
ودهى الأسود بن عبد يغوث	أن سقاه كأس الردى استسقاء
وأصاب الوليد خدشة سهم	قصرت عنها الحية الرقطاء
وقضت شوكة على مهجة العا	ص فلله النقعة الشوكاء
وعلى الحارث القيوح وقدسا	ل بها رأسه وساء الوعاء
خمسة طهرت بقطعهم الأر	ض ، فكف الأذى بهم شلاء [1]

أشار الناظم في هذه الأبيات إلى أسماء الخمسة المذكورين في المجموعة السابقة قارنا كل واحد منهم ما أصابه من أنواع الردى . والخمسة هم :

الأسود بن مطلب بن أسد بن عبد العزى . والأسود بن عبد يغوث بن وهب والوليد ابن المغيرة ، والعاص بن وائل بن هشام . والحارث مولى الطلاطلة .

أما الأسود الأول فقد عمي ومات في الحال ، ولو أنه لم يمت لكان كالميت لأن الله قد أصابه بعماءين : عمى البصيرة وعمى البصر . وأما الأسود الثاني فقد أصيب بداء الاستسقاء واستمر به حتى مات بسببه . وفي التعبير «كأس الردى» مجاز بالاستعارة المكنية . أما الوليد فكان سبب موته عجيبة من عجائب الدهر ، فقد

---

(١) دهي : أصابت وهو من الداهية المهلكة . استسقاء : داء الظمأ الشديد يشرب صاحبه ولا يروى . خدشة : جرح . الرقطاء . الحية القاتل سمها . مهجة : القلب ، والنقعة المراد بها هنا : القتلة . الشوكاء : الأليمة الوقع . القيوح . جمع قيح وهو الصديد .

أصابت رجله شوكه فأراد إخراجها فضربها بسوطه ليخرجها فقطعت وخدش السوط رجله فتسمم جرحه فمات قبل غزوة بدر . يقول الناظم لو أن حية رقطاء لدغته لأبطأ سمها في قتله ، فكأن سم الخدشة أسرع إلى الموت من سم الحيات الخبيثة .

وما أصدق الشاعر الذي يقول :

كـــل شـــىء مهلـــك	حـــين تلقـــى أجلـــك
والمنايـــــا رصـــــد	للفـــق حيـــث هلـــك

فيالجلال قدرة الله ، فقد جعل من نفس الوليد عدواً لها يسعى لهلاكها ، وهو لا يدري أن ماظنه منقذاً لها كان سبب هلاكها! وعلى نفسها براقش تجني كما جاء في المثل ، أما العاص فقد كان هلاكه عجيباً مثل هلاك الوليد فقد شاكته شوكة كانت سبباً في موته . وكون الشوكة تؤدى إلى الموت أمر غير معهود . ومن هنا كان تعجب الناظم في قوله : « فلله النقعة الشوكاء» أى القتلة السريعة القاضية . وأما الحارث مولى الطلاطلة فقد سلط الله عليه القيوح تسيل من رأسه ولازمته حتى مات بعد أن ساء منظره واعتل رأسه .

وهكذا انتهى كيد هؤلاء الخمسة . لم يقاتلهم محمد عليه السلام وصحبه بالسيوف ولم يطعنوهم بالرماح ، لأن القتال لم يكن قد شرع بعد فأهلكهم الله بالأمراض . ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر:٣١).

هؤلاء الخمسة الذين طهرت منهم الأرض كانوا من أكثر الناس إيذاء للنبى وصحبه ، وقد هزم الباطل بهلاكهم وضعفت شوكة الأذى . ويأبى الناظم إلا أن يصور هذا المعنى تصويراً مجازياً فيقول : « فكف الأذى بهم شلاء» وهو استعارة مكنية . شبه فيها الأذى بفارس شلت يده فلم يستطع العمل ولا القتال . وهل تبقى مع الشلل قوة . فلله در الناظم .

ثم يقول ﷺ :

خمسة بخمسة

فديت خمسة الصحيفة بالخمـــ	ـــسة إن كان للكرام فداء
فتيـــة بيتـــوا علـــى فعـــل خـــير	حمـــد الصـــبح أمـــرهم والمســـاء

لم يكد الناظم يفرغ من الحديث عن الخمسة الذين عاندوا فبادوا حتى واصل الحديث عن خمسة آخرين فداهم القدر الحكيم بالخمسة الهالكين فأمر «الخمستين» مختلف . أولئك لئام . فلذلك هلكوا . وهؤلاء كرام . فلذلك نجوا . فكان ذلك الهلاك فداء لهذا النجاء .

هذه لمحة أدبية من الناظم ، استطاع أن يربط بها بين أمر «الخمستين» ربطاً قوياً أدبياً وتاريخياً ودينياً . بما عساه أن يدركه القارئ من مفارقات عجيبة بين تينك الطائفتين إذا ما قارن بينها وتأمل . وإن الناظم قد بلغ قمة الثناء حين يقول : حمد الصبح أمرهم والمساء «على طريق الاستعارة المكتنية ، وهي عبارة رائعة نادرة الورود . سواء نظرت إليها نظرة مستقلة . أو جمعت معها ما تقدم من شطر البيت الأول إذ هما متعانقان في ألفة وحنين» .

ولكن من هم هؤلاء الخمسة الذين حمد الصبح أمرهم والمساء . وماهو دورهم الذي خلدهم؟ هذا ما سنعرفه الآن .

قال ﷺ :

يـال أمـر أتـاه بعـد هشـام	زمعـة إنـه الفـتى الأتـاء[1]
وزهـير والمطعـم بـن عـدى	وأبو البحترى من حيـث شـاءوا
نقضوا مبرم الصـحيفة إذ شـ	ـدت عليهم من العـدا الأنـداء
أذكرتنـا بأكلـهم أكـل منسـا	ة سـليمان الأرضـة الخرسـاء
وبـها أخبر الـنبي وكـم أخـر	ـرج خبئاً لـه الغيـوب خبـاء

حين وجلت قريش من الدعوة إلى الإسلام وأرادت البطش بالرسول وأتباعه لم يرض بنو هاشم ولا بنو المطلب أن يمس محمد عليه السلام بأذى . فجمعت قريش أمرها وأجمعوا على مقاطعة بنى هاشم والمطلب مقاطعة كلية وهي بالمصطلح

---

(١) يال : أداة تعجب وتعظيم . الأتاء : الكثير الإتيان . الصحيفة : هي ما كتبته قريش لمقاطعة بني هاشم وبني المطلب . الأنداء : جمع ناد وهي المجالس . منساة : عصا سليمان عليه السلام . الأرضة : آفه تأكل الأخشاب . خبأ : أى ستر . والمراد به الغيب . خباء : حفظ .

الحديث « الحصار الاقتصادي والاجتماعي » وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في « جوف » الكعبة تأكيداً لما جاء فيها ويقال إن كاتب تلك الصحيفة شلت يده التي كتب بها . وشقت تلك المقاطعة على بني هاشم والمطلب ، وكان لها فيهم أثر كبير فسلط الله الأرضة فمحت ما فيها إلا « باسمك اللهم » وكان الرسول عليه السلام قد أخبر عمه أبا طالب بذلك . ومع هذا فإن نصوص الصحيفة مازال العمل بها قائماً بينهم . فلما اشتد الأمر على بني هاشم والمطلب هب خمسة من شباب قريش فأنزلوها وقطعوها ثائرين على الظلم والظالمين . وهكذا أخرج من صفوف مشركي قريش خمسة من صفوة شبابها اتبعوا الحق ونصروا رسوله . وهؤلاء الخمسة ، كما ذكرهم الناظم هم : هشام بن الحرث بن حبيب ، وكان هو السبب في جمع الأربعة الآخرين ودعوتهم إلى إزالة الصحيفة ، فلذلك قدمه الناظم عليهم . وزمعة بن الأسود ابن المطلب . وكان فتى شجاعاً مقداماً . وزهير بن أبي أمية بن المغيرة . والمطعم ابن عدى . وأبو البختري دبر هؤلاء الفتية أمر قطع الصحيفة . ثم نفذوا ما دبروا وكان التنفيذ مطابقاً للخطة الموضوعة . وإلى هذا أشار الناظم بقوله « حيث شاءوا » .

وأشار الناظم كذلك إلى الربط بين أكل الأرضة صحيفة قريش وبين أكلها عصا سليمان عليه السلام وهو متكئ عليها فظل سنة قائما وهو ميت والجن يعملون فلما خر بعد إتلاف العصا أدركت الجن أنهم لا يعلمون الغيب . ووجه الشبه بين الواقعتين هو تسليط الله دويبة « حقيرة » لإنقاذ أمر أراده من حيث خفي ذلك على « العقلاء » الجن في واقعة سليمان النبي ، وقريش في واقعة إتلاف الصحيفة : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ وبهذا الأمر الجليل انفرجت الشدة وزال العناء الذي كان يلقاه من جراء المقاطعة بنو هاشم وبنو المطلب . أما إخبار النبي عليه السلام بالغيوب الذي ذكره الناظم فتلك معجزة أكرم الله بها رسوله . والرسل مأذون لهم بالاطلاع على بعض الغيوب بنص القرآن حيث يقول أحكم الحاكمين : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ (الجن:٢٦،٢٧).

واطلاع الأنبياء على بعض الغيوب يكون بكشف الله لهم عنه وهذا لا يتعارض أبداً مع استئثار الله بعلم الغيب . فلا حجة لمن ينفي ذلك .

فقد أخبر نبينا عليه السلام بموت النجاشي قبل أن يرد إليه خبره ، وأخبر عن كتاب حاطب بن أبي بلتعة الذي دسه إلى قريش قبيل فتح مكة المكرمة ، وغير ذلك كثير ، وهذا كله من قبيل الخوارق التي يكرم الله بها رسله .

وقال ﷺ :

الشدائد تصقل الهمم

لا تخل جانب النبي مضاماً   حين مسته منهم الأسواء[1]

كل أمر ناب النبيين فالشـ   ـدة فيه محمودة والرخاء

لو يمس النضار هون من النا   ر لما اختير للنضار الصلاء

استشعر الناظم ، بعد ذلك ما أصاب النبي عليه السلام من أذى من قومه ، سؤالا يجول بخاطر قارئ «همزيته» مؤداه : أليس محمد رسولا وهل في الناس من هو أكرم من رسله عليه؟ فلِمَ ـ إذن ـ يصبحون «غرضاً» للرامين! .

تخيل هذا السؤال فأجاب وفي إجابته حكمة ، وإقناع وإمتاع . أن الأذى الذي يصيب دعاة الحق من السفهاء لا يهون من شأنهم فقد وصف الله أكثر رسله إيذاء من أقوامهم بأنهم «أولو العزم» ولذلك قال سبحانه لأكرم رسله : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ هذه حقيقة ولكن الناظم قد دلل عليها تدليلاً أدبياً نفسيًا . فالذهب أعظم المعادن شأناً ومع هذا فإنه يصهر بالنار فلا يزداد إلا صفاء وجودة ونقاء ولو كان الذهب يلحقه هون من الصهر بالنار . لما اختير له ذلك الصلاء فهل رأيت حكمة وإقناعاً وإمتاعاً عرفه صناع القصيد يسمو على هذه النفثات الآسرة . رحم الله الناظم فقد كان صدق شعوره باعثاً على صدق شعره . وكان صدق شعره مرآة لصدق شعوره !

ثم قال ﷺ :

والله يعصمك من الناس؟

كم يدعن نبيه كفها اللـ   ـه وفي الخلق كثرة واجتراء[2]

---

(١) لا تخل : لا تظن . مضاما : مهانا . الأسواء : جمع سوء وهو الأذى ناب : أصاب . النضار : الذهب . الصلاء : الصهر بالنار .

(٢) كم : كناية عن كثرة الأيادي التي امتدت بالأذى للنبي فمنعها الله . مقلة هي شحمة العين . أقذاء : جمع قذى . وهو ما يسقط على العين فيؤلمها .

إذا دعا وحده العباد وأمست منه في كل مقلة أقذاء

يقول الناظم : وليست كل يد امتدت إلى الرسول بالأذى أصابته . فما أصابه منها إلا القليل ، لأن الله كف عنه كثيراً من مؤامراتهم الدنيئة فقد حفظه وصانه وكانوا لا يبغون به إلا القتل . وقد أقام بينهم ردحاً من الزمن غير قصير يدعو الى الإسلام . ومع كثرتهم وبطولاتهم ، ومع قلة أتباعهم وتجردهم من السلاح لم يبلغوا منه ما يريدون . ألم ينجه الله منهم ليلة الهجرة وقد ترصلوا خروجه من الدار ليقتلوه فخاب مسعاهم ، ألم يتبعوه في طريقه إلى دار الهجرة فلم يظفروا منه بطائل؟ وكم من المواقف كان الله ـ وحده ـ حاميه فيها وناصره . حتى لقد أذاهم ممشاه ومرآه ودعوته إلى الدين ليل نهار . فكأنه كان يحث الحصى والتراب في عيونهم فتصبح عليلة بعد سلامة ـ عمياء بعد بصر . فلأن أصابه منهم أذى فليس ذلك لهوانه على الله . . وإنما دعاة الحق ـ دائما ـ لا يسلمون من سفه السفهاء . وحمق الحمقى . والعبرة إنما تكون بمصائر الأمور ، لا بالأعراض الزائلة . فنصر الله ـ في النهاية ـ تحقق لرسوله والمؤمنين وعند الصباح يحمد القوم السرى . وفي التعبير بالقذى مجاز استعاري مختلف التوجيه .

وقال ﷺ :

هَمَّ قوم بقتله فأبى السيـ ـف وفاء وفاءت الصفواءُ

وأبو جهل إذ رأى عنق الفحـ ـل إليه كأنه العنقاء

واقتضاه النبي دين الأرا شي وقد ساء والشراء

ورأى المصطفى أتاه بما لم يُنجِ منه دون الوفاء النجاءُ

هو ما قد رآه من قبل لكن ما على مثله يعد الخطاء[1]

هذا شروع من الناظم في بيان الأيادي التي أرادت إيذاء الرسول عليه السلام فردها الله عنه ، وكفاه شرها . وفى هذه المجموعة ذكر الناظم صورتين إحداهما متعددة . وهي هم القوم بقتل الرسول عليه السلام بالسيف . فقد تعددت هذه المحاولات . فقد كان عليه السلام نائما تحت ظل شجرة فأيقظه رجل وهو يشهر سيفه ويقول : من يمنعك مني ؟ فقال عليه السلام : الله عز وجل فارتعدت يد الرجل وسقط سيفه فأخذه

(١) فاءت : رجعت . الصفواء : الحجارة ، العنقاء : الداهية القاتلة . اقتضاء : طلب منه . الأراشى : رجل . النجاء : الخلاص . الخطاء : الخطأ .

عليه السلام وقال للرجل : من يمنعك مني ؟ فقال الرجل : كن خير أخذ فعفا عنه . فذهب الرجل إلى قومه وقال لهم : جئتكم من عند خير الناس حدث هذا مرات عديدة . وكان عليه السلام يعفو في كل مرة وكان عفوه سبباً في إسلام بعضهم هم وأقوامهم . كما حدث في يوم بدر وهو يقضي حاجته بعيداً عن الجيش أما واقعة أبى جهل فقد ورد أنه توعد محمداً ﷺ بالقتل أمام قريش فلما أصبح الصباح حمل حجراً وذهب ليقتله وقريش تنظر ، فلما هم بإلقاء الحجر عليه جمد الحجر في يده وجمدت يداه عليه فولى هارباً . فسأله قومه . ما الذي دهاك يا أبا الحكم ؟ قال لقد هممت بقتله فرأيت أمامه فحلا من الإبل ما رأيت مثله فحلا قط تقدم نحوي ليأكلني .

ولكن أبا جهل مازال على عدائه وتوعده.. وحدث أن قدم رجل له دين على أبي جهل يماطله عليه ، وشكا أمره لجماعة من قريش . فقالوا له عليك بمحمد ابن عبد الله فلن يستطيع أحد غيره اقتضاء دينك من غريمك يريدون أن يوقعوا بين الرسول عليه السلام . وبين أبي جهل . فذهب الرجل يستنجد بالنبي فما توانى لحظة فصحب الرجل إلى بيت أبي جهل وطرق الباب طرقاً قوياً فخرج إليه أبو جهل ممتقعاً لونه ، فلما طالبه بقضاء دين الرجل ـ بعد إقراره به ـ قال : لا يبرح مكانه حتى يقتضي حقه فأعطاه إياه ولم يمس محمدا عليه السلام بسوء لأن أبا جهل رأى في هذه المرة ما رآه في المرة السابقة من شأن الفحل فلا غرابة أن يرضخ ويستكين . فقد كان خطاء كثير الخطأ وأخطاؤه لا تعد لكثرتها فأثقلته أوزاره فهان وذل .

ثم قال ﷺ :

وأعدت حمالة الحطب الفهـ ـرُ وجاءت كأنها الورقاء

يوم جاءت غضبى تقول أفي مثـ ـليَ من أحمدَ يقال الهجاء

وتولت وما رأته ومن أيـ ـن ترى الشمس مقلة عمياء[1]

وهذه الصورة من صور الإيذاء أرادت أن تقدم بها أم جميل امرأة أبي لهب . حيث حملت في يدها حجراً لتقتل به محمداً عليه السلام لما أنزل الله فيها وفي زوجها سورة « المسد » التي اعتدتها هجاء لها وأنكرت أن يكون محمد هو الذي يهجوها أو يهجو زوجها استصغارا لشأنه في زعمها .

---

(١) أعدت : هيأت . حمالة الحطب : هي أم جميل امرأة أبي لهب . الفهر : الحجر الذي يملأ الكف . الورقاء : الحمامة السريعة . مقلة : عين .

وقد شبهها الناظم بالحمامة الورقاء ووجه الشبه سرعة الانتقال في كل لأن أم جميل حين سمعت ذمها في القرآن أسرعت في الخطى لتنتقم من رسول الله فلما أقبلت نحوه ومعه صديقه أبو بكر قال يا رسول الله إنها امرأة بذيئة فقال عليه السلام : إنها لن تراني وتحدثت المرأة مع أبي بكر والرسول يراها ولا تراه ثم انصرفت ، فسأل أبو بكر الرسول عليه السلام فقال : «لقد حجب الله بصرها عني»؟ ولا غرابة في هذا فقد نص القرآن الكريم على مثله مما حدث ليلة الهجرة فقال : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ والله قادر على كل شيء .

ثم قال ﷺ :

ثم سمّت له اليهودية الشا	ة وكم سام الشقوة الأشقياء[1]
فأذاع الذراع ما فيه من شر	بنطق إخفاؤه إبداء
وبخلق من النبي كريم	لم تقاصص بجرحها العجماء

وهذه صورة من صور الكيد دبرها اليهود للخلاص من محمد عليه السلام . فحواها أن اليهود تآمروا عليه فأوعزوا إلى امرأة منهم تضع السم في ذراع شاة دعي لأكله ﷺ فلما هم بالأكل من الذراع المسمومة أنطقها الله فأخبرت محمداً عليه السلام بالسم الذي فيها وهم لا يسمعون . فرد عليه السلام الذراع ولم يأكل منها . قيل . وقد سأل النبي اليهود عما أرادوه فقالوا : إن كنت كذاباً استرحنا منك وإن كنت نبياً لم يضرك . وفي المسألة روايات متعددة .

وقد ترك النبي عليه السلام عقاب المرأة على جنايتها ورد الناظم عفوه عنها لما كان طبعه من الخلق الكريم وفي رواية أنها أعلنت إسلامها لروعة ما رأت .

وقد أطلق الناظم وصف العجماء «على المرأة الجانية على سبيل المجاز إذ هو استعارة تصريحية أصلية وقوله قبلها «بجرحها» ترشيح لها لأنه من ملائمات المستعار منه . وأراد من «جرحها» فعلها من وضع السم في الطعام فهو مجاز استعارى أيضاً والجامع بين طرفيها مطلق الأذى في كل .

---

(١) سمت : وضعت السم القاتل . سلم : طلب . إخفاؤه إبداء : سرعة إعلان . العجماء : في الأصل البهيمة . وجرى هنا وصفا على اليهودية مجازاً .

وقال ﷺ :

كرم وحلم

من فضلا علـى هـوازن إذ كـا	ن لـه قبـل ذاك فـيهم ربـاء
وأتى السبي فيـه أخـتُ رَضـاع	وضَع الكفـرُ قـدرها والسـباء
فحباها . . بـرًا توهمـتَ النسـا	ءُ بـه إنمـا السـباء هـداء
بسط المصـطفى لهـا مـن رداء	أى فضـل حـواه ذاكَ الـرداء
فغدت فيه وهي سـيدة النسـ	ـوة والسـيدات فيـه إمـاء[1]

وهذه صورة من صور كرم خلق الرسول عليه السلام . فكما عفا عن اليهودية التي سمت له الشاة . عفا كذلك على هوازن بعد أن غزاها في غزوة حنين ووقع كثير من نسائها في الأسر والسبي . وكان هذا العفو عرفاناً بالجميل لأنه عليه السلام تربى فيهم حال إرضاع حليمة له في طفولته وكان في السبي أخت الرسول من الرضاع ابنة حليمة السعدية واسمها « الشيماء » فأكرمها عليه السلام وفرش لها رداءه لتجلس عليه . وذلك شرف عظيم حظيت به ، وقد بالغ عليه السلام في الحفاوة بأسرى هوازن حتى ظن الناس بأن السبي حفل زفاف تزف فيه الزوجات إلى أزواجهن وهنا تخيل رائع من الناظم . بيد أن الحظوة التي نالتها الشيماء جعلتها كأنها السيدة الفريدة ومن عداها إماء مملوكات وجاء في سيرة ابن هشام وغيره أن الرسول عليه السلام خير أخته الشيماء بين البقاء في كنفه محببة مكرمة وبين العودة إلى قومها فاختارت العودة إلى قومها وزودها عليه السلام بزاد من عنده .

وقال ﷺ :

فـتنزه في ذاتـه ومعانيـ	ـه استماعا إن عزَّ منها اجـتلاء
واملأ السمع من محاسـن يمليـ	ـها عليك الإنشـاد والإنشـاء
كل وصف له ابتدأت بـه اسـتو	عب أخبار الفضل منه ابتـداء[2]

---

(١) من : تكرم . هوازن : قبيلة حليمة السعدية مرضعته عليه السلام . رباء : تربية ، السبى : الأسر والسباء مثله . هداء : زفاف ـ إماء : مملوكات .

(٢) تنزه : من النزهة والمتعة في الرياض . عز : امتنع ـ اجتلاء : وضوح ، يمليها : يوحيها . الإنشاد : التغنى . الإنشاء : التأليف . استوعب : استكمل .

هذه استراحة بين المناظر والمشاهد ، يدعونا الناظم أن نتنزه خلالها في تأمل صفاته ﷺ الذاتية المحسوسة ، والمعنوية المعقولة كما يتنزه المهمومون بين الرياض فتسرى النزهة همومهم ، وتبعث الروح والانتعاش في نفوسهم . وإن كان قد فاتنا فضل عظيم فلم نحظ بمشاهدة ذاته الطاهرة فتتجلى محاسنها فإن في السماع عوض عن الرؤية بالبصر . فلم نحرم من الفضل كله . فلنصغ إلى إنشاد مادحيه والمتغنين بمناقبه وشمائله ولنسمع لمن ينشئون فيه ويجمعون لنا شتات الأخبار والأوصاف المنسوبة إليه . ففى ذلك إقناع لأرواحنا ، وإقناع لعقولنا ، وارتفاع لمشاعرنا لأن كل وصف من أوصافه الخُلقية والخِلقية قد استجمع مجامع الفضل . فهو النور والسراج المنير ، وهو الرحمة المهداة من رب العالمين للناس كافة وهو القائل له ربه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم: ٤).

خلق طيب

وقال ﷺ :

سيد ضحكه التبسم والمشـ ـى الهوينا ونومه الإغفاء

ما سوى خُلقه النسيمُ ولا غيـ ـر محيَّاه الروضة الغناء

رحمة كله وحزمٌ وعزم ووقارٌ وعصمة وحياء[1]

شوقنا الناظم في المجموعة السابقة إلى التنزه في تأمل صفاته عليه السلام ، ومعانيه وها هو ذا يقطف لنا باقة من تلك الزهور الفيحاء الآسر أريجها . فمحمد عليه السلام السيد الماجد كان إذا ضحك لم يجاوز ضحكه التبسم في حده الأدنى . ولا إبداء النواجذ (الأضراس) في حده الأعلى . فما كان يقهقه ولا يبالغ في الضحك . أما مشيه عليه السلام فكان كله وقار وسكينة لاخيلاء ولا بطء فيه . ونومه كان بإغماض عينه . أما قلبه عليه السلام فيقظ دائماً . ولذا لم يكن نومه ناقضاً لوضوئه أما إذا أردت وصفا جامعاً لخلقه فقد كان في سهولته وجماله هو النسيم المنعش العليل ، يسرى فتحيا به النفوس والقلوب . أما وجهه الكريم عليه السلام فهو الروضة الغناء في اجتلائها وحسنها واستراحة الأبصار والبصائر من النظر إليها وتأمل محاسنها .

---

(١) الهوينا : الوقار والسكينة . الإغفاء : أول النوم . محياه : وجهه ﷺ . الغناء . المغردة طيورها لجمال بهجتها .

رحيما في معاملته ، حازماً في أمره ، عازماً قويا في قصده . وقوراً في قوله وفعله وسائر شئونه . عفيفاً عن الدنايا بعيداً عن السوء والفحشاء . حيياً مما يعاب أو يقبح . كل هذه الأوصاف قد ورد بها الخبر الصحيح وتواترت عنه ﷺ في خلقه وسجاياه ومحاسن ذاته .

وقد وفق الناظم أيما توفيق في تشبيه خلقه عليه السلام بالنسيم في الرقة والسهولة والاستطابة ، وفى تشبيه وجهه الكريم بالروضة التي حازت كل الفضائل والمحاسن وإلى وصف خلقه الطيب يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران:١٥٩) ولكنهم لم ينفضوا من حوله ، بل كان في طبعه عليه السلام وسجاياه قوة جذب عظيمة جذبت إليه الناس وأحاطتهم به من كل لون . الأغنياء والفقراء ، السادة والعبيد ، الصغار والكبار ، الرجال والنساء . وكلهم كان يلمس فيه مودة وألفة .

وقال ﷺ :

لا تحل البأساء منه عرى الصبـ	ـر ولا تستخفه السراء
كرُمت نفسه فما يخطرُ السو	ء على قلبه ولا الفحشاء
عظمت نعمة الإله عليه	فاستقلت لذكره العظماء[1]

ويمضي الناظم في شرح سجاياه فيقول إنه وطّن نفسه على مكارم الصفات فرسخت فيه تلك المكارم ، لم تزلها طوارئ الأحوال . فهو هو في كل الظروف الشدة والرخاء كلاهما عنده بمنزلة واحدة . لا يجزع من الأولى ، ولا يلهو مع الثانية . إن أدب نفسه سواء في الحالتين صبر وقوة احتمال في الشدة وشكر ورزانة في النعمة . والصبر والشكر محوران من محاور تلك الشخصية السامية . إنه كالشمس في الكمال والثبات لا تفتر ساطعة في الكون دون أن ينال مرور الدهر والأعوام من كمالها وثباتها شيئاً . لم يطرأ عليها نقص . ولم تضعفها شيخوخة . وكذلك كان عليه السلام ما تفرق فضل كان قد استجمع فيه ، ولادنى منه نقص كان قد استبرأ منه فعليه صلوات الله وسلامه في أعلى عليين .

---

(١) لا تحل : لا تفك . البأساء : الشدة . عرى : روابط . تستخفه : تذهب وقاره . استقلت : ضؤلت وهانت . العظماء : فضلاء الناس .

إن الفضائل الجليلة التي عمرت بها سيرته الطاهرة إذا ذكرت وقورنت بفضائل غيره من العظماء . علا هو ودنوا هم . كالشمس حين تشرق تختفي مع إشراقها لوامع النجوم . وخفت كل الأضواء .

وقال ﷺ :

جهلت قومه عليه فأغضى	وأخو الحلم دأبه الإغضاء
وسعَ العالمينَ علماً وحلماً	فهو بحر لم تعيه الأعباء
مستقل دنياكَ أن ينسب الإمـ	ـساك منها إليه والإعطاء[1]

صورة أخرى من صور ثباته على المبدأ ﷺ يسردها الناظم في سلك هذه المنظومة الرائعة . فقد تسافه قومه عليه . سبوه وآذوه في مواقف كثيرة فلم يجزع ، بل كان دائماً ما يعرض عنهم ممتثلا لقول ربه : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٩٩) فقد احتملهم ﷺ فراداً وجماعات . قابل إساءتهم بالإحسان ، وسفههم بالحلم داعياً لهم بالهداية . حريصاً على إرشادهم إلى ما فيه خير الدنيا وخير الآخرة ، باذلا أقصى جهده في دعوتهم إلى الحق . علمه الله علماً لم يعلمه أحداً سواه . ومنَّ عليه بخلق عظيم لم يمن به على أحد سواه . . فأصبح كالبحر عميقاً غوره ، بعيدة شواطئه ، طويلاً مجراه وهذا من التشبيهات البليغة التي حفلت بها هذه التحفة النادرة حقاً عروس الشعر ومملكة القريض .

كان محمد عظيما وبقى عظيما فريداً في العظمة ، والدنيا بما فيها من نعمة زائلة لم تعرف طريقاً إليه ولا أقبلت نحوه ، ولم يمسك فيها شيئاً . فكان عيشه فيها الكفاف وربما ظلت بيوتاته الشهر والشهرين لا توقد فيها نار لإنضاج طعام ، وإنما هما الأسودان الماء والتمر ، لم ينم على وثير الفراش ، ولم يجلس إلى لذيذ الموائد كانت وسائده محشوة بالليف ، وفرشه حصيراً من السمر ، يمشي حافياً ومنتعلاً يأكل على الأرض وينام عليها ما شغلته الدنيا ولا فكر فيها . بل عزف عنها وعاش في عليائه بغنى النفس والفضائل والخصائص الروحية . خيره ربه بين أن يكون نبياً عبداً

---

(١) جهلت : تسافهت . أغضى : حلم عنهم . أخو الحلم : ذو الصبر . دأبه : شأنه . الإغضاء : التجاهل والتسامح . تعيه الأعباء : تعجزه الأثقال .

يأكل يوماً فيحمد الله ، ويجوع يوماً فيشكر الله ويصبر لله : ضرب أروع المثل في كرم النفس وشرفها لا يكون عن طريق المال بل عن طريق السمو والتحلي بمكارم الأخلاق .

ومن تأمل في سيرته عليه السلام من ملاك الدنيا ، وعبيد الجاه الكاذب ، لاستهانوا بما في أيديهم من مال . وما هم عليه من جاه وسلطان زائل كله ، مع بقاء المسئولية عنه . والحساب عليه ولا خير في نعمة ذهب أثرها ، وبقيت تبعتها!

وخلق طيب

ثم قال ﷺ :

شمس فضل تحقق الظن فيه	أنه الشمس رفعة والضياء
فإذا ما ضحا محا نوره الظل	وقد أثبت الظلالَ الضحاء
فكأن الغمامة استودعته	من أظلت من ظله الدفقاء
خفيت عنده الفضائل وانجا	ـابت به عن عقولنا الأهواء
أمع الصبح للنجوم تجلٍّ	أم مع الشمس للظلام بقاء[1]

هذه المجموعة شبيهة بالاستراحة الممتعة بين المشاهد . لأنها لم تخل من الأوصاف الواقعية . محمد عليه السلام شمس فضل ونعمة وهو تشبيه بليغ إذ التقدير . هو شمس . وحذف المسند إليه هنا جار على طريقة العرب في المدح . وقوله تحقق الظن فيه المقصود من الظن الاعتقاد أي أنه عليه السلام كان مثلما اعتقد فيه الناس من الكمال والفضل فهو الشمس في رفعتها وضيائها . فوجه الشبه هنا متعدد كما ترى . وإذا سار محمد عليه السلام ضحى محا نوره الحسي والمعنوي . فذاته المشرقة ما كان يرى لها ظل وما كان في صدره الشريف من آيات الوحي ، وتوجيهات الإسلام كان يمحو ظلال الشك والضلال . فالعبارة على هذا مستعملة في حقيقتها ومجازها بدون أن تحس تكلفاً أو غموضاً . كان نوره الحسي غالباً على نور الشمس لأنه لا ظل له . أما هي ـ أعني الشمس ـ فلا تمحو كل الظلال بل تبقى كثيراً منها . وهذا معنى قوله : « وقد أثبتت الظلال الضحاء».

---

(١) ضحا : ظهر ضحى . محا : أزال . الضحاء : ممدود ضرورة هو ضوء الشمس . الدفقاء : على وزن العلماء ومعناها : الجيوش مفردها داف . انجابت : زالت .

ثبت أنه عليه السلام أظلته الغمامة قبل البعثة ، وسارت حيثما سار . وثبت أن الأنبياء قبله ظللهم الله بالغمام جاء ذلك في القرآن الكريم ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ ﴾ (الأعراف:١٦٠) فلا وجه لإنكار هذه الفضيلة . لكن الناظم عبر عنها بكلام يحتاج إلى إيضاح فهو يقول :

أظلكت الغمامة استودعته من أظلت من ظله الدلفاءُ

أى أن الغمامة حين أظلته استودعت أمته من كان حاضراً منهم في عهده أظلتهم بظله - والمراد بالظل هنا الهداية منهم في كنفه - بدون واسطة ، أما من جاء بعدهم من الأجيال المتعاقبة فهم مستظلون بواسطة الاستمداد من سابقيهم أي تناقلوا هديه جيلا عن جيل . فـ «من» الأولى اسم موصول في محل مفعول و«من» الثانية حرف جر معناه التبعيض والدلفاء فاعل ، ظلت . والمراد من «الدلفاء» أصحابه وهم الذين أظلوا الأمة يعني هدوها من هديه عليه السلام بعد وفاته . ولا ننكر أن البيت فيه غموض يحتاج إلى تأمل إذ لا يظهر المراد منه إلا بعد التفكير فيه . وغير خاف عليك أن المقصود من «من أظلت» هو الأمة بأسرها بعد عهده عليه السلام . وكلمة «الدلفاء» مع ما فيها من غرابة غير وافية بالمقصود منها ولو أنه قال : «الرفقاء» لأوفت بالمعنى المراد وبسلامة القافية . وعلى الناظم طول القصيدة التي ضمنها هذا البيت .

ويقرر الناظم بعد ذلك أن كل الفضائل تضول أمام فضائله . وهذا المعنى مكرر في القصيدة في مواضع متعددة . وهذه الفضائل كانت سبباً في إنارة عقولنا وأزاحت عنها الأوهام والشبه . وقد توج الناظم هذه المجموعة ببيت هو قمة في البلاغة وإشراق المعنى واللفظ وهو قوله :

أمع الصبح للنجوم تجل أم مع الشمس للظلال بقاء؟

والاستفهام في صدري شطري البيت إنكاري وكل من شطري البيت تشبيه تمثيلي أنيق .

ثم قال ﷺ :

معجز القول والفعال كريم الـ ـخلق والخلق مقسط معطاء

لا تقس بالنبي في الفضل خلقاً فهو البحر والأنام إضاء

كل فضل في العالمين فمن فضـــ ـــل النبي استعاره الفضـــلاء[1]

لا خلاف بين العلماء أن الرسول عليه السلام أفصح العرب على الإطلاق ، وبهذه النعمة تحدث النبي نفسه فقال : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش » ولا خلاف يعتد به أيضا بين العلماء أن الرسول مع كونه أفصح العرب فإن كلامه لم يصل إلى حد الإعجاز فالإعجاز لم يثبت شرعاً وواقعاً إلا للقرآن الكريم . فبيانه عليه السلام فوق بيان الفصحاء من البشر . ودون كلام العلي القدير هذه حقائق لا جدال فيها . ولذلك وضعت كثير من الأقوال ودست عليه . وعلى هذا فإن قول الناظم « معجز القول » مجاز لا حقيقة حيث شبه بيانه عليه السلام في كونه بليغاً رفيعاً بالكلام المعجز في لفظه ومعناه . والقرينة المانعة هو ما استقر في عقائد العلماء من أن الإعجاز وصف لكلام الله وحده ، ولا أخال الناظم يقصد الإعجاز بمعناه الحقيقي إذ لا يغيب على مثله ما قررناه من حقائق آنفاً أما أنه عليه السلام « معجز الفعال » فهذا حق ، لأن أفعاله عليه السلام في جملتها وتفصيلها ليس في استطاعة أحد بالغاً ما بلغ من التقوى والورع أن يحاكيها . صحيح أنه عليه السلام قدوة لنا ، ولكننا في أسمى درجات سلوكنا نقارب أفعاله ولا نماثلها تمثيلا كاملا من كل الوجوه .

وعلى هذا المعنى يستقيم للناظم ما أراده من البيتين التاليين . فهو عليه السلام لا مثيل له في الخلق جميعاً لا سابقاً ولا معاصراً ولا لاحقاً . فهو بحر الفضل ، ومن عداه من اقتدى به جداول مستمدة من ذلك البحر ، ماؤها من مائه . وما من مهتد إلا واهتداؤه مستمد منه عليه السلام ، والفضلاء جميعاً استعاروا الفضل منه عليه السلام ، كل ذلك ثوابت لاخلاف فيها .

معجزات ودلائل

وقال ﷺ :

شق عن صدره وشُقَّ له البد ـــر ومن شـــرط جـــزاء

ورمى بالحصـى فاقصد جيشـاً ما العصا عنده وما الإلقـاء[2]

---

(١) مقسط : عادل . معطاء : كثير البذل والعطاء . الأنام : الخلق كلهم . إضاء : مستنقع ماء أو بركة . استعاره : أخذه عارية .

(٢) اقصد : أصاب إصابة قاتلة . والمراد جيش قريش وحلفائها يوم بدر .

لمس الناظم في هذين البيتين ثلاث وقائع . أولها واقعة شق صدره عليه السلام ، وهى مسألة ينكرها بعض المرتابين ، ولكن جل العلماء على ثبوتها وليس ذلك بعزيز على قدرة الله ، ولا هو بكثير على مقام سيد المرسلين . ومما يؤيد هذا ما يمارسه الآن « طب الجراحة » مما نسلم به كحقيقة حسية لا سبيل لنكرانها فعلى أي وجه ستساغ استحالتها على قدرة العظيم القائم على كل نفس ، بما كسبت لا يقال إن الله قادر على « تطهير سريرته ﷺ » بدون هذا الشق لأنا نقول إن الله قادر على هداية الناس بدون وساطة إرسال الرسل ، ولكنه أرسلهم خلقاً كثيرين . هذا وقد مرَّ الحديث عن هذه الواقعة عند الإشارة إلى خوارق الإرضاع .

أما الواقعة الثانية وهي واقعة انشقاق القمر ، فيقل الخلاف حولها أو يكاد ينعدم . إذ ذهب الجمهور إلى أن القمر انشق فعلا معجزة له عليه السلام حين طلب منه كفار قريش أن يريهم آية . فاستجاب له ربه ففلق له القمر فلقتين رآه من رآه منهم إلا النائمون والغافلون . وقد صدر الله بهذه الواقعة سورة القمر فقال وهو أصدق القائلين :

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾

(القمر: ١، ٢)

فانشقاق القمر هو ظاهر القرآن الكريم ، والظاهر أصل ما لم يقم الدليل على منعه . ولذا جاء في صحيح البخاري وغيره من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس ، وجبير بن مطعم وابن عباس ﷺ، أن القمر انشق له ﷺ إظهاراً لصدقه وثبوت رسالته.

ويؤيد هذا المذهب قوله تعالى عقيبه : ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ (القمر:٢) على أن يكون ما حكاه القرآن عنهم تعليقاً منهم على ما شاهدوا ورفضا له ، حيث أعرضوا عنه وبرروا إعراضهم بأن ما رأوه رأى العين إنما هو سحر وليس معجزة .

وعلى هذا فيكون عطف « انشق » على الفعل « اقتربت » عطف ماض لفظاً ومعنى مع استمرار معنى الأول . لأن الاقتراب الموصوفة به الساعة مازال وهو الآن أشد قربا من زمن التنزيل .

أما المنكرون فلهم رأيان : أحدهما أن الانشقاق حدث فعلا ، لكن ليس بمعنى شطر القمر شطرين بينهما تباين ، وإنما بمعنى ظهور القمر وإشراقه ، لأن العرب تسمي الإشراق انشقاقا وعليه جاء قول النابغة :

فلما أدبروا ولهم دوى دعانا عند شق الصبح داع

يعني : عند ظهور الصبح . وهذا التوجيه مع التسليم به فإننا نرفضه ، لأن الشق غير الانشقاق ، إذ في الانشقاق معنى المطاوعة تقول شققت العصا فانشقت وفرق بين أن يصدر الفعل عما هو مفعول في الأصل ، وبين أن يقع عليه الفعل من فاعل آخر . فانشقاق القمر كان لإرادة مريد سواه ، وليس للقمر هنا إلا مطاوعة الفاعل الحقيقي واستجابته فيما أراده المريد المغاير في أفعال المطاولة لما صدر من المفعول المطاوع ذلك الفعل .

وفحوى هذا كله أنه لا يمكن أن يكون المراد من « انشق القمر » هنا هو ظهوره في مجراه وبروجه ، لأن ذلك الظهور يجري جرياً عادياً من القمر لا مطاوعة منه ولأن ظهور القمر في بروجه ظهوراً عادياً في منازله المختلفة لا يأبه الناس به ، لأنهم ألفوه . هو صحيح آية من آيات الله ، ولكنها آية مسلم بها لا غرابة فيها وإنما الغرابة في ألا تكون بعد ذلك الإلف الطويل . فهل يعقل أن يرى المشركون ظهور القمر مشرقاً أو في كبد السماء أو دانياً للغروب ويقولوا : « هذا سحر مستمر »! ما أبعد هذا الرأي عن الصواب .

أما الرأي الثاني الذي ذهب إليه المنكرون ، فخلاصته أن القمر لم ينشق وسوف ينشق عندما تقوم الساعة . والذي حملهم على هذا أن بعض الناس المعاصرين صرحوا بعدم مشاهدتهم له . والأمر هنا يسير ، لأن القمر انشق ليلا فمن الناس من رآه ، ومنهم من لم يره . ولا دليل لهؤلاء المنكرين جميعاً سوى الظن والتخمين .

وبقيت لهؤلاء شبهة . حيث نظروا في النص الكريم فوجدوا اقتراب الساعة مقدماً على انشقاق القمر فاعتمدوا الترتيب الصياغي وهذه أيضاً حجة واهية لأن منهج القرآن الحكيم في التقديم والتأخير له مقاصد بلاغية مختلفة . فالتدلي ـ مثلا ـ في قصة المعراج التي وردت في سورة النجم ، متأخر في الحدوث على الدنو المؤخر عليه في الصياغة في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ والترتيب الحدوثي يقتضي أن

يكون التعبير ثم تدلى فدنى . ولكنه لم يراع! وغير ذلك كثير . وفي توجيه تقديم اقتراب الساعة على انشقاق القمر يمكن أن يقال :

إن اقتراب الساعة أمر غير ملحوظ عند المخاطبين ، أما الانشقاق فأمر ملحوظ حسياً فبين الأمرين تفاوت في قوة الإدراك وضعفه فقدم الأضعف في الإدراك على الأقوى ليكون الأقوى دليلا عليه . وعطف ما قام الدليل على ثبوته على مالم يقم عليه دليل أحكم . لأن الدعوى تقام ثم يردف عليها دليلها ، وليس العكس . ومعنى آخر نلحظه عند التأمل . ففي تأخير انشقاق القمر ليكون قريباً من قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ ﴾ فضيلة بيانيه جليلة القدر . لأن انشقاق القمر هو الآية المرئية التي أنكرها المشركون ووصفوها بالسحر فبين العبارتين نسب وثيق العرى . أما اقتراب الساعة فإنه أمر معنوي لم يشاهد ولم ير فانظر إلى صنيع القرآن في إعجازه كيف يكون؟

هذا ، وقد تلمس الناظم وجهاً لطيفاً للربط بين الآيتين : انشقاق الصدر ، وانشقاق القمر ، حيث قال : «ومن شرط كل شرط جزاء» يعنى أن محمداً عليه السلام حين شق صدره ارتاع لأنه كان طفلا لم يدر ماذا يقصد بهذا الفعل معه . ونزل الناظم هذا الموقف منزلة الشرط مجازاً . ثم كان في انشقاق القمر له وهو رسول الله تثبيت لقلبه الذي ارتاع حالة أن شق . وهذا التثبيت هو جزاء ذلك الشرط مجازاً أيضاً ألست معي أن هذا التوجيه لطيف؟ آمل .

أما الواقعة الثالثة فهي ما حدث من الرسول عليه السلام في غزوة بدر حيث ألقى حفنة من الحصى في وجوه القوم ، وقال شاهت الوجوه . ثم دارت المعركة وانتصر المسلمون انتصاراً رائعاً خالداً سجله التاريخ الديني والبطولي بأحرف من نور . وفي ذلك يقول الله تعالى . ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ (الأنفال:١٧).

أما الاستفهام في قوله «ما العصا عنده وما الإلقاء» فإن المراد منه التهوين من شأن العصا وهو رمز السلاح أياً كان . والتهوين من شأن أي إلقاء إذا ما قورن بإلقاء الحصى في وجوه القوم فدحرهم . ولا جرم فإن الرامي لتلك الحصيات هو الله . وبذلك جاء صريح التنزيل . فلله درك يابوصيري من رجل قؤول !

ثم قال ﷺ :

ودعـــا للأنـــام إذ دهمتـــهم	ســنة مـــن مُحولـــها شـــهباءُ
فاستهلت بالغيـث سـبعة أيـام	علـــيهم ســـحابة وطفـــاءُ
تتحرى مواضع الرعي والسقـــ	ـــي وحيث العطاش توهي السقاءُ
وأتـــى النـــاس يشـتكون أذاهـا	ورخـــاء يــؤذي الأنـــامَ غـــلاءُ
فـــدعا فـــانجلى الغمـــام فقـــل في	وصف غيث إقلاعـــهُ استســـقاءُ
ثم أثرى الثـرى فقــرت عيــون	بقراهـــا وأحيَـــتْ أحيـــاءُ
فتـــرى الأرض رغيَّـــة كســماء	أشرقت مـــن نجومهـــا الظلمـــاءُ
تخجل الدرَّ واليواقيت مـــن نـــور	رُباهـــا البيضـــاء والحمـــراءُ[1]

وهذا مشهد موصوف أبرع وصف . فقد أجدب الناس في المدينة ويبس ما عليها من نبات حتى أشرف على الهلاك . فشكو حالهم للنبي عليه السلام وهو يخطب فدعا ربه فانهالت الأمطار وامتلأت الوديان والسهول بالماء واستمر هطول الماء سبعة أيام من الجمعة إلى الجمعة بإسقاط الكسور وعادوا فاشتكوا له فيضان الماء فدعا ربه عليه السلام فانقشع السحاب وانقطع هطول الأمطار واستقر الماء في الأرض فجادت بخيرات ربها واطمأنت النفوس وعلا كل وجه البشر والسرور .

هذا مجمل المشهد . وقد سلك الناظم في وصفه منهجاً بيانياً ممتعاً . ففيه الاستعارة المكنية حيث شبه السنة الجدباء بصلودهم الناس وهم غافلون . والسنة كما نعلم تعبير يدل على الزمن . والزمن لا يوصف بالألوان ولكن الناظم وصفها تخييلا بأنها شهباء . ويجوز حمله على المجاز المرسل حيث أراد من السنة ما حل بالأرض فيها والعلاقة هي « التلازمية » بين الوقت والمكان . والاستعارة المكنية في وصف الغمامة بالوطفاء . وأصل هذا الوصف أن يدل على كثرة شعر العينين وهو لا يكون للغمام وإنما للأحياء من الناس رجالا ونساء . ثم وصفها بالتحرى لمواقع الرعي والسقي فإذا مرت على موقع محتاج إليها هطلت أمطارها منه ، وإلا مرت مرور الكرام كما يقولون . وفي قوله « توهى السقاء » تمثيل غير خاف موقعه من اللفظ أو المعنى .

---

(١) محول : جدب . شهباء : لا نبات فيها . وطفاء : مسترخية . تتحرى : تبحث . توهى : تضعف . السقاء : القرب . استسقاء : طلب الماء . قرت : اطمأنت . نحبه : يعده . رباها : الأماكن المرتفعة .

وكثيراً ما يذكر الناظم من ألوان البديع ومنه هنا الطباق بين رخاء وغلاء أراد من الرخاء تتابع هطول الأمطار . ووصفه بأنه غلاء لأن الشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده . وهذه حيلة أدبية آسرة جمعت بين الضدين وهما لا يجتمعان . !

ونفس الحيلة استثمرها في الجمع بين ضدين آخرين : إقلاعه استسقاء فالإقلاع هو ذهاب الماء . والاستسقاء هو طلب وجوده فكيف يكون طلب إذهاب الماء هو طلب وجوده؟ ذلك ما صنعه الناظم بثاقب فكره وظرف حيله .

تلك الأمطار أثرت الثرى بكرمها فأصبحت الأرض غنية بعد فقر وغنيت بغناها قلوب وعيون .

ولا يفوتنك تلك الصورة التمثيلية العجيبة حيث شبه الأرض بعد هطول الأمطار وإقلاعها بما أثبتت من كل زوج بهيم نباتاً مختلف الأحجام والألوان والطعوم . شبهها بسماء تزينت بأضواء الكواكب والنجوم منظران مبهجان أحدهما علوى في السماء ، وثانيهما دنوى على الأرض كواكب السماء تمحو ظلام الليل . ونبات الأرض يزيل ظلام الفاقة والفقر . أو رأيت اللؤلؤ اللامع والياقوت اللألاء . إنما يخجلان من زهور الربا وضحك الربيع المزهو فيها . إنها لريشة مبدعة مدارها الألفاظ وكم في الألفاظ من أسرار وأسرار .

أمنية ورجاء

ثم قال ﷺ :

ليته خصني برؤية وجه	زال عن كل من رآه الشقاءُ
مسفر يلتقي الكتيبة بساماً	إذا أسهم الوجوه اللقاءُ[1]

يتمنى الناظم لو أنه رأى وجه النبي عليه السلام ، وهذه أمنية كل مؤمن يحب الله ورسوله . ورؤية وجه النبي عليه السلام نعمة جليلة يمتن الله بها على المؤمنين إذ يصبحون بفضل تلك الرؤية أصحاباً له عليه السلام وشرف الصحبة لا يعادله شرف. وفي ذلك يقول عليه السلام « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ويقول :

---

(١) مسفر : واضح . الكتيبة : الجيش المعادى . أسهم : غير وبدل .

«لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مبلغ أحدهم ولا نصيفه» .

أما تلك الرؤية لغير المؤمنين فحجة بالفهم عليهم ، لأنهم كانوا من الهدى على قاب قوسين ولم يهتدوا . فنعم المصير مصير من رآه وآمن به واتبع هداه . وبئس المصير ، مصير من رآه ولم يؤمن به وأعرض عنه وعلى هذا فإن قول الناظم : زال عن كل من رآه الشقاء . إنما يقصد به المؤمنين دون غيرهم ، لأنها بالنسبة للكافرين لاتزيدهم إلا شقاء ولا خلاف بين العلماء في أن خير القرون قرنه ﷺ . ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، أي عهد أصحابه ، ثم تابعيهم . ثم تابعي تابعيهم . فهذه درجات ثلاث . وبها جاء الحديث الصحيح ، ولا شك أن الفضل في الأمة موجود إلى يوم القيامة وإنما خص الرسول عليه السلام قرنه وقرن التابعين وتابع التابعين ، لأنهم لقربهم من مصدر الهدي كانوا أكثر الأجيال صلاحاً وتقوى .

ثم استطرد الناظم في ذكر خصائص وجه النبي الكريم ﷺ وبعض . فقال : إن هذا الوجه كان وضيئاً بساماً ولم تغير من صفته هذه الشدائد وملاقاة العدو . واللقاء يعتري وجوه الأبطال فيبدل لونها من شدة ما يدور في الحروب . فقد يكون المحارب على موعد من الموت وهو لا يدري وثبات وجه النبي ﷺ في الشدائد على حالة لم يتغير دليل على شجاعة قلبه وهذه الشجاعة من الخصائص الثوابت التي تواترت الأخبار عنها . ومن أجل تلك الشجاعة ثبت عليه السلام في غزوة أحد في نفر قليل من الأنصار وتصدى للعدو ولم يتقاعس قيد شعرة . ومن أجل تلك الشجاعة كان إذا لقي جيشه العدو وتقدمهم فلم يكن أحد منهم أقرب إليه منه . بل كان ملاذاً لأصحابه في المعارك الضارية حتى قال أصحابه :

كنا إذا حمى الوطيس أى اشتد البأس ، واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ . فلم يكن أحدنا أقرب إليه منه . ومرجع شجاعة قلبه عليه السلام هو الإيمان الصادق بالله وبقدره حلوه ومره . والثقة العظيمة فيه بأنه ناصره وحافظه : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ (المائدة:٦٧).

وبتلك الشجاعة واجه محمد عليه السلام الدنيا كلها بدعوته . وقال قولته المشهورة حينما أحس أن عمه أبا طالب خذله وتخلى عنه عندما قال له : يا ابن أخي هون عليَّ

على نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . قال عليه السلام : «والله ياعم . لو ضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري . وخزائن الأرض طوع يدي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» .

وقال ﷺ :

جعلت مسجداً له الأرض فاهـ ـتز به للصلاة فيها حراء

في هذا البيت يذكر الناظم خصيصة من خصائص النبي عليه السلام وأمته . حيث جعل الله الأرض له ولأمته مسجداً في أي مكان شاءوا يصلون . ولم يكن هذا جائزاً لنبي قبله ، ولا لأمة قبل أمته . بل كان لكل نبي وأمة مصلى يقصدونه للصلاة . فوسع الله على هذه الأمة ، ويسر لهم وسائل النسك والعبادة أما ما أشار إليه من اهتزاز حراء ، وهو الغار الذي كان يتعبد فيه قبل أن يبعث . وهذا الاهتزاز حدث منه مرة ، ومن أحد مرة ومن جبل يقال له ثبير مرة وهو مقابل لحراء . والاهتزاز نوع من المعجزات والخوارق وهو ثابت بصريح القرآن في قصة موسى عليه وعلى نبينا السلام حين طلب أن يرى به : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ (الأعراف:١٤٣) فلا غرابة في هذا لأن فاعل الاهتزاز إنما هو الله والله على كل شيء قدير .

وقصة اهتزاز حراء رواها مسلم والترمذي . واهتزاز أحد رواه الإمام البخاري . أما ثبير فقد رواه . النسائي والترمذي مع اختلاف في بعضها .

وقال ﷺ :

عودة للخلق الطيب

مظهر شجة الجبين على البر كما أظهر الهلال البراء[1]

ستر الحسن منه بالحسن فاعـ ـجب لجمال له الجمال وقاء

فهو كالزهر لاح من سجف الأكـ ـمام والعود شق عنه اللحاء

(١) مظهر : كاشف . شجه الجبين : جرح الوجه . البر . الشفاء . البراء الحسن . لاح : ظهر . سجف : ستر . الأكمام : غطاء الزهور جمع كم اللحاء قشر الأشجار ذكاء : الشمس . وهي على وزن دعاء . تخال : تظن ـ الحرباء : حيوان يدور مع الشمس حيث دارت لونه سريع التبدل :

كاد أن يغشي العيون سنى منـــه لسـر فيـه حكمتـه ذكـاء
صانه الحسن والسكينة أن تظـــهر فيـه آثارهـا البأسـاء
وتخـال الوجـوه إن قابلتـه ألبسـتها ألوانهـا الحربـاء

مازال الناظم يتحدث عن خصائص وجه النبي الكريم ، فيقول إذا نظرته رأيت فيه آثار الشجة التي شجها في أحد ولكنها شجة بريئة حسنة لم تؤثر في جمال وجهه فهى تشبه الهلال لحظة ظهوره في الدقة والحسن .

ثم أشار إلى حسن بواطنه حيث جعل الحسن الظاهر للنواظر ستراً ووقاية لحسن آخر وراءه وهو حسن البواطن . ويدعوك لتعجب من حسن غطاؤه الحسن .

ثم بين المعنى وضوحاً بهذا التشبيه الذي يقول فيه . فهو كالزهر لاح . يعني أن حسنه الظاهر مثل حسن أكمام الزهور . تنظر إليها فتراها جميلة فإذا فتقتها بدا لك وراءها حسن الزهور أنفسها . ووجه الشبه بين الطرفين هو الجمال ظاهراً وباطناً .

ثم ساق تشبيها آخر لنفس الغرض حيث شبه حسنه المضاعف ﷺ بالحسن الحاصل للعود الأخضر . فإن لحاءه ، وهو قشرته الظاهرة جذابة المنظر . فإذا أزلت عنه لحاءه بدا لك حسن العود نفسه . فتأمل أخي القارئ روعة تينك الصورتين الأدبيتين وادع معي للناظم بحسن الجزاء مثل حسن بيانه .

أن محمداً بهي الطلعة لا مثيل له . إذا نظرت إليه تكاد عيناك أن تكلا من فرط حسنه وسناء الذي بهر العيون . ذاك الحسن والجمال سرفيه استودعه بارئه ذاته الطاهرة . حتى إن الشمس لتحاكي ذاك الحسن وتحتذيه .

وحسنه على درجة واحدة من النقاء والثبات لم تشنه البأساء بوقائعها . ولم يذبله تعاقب الأيام والشهور والسنون .

وأدعوك أن تنظر إلى قلب التشبيه في « حكمته ذكاء » وما يفيده من المبالغة في إثباب الوصف المراد . إذا المعهود أن يشبه الجميل بالشمس ، وأدعوك كذلك لتقف قليلا مع خيال الناظم حيث عقد خصومة لمودة بين الحسن والسكينة من جهة ، وبين البأساء من جهة أخرى ، هي تريد أن تظهر بصماتها وآثارها على وجه النبي الكريم ، وهما يدفعان كيدها وينتصران عليها . ويبقى محمد عليه السلام مثلا رائعاً لكل بهاء مصون .

ثم قال رضي الله عنه :

فإذا شمت بشره ونداه	أذهلتك الأنوار والأنواء
أو بتقبيل راحة كان لله	وبالله أخذها العطاء
تتقي بأسها الملوك وتحظى	بالغنى من نوالها الفقراء
لا تسل سيل جودها إنما يكـ	ـفيك من كف سحبها الأنداء[1]

هذه نقلة من الحديث عن الوجه إلى الحديث عن الكف . انتقل منه إليها جامعاً بين الاثنين فقال : إذا نظرت إلى وجهه الكريم وعطاء كفه السخية أذهلتك من الوجه الأنوار ، ومن الكف العطايا . وراحته ﷺ كان كل فعلها لله أخذت أو أعطت .

وهي راحة تهابها جبابرة الملوك ، أو تحظى بفضلها الفقراء حتى يصيروا أغنياء فإذا رجوتها يوماً فلا تطلب كثير عطائها لأنه فوق حاجتك . وإنما الذي يكفيك منها قطرات . ففي تلك القطرات غنى لك وأي غنى . ومثلك معها مثل الظمآن يرد الماء ليشرب . فإنه يكفيه غرفات من الماء تروي ظمأه وتبل كبده . ولو ظل يغترف من الماء ماهو فوق حاجته لأعياه الغرف وأعياه فاقتصد في طلبك منها تكن حكيما .

وقال رضي الله عنه :

وعود للمعجزات

درت الشاة حين مرت عليها	فلها ثروة بها ونماء
نبع الماء أثمر النخل في عا	م بها سبحت بها الحصباء
أحيت المرملين من موت جهد	أعوز القوم فيه زاد وماء
فتغذى بالصاع ألف جياع	وتروى بالصاع ألف ظماء
ووفى قدر بيضة من نضار	دين سلمان حين حان الوفاء
كان يدعى قناً فأعتق لما	أينعت من نخيله الأقناء

(١) شمت : نظرت بشره : وجهه . الأبواء : الخيرات . وهي في الأصل جمع نوء بمعنى علامة المطر أو وقته . النوال: العطاء . وكف : قطرات الأنداء : جمع ندى وهو ما يترسب على أوراق النبات .

أفـــلا تعـــذرون ســـلمان لمـــا أن عرته من ذكـــره العـــرواء[1]

يـذكر النـاظم في هـذه المجموعـة مجموعـة مـن الخـوارق وقعـت بواسـطة راحتـه المباركة: فأشار إلى قصة الشاة العجفاء وهي شاة أم معبد عاتكة بنت خالد الخزاعية. حدث هذا وقت خروجه ﷺ مـن مكـة إلى المدينـة مهـاجراً ومعـه صـديقه أبـو بكـر ومولاه عامر بن فهيرة حين خرجوا من الغار وقد نفد طعامهم فوجدوا بيـت الخزاعيـة على الطريق. فابتاعوها طعاماً فلم يجدوا عندها سوى هـذه الشـاة الهزيلـة فاسـتأذنها عليه السلام في حلبها فأذنت له إن وجد بها لبنا. فمسح بيـده الكريمـة علـى ضـرعها فدرت لبناً كثيراً طعموا منه، وبقيت الشاة تدر اللبن على ذويها لم يجف لها ضرع.

أما نبع الماء بها فحدث مرات كثيرة إحداها في غزوة تبـوك وكـان القـوم يشـربون منه ويتوضأون. واختلفت الروايـات في عـددهم بحسـب تعـدد النبـوع، فمـرة كـانوا ثمانين رجلا. ومرة كانوا ألفاً وخمسمائة.

ولا غرابة أيضاً في هذه الخوارق فقد حدث مثلها أو قريب منها للأنبياء كمـا نـص على ذلك الكتاب الأمين. فموسى عليه السلام ضرب الحجر بعصاه فانفجر منه الماء. وعيسى عليه السلام كان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله.. فمن كـان في قلبه مثقال ذرة من إيمان لا يجرؤ على إنكار ما ورد لنبينا عليه السلام من خـوارق لأن الفاعل في كل الأحوال هو الله.

أما إثمار النخل ومقدار البيضة من الذهب فقد ذكرهما ابن هشام وغيره من كتـاب السيرة وفحوى ذلك أن سلمان الفارسي آمن بـالنبي عليـه السـلام حـين قـدم المدينـة، وكان مملوكاً. فأمره ﷺ أن يكاتب سيده على العتق فكاتبه سيده على غرس ثلاثمائة نخلة يرعاها سلمان حتى تثمر. وأن يدفع مـع الغـرس أربعـين أوقيـة ذهبـاً وبعـدها يصير حراً طليقاً من رق الملك. فأعانه أصحاب النبي على شراء غـرس النخـل فمـر النبي عليه السلام يده عليها واحدة واحدة ثم غرست فـأثمرت في عـام غرسـها تـبكيراً لتحقيق العتق وبقيت عليه أوقيات الذهب الأربعين. فأعطى النبي عليه السـلام سـلمان

---

(١) الحصباء: الحصى. المرملين: المجهدين. أعوز: أحاج. الصاع: قدحان وثلث بالكيـل المصـري. نضار: ذهب. قنا: عبداً. أينعت: أثمرت. الأقناء: جمع قنو وهو عرجون البلح. عرته: أصـابته: الإحساس الشديد.

قطعة ذهب في مقدار البيضة ليسد بها دينه فقال سلمان : وأين تقع هذه القطعة مما هو مطلوب مني ؟ فقال له عليه السلام : خذها فسيؤدي الله بها دينك . فأخذها سلمان فوزن لسيده منها أربعين أوقية ، وبقي فيها باقي !؟

ومن أوصاف يده عليه السلام أن الحصى سبح بها ، وكذلك الطعام حتى كان جلساؤه يسمعون لذلك حساً كحس النحل . وليس ذلك بمنكر فالقرآن الكريم يقول : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (الإسراء: ٤٤).

وكذلك من أوصاف يده عليه السلام أنه أصاب الناس جدب فدعا فمنَّ الله عليهم بالخير حتى أن القليل من الطعام «الصاع» أشبع العدد الكثير من الجياع «الألف» وأن القليل من الماء أروى العدد الكثير من الظامئين . وقد كنى بالصاع في الموضعين عن القلة في المأكول والمشروب ، وكنى بالألف فيها عن الكثرة في الآكل والشارب فالعدد لم يرد حقيقة .

وإلى هذا أشار بقوله : «أحيت المرملين من موت جهد» والإحياء هنا مجازي المراد منه الإنقاذ ، والموت مجازي أيضاً بدليل إضافته إلى الجهد .

وهنا من طباق الإيجاب الذي طرفاه مجازيان . ويسمى تكافؤا عند بعض النقاد والبلاغيين . وبين قوله له زاد وماء ، وتغذى وتروى مراعاة ، نظير لا كلفة فيه .

ثم عاد إلى قصة سلمان فقال إنه كان قبلا عبداً فأصبح بعد حراً . ثم وجه الخطاب إلى اليهود يقول لهم أفلا تعذرون سلمان حين اهتز فرحاً عندما سمعكم تتحدثون عن محمد عليه السلام فيما بينكم وكان لم يره قبلا . أبعد أن قام الدليل على صدق نبوة محمد عليه السلام وسداد رأي سلمان حين فرح به وارتعد لذكره . ألم يكن هو على حق وأنتم على باطل؟

وكان إتمام عتق سلمان رضي الله عنه بعد بدر وأحد . فلم يشهدهما بسبب الرق . وبعتقه تم إنعام الله عليه بالإسلام والحرية .

وقال رضي الله عنه :

وأزالت بلمسها كل داء	أكبرته أطبة وإساء
وعيون مرت بها وهي رمد	فأرتها ما لم تر الزرقاء

وأعـــادت علـــى قتـــادة عينـــا فهي حـــق مـــماته الـــنجلاء[1]

وفي هذه المجموعة يذكر الناظم طائفة أخرى من البركات والخوارق التي حدثت بواسطة يده الكريمة . فقد كانت سبباً في إزالة كل داء يلمس بها موضعه . سواء كان الداء كبيراً أو صغيراً . وكم من العلل والأمراض شفاها الله حين مرر يده عليه السلام على مواضعها ، بل منها من كان يرى الأطباء أنه داء عضال لا أمل من الشفاء منه وكذلك المرضى كانوا لا يرجون منه الشفاء فيشفيه الله بذلك السبب . وقد روى البخاري أن أحد أصحابه أصيب يوم خيبر بضربة في ساقة فنفث فيها ﷺ فسلمت ولم يشك صاحبها ألما . هذا مثال . ومثال آخر ذكره الناظم ودلل عليه بواقعة مخصوصة . فالعيون التي كانت تصاب بالرمد ويحظى أصحابها باستطباب النبي لهم كان يزال ما بها من رمد وتبصر ثانية إيصاراً حاداً كأنها لم تعل . والزرقاء التي ذكرها الناظم هي زرقاء اليمامة وكانت ذات بصر قوي حاد ترى ـ كما جاء في النقل ـ من مسافة ثلاثة أيام وهي موهبة لا تتكرر كثيراً . ففي تعبير الناظم مبالغة في إثبات البرء للعين الرمداء كما ترى .

أما قصة قتادة الصحابي الجليل . فقد أصيبت عينه في أحد وتدلت على وجنته فجاء بها النبي الكريم عليه السلام . فردها في موضعها وقال : اللهم أكسها جمالا . فاستجاب الله له فكانت أحسن عينيه . ولم تعل حتى مات . وفي ذلك يقول أحد أبنائه:

أبونا الذي سالت على الخد عينــه فردت بكف المصطفى أيـــما رد ..

فعادت كما كانـــت لأول أمرهـــا فيا حسن ما عين ويا حسن ماخـــد

مثل هذه الخوارق لا وجه لنكرانها ما دام الخبر قد ورد بها : وثبت مثلها للأنبياء كعيسى عليه السلام وبذلك جاء صريح القرآن : ولا عزيز على قدرة الله الفعال لما يريد .

ثم قال ﷺ :

وعود للأمنية والرجاء

أو بلـــثم التـــراب مـــن قـــدم لا نت حياء مـــن مســـها الصـــفواء

(١) داء : علة ومرض . أكبرته : استعظمته . أطبة : جمع طبيب . إساء : مرضى . رمد : مريضة بالرمد . الزرقاء : امرأة كانت حديدة البصر وهي زرقاء اليمامة . النجلاء : الواسعة .

موطئ الأخمص الذي منه للقلب إذا مضجعي أقض وطاء
حظي المسجد الحرام بممشاها ولم ينس حظه إيلياء
ورمت إذا رمى بها ظلم الليل إلى الله خوفه والرجاء[1]

أنهى الناظم الحديث عن اليد ، بعد الحديث عن الوجه . ثم شرع في الحديث عن قدم وذكر بعضا مما هو خاص بها ، ولكن قبل أن نمضي مع الناظم فيما أراد أن قوله فإن لنا وقفة جادة معه نقضي قليلا معها ثم نعود لوصل الحديث على النسق لذي أثبته هو منقول وبالله التوفيق .

عندما أراد الناظم أن يتحدث عن الوجه الكريم توصل إلى الحديث عنه بقوله :

ليته خصني برؤية وجه زال عن كل من رآه الشقاء

وقلنا هناك أن هذا الذي تمناه الناظم شرف عظيم يحقق لمن حظي وهو مؤمن سعادة الدنيا ، ونعيم الآخرة .

وعندما أراد أن يتحدث عن «اليد» الكريمة توصل إلى الحديث عنها بقوله

أو بتقبيل راحة كان لله وبالله أخذها والعطاء

يعني ليته حظي بأحد الأمرين ، رؤية الوجه الكريم ، أو تقبيل اليد الكريمة . ولم نقل شيئاً عن التقبيل هناك لكي نشير إليه هنا ليتسق الحديث عن المواضع الثلاثة .

وما تمناه الناظم من تقبيل «اليد» يثير في الشعور الديني سؤالا : هل تقبيل اليد أى يد جائز شرعاً فيكون ما تمناه الناظم سليما من نقد؟ أم غير جائز فيكون الناظم قد وقع في المحظور؟

والواقع أن التقبيل سلوك لا يقره الإسلام فإن كان لابد فليكن التقبيل بين العينين أو على الوجنتين وهما ما ارتفع من الخدين ، وعلى أي فإن ما تمناه الناظم هنا ضرره خفيف مالم يصحب التقبيل انحناء فيكون منهياً عنه نهياً قاطعاً لأنه يشبه ما كانت تفعله الأعاجم مع ملوكها ، وقد صح النهى عنه ﷺ .

---

(١) لثم : تقبيل . الصفواء : الحجارة كما مر الأخمص : باطن القدم الذي لا يلتصق بالأرض . أقض : خشن . وطاء : فراش . إيلياء : بيت المقدس .

وعندما أراد الناظم الحديث عن القدم الشريفة توصل إلى الحديث عنها بقوله :

أو بلثم التراب من قدم لا نت حياء من مسها الصفواء

وهذا هو ما نأخذه على الناظم ، لأنه تمنى أن يخص بتقبيل التراب الذي وطئه قدمه الشريف عليه السلام ، لأن هذا غير جائز إطلاقاً فالقدم نفسها لا يجوز تقبيلها وكذلك اليد . فما بالك بالتراب؟

ولعل مرجع هذا الشعور عند الناظم هو الحب الشديد الذي كان يغمر قلبه ، ويملأ نفسه لمحمد عليه السلام ، والحب عندما يمتلك مشاعر نفس صادقة ينسيها كثيراً من الضوابط ، ومن أحب أحداً أحب كل شيء له به صلة ، فهذا مجنون ليلى يقول :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

ومعذرة للإمام البوصيري إذا قارنا حبه الطاهر الشريف الذي هو شعيرة من شعائر الإسلام ، بحب مجنون ليلى . فالفرق شاسع جداً بين الحب والمحب والمحبوب في الصورتين ، ولكن مهما اختلفت بواعث الحب وغاياته فإن آثاره تتشابه في شعور المحبين ، ولعل الناظم استشعر مثل هذه المواقف التي سيأخذها عليه خصومه وناقدوه فقال في بردته :

يالائمي في الهوى العذري معذرة مني إليك ولو أنصفت لم تلم

فالناظم يرى في هواه ما لا يراه ناقدوه . فإذا أضفنا إلى هذا صوفية الناظم ، وللصوفية سبحات وسبحات ، ولا نقول شطحات كما يحلو لخصوم الصوفية ، إذا أضفنا هذا إلى ذاك بدا لنا أن الناظم معتدل في الإفصاح عن مشاعره نحو هواه حتى الآن ، وسنعود إلى هذه مرة أخرى إن شاء الله عند حديثه عن التوسل ، ولنعد الآن إلى ما أراد الناظم بيانه في الأبيات السابقة .

يذكر الناظم من خصائص قدمه الشريف أنه كان إذا مشي على الصخور لانت تحته حتى يسهل سيره عليها فلا تؤذيه ، وقد وردت الأخبار بأنه عليه السلام كان إذا مشي على الصخور أثر فيها ، وهذا لا يكون إلا بإلانة الصخور له . ومع هذا كان ﷺ

إذا مشى على الرمل لم يؤثر فيه مخالفة للعادة في الحالتين ، وهذه كلها دلائل على صدق رسالته .

وقد ذهب الناظم في تفسير هذه الظاهرة إلى علة طريفة حيث جعل إلانة الصخور مبعثها استحياء تلك الصخور منه عليه السلام ، فأنت أيها العاقل أولى بهذا الاستحياء منه ، فلا تخالف ما أمر به . ولا ما نهى عنه وحياً من ربه أو توجيهاً استنبطه هو من روح ذلك الوحي .

واستطرد يقول : إن تلك القدم عندما تمس أخمصه تراباً لو فرض أن ذلك التراب الذي وطئته قدماه الشريفتان أصابه حالة كونه في مضجعه ، وقد أخشوشن تحته لما يجول بخاطره من هموم لكان في تلك الإصابة صون لقلبه من تلك الهموم ، ولحفظ قلبه من الزيغ والخواطر السيئة ثم يقول : ولطهارة تينك القدمين شرف الله بهما الحرمين العظيمين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، أي كل موضع عظيم حظي بممشاه . . وسكت عن المسجد النبوى أحد المساجد الثلاثة المقدسة في الإسلام لأن ذلك لا يحتاج إلى نص ضرورة . يقول عليه السلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى» ولا يرى مؤمن جرماً في هذا التوجيه من أن الأماكن المقدسة في الإسلام كلها حظيت بممشاه . . والإمام مالك إمام دار الهجرة يحكي أنه لم يكن يمشي في المدينة منتعلا وحين سئل قال ما معناه : لا أمشي منتعلا على أرض شرفها الله بوطء قدميه ﷺ ، وهذه كلها مشاعر نبل في تكريم صاحب الرسالة من محبيه وتابعيه .

ثم أشار الناظم إلى ماهو معروف من تورم قدميه عليه السلام من قيامه الليل عابداً متبتلا مناجياً وشاكراً. بيد أن الناظم سلك مسلكا بلاغياً بديعاً في بيان هذه الخصيصة. فقال إن قدميه ورمتا لما رمى بهما ظلام الليل ، لأن النائم يظل في ظلمات الغفلة ، أما القائم العابد فإنه يحيل بعبادته وذكره ربه ظلام الليل إلى نور ، فكأنه عليه السلام قذف ظلام الليل بقيامه فيه فأشرق نور الصلة بالله يملأ قلبه ووجدانه ففي التعبير مجاز تمثيلي أو استعارة مكنية ، وكلاهما يؤدي إلى المقصود وأشار الناظم بقوله : « إلى الله خوفه والرجاء» إلى أن الرسول عليه السلام لم يكن في قلبه ولا لأحد إلا الله يرجوه ويخشاه ، والرجاء والخشية أبرز صفات عباد الله العارفين .

ثم قال ﷺ :

قدم هي قطب الدائرة

دميت في الوغى لتكسب طيباً	ما أراقت من الدم الشهداء
فهي قطب المحراب والحرب كم دا	رت عليها في طاعة أرجاء
وأراه لو لم يسكن بها قبـ	ـل حراء ما جت به الدأماء
عجباً للكفار زادوا ضلالا	بالذي فيه للعقول اهتداء
والذي يسألون منه كتاب	منزل قد أتاهم وارتقاء
أو لم يكفهم من الله ذكر	فيه للناس رحمة وشفاء
أعجز الإنس آية منه والجن	فهلا تأتي بها البلغاء[1]

وهنا مشهد جديد من خصائص القدم الشريفة ، فهي إن تورمت في محراب العبادة فكانت مضرب المثل في الخوف والرجاء ، فقد دميت في ميادين القتال سعياً وراء شرف الشهادة في سبيل الله ، ولتريق من الدم الطيب ما أراقه الشهداء المكرمون عند ربهم ، لذلك كانت قدمه عليه السلام قطب الدائرة ومركزها التي تنبعث منه أصول الحركات ، وتعود إليها ، سواء في محاريب العبادة ، أو ساحات القتال ، وإدماء قدمه الشريفة وقع عندما يئس عليه السلام من أهل مكة فأخذ يعرض نفسه على القبائل ومنها ثقيف التي أغرت به عبيدها وسفهاءها فرموه بالحجارة حتى أدموا قدميه ، فلجأ عليه السلام إلى ظل شجرة وأخذ يدعو ويقول : « اللهم إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي » وهدى الله من العرب قبائل كثيرة ارتضوا بالله ربا ، وبالإسلام ديناً . وبمحمد رسولاً ، فلزمت طاعة الله ورسوله وأدارت تلك القبائل شئون دنياها ودينها على توجيهات ذلك القطب أو المركز والاستفهام في قوله « كم دارت عليها » للكثرة والتعدد .

ثم أردف الناظم صورة خيالية مفترضة ، حيث قال إن تلك القدم لو لم يحدث لحراء الذي كان يتعبد فيه النبي عليه السلام قبل البعثة تثبيت فيها لاضطرب حراء

---

(١) الوغى : الحرب ، قطب : مركز، المحراب والحرب : مقرالعبادة والقتال أرحاه : جمع رحى والمقصود منه هنا : القبائل ما جت : تحركت ، الدأماء : البحر ذكر : القرآن الكريم ، البلغاء : العارفون كيف يكون الكلام .

وماج تحت قدمي الرسول كما يموج البحر هيبة منه ، أو فرحاً به لكن تثبيته بتلك القدم الثابتة حال بينه وبين الاضطراب ، هذا ما أراد أن يقوله الناظم ولعلك توافقني في تسمية هذه الصورة بأنها خيالية مفترضة والناظم يلجأ إلى مثل هذه الصورة في مواضع متعددة ، منها ما تقدم من تثبيت قلبه بالثرى الذي وطئه الرسول عليه السلام لو فرض أنه أصابه فلنمر عليها مرور الكرام بعد إيضاح المراد منها . فإن للناظم عذره الذي قدمناه .

مع هذه الدلائل الناطقة بصدق الرسالة يلوي الكفار أعناقهم عنها . ولذلك فإن الناظم يتعجب من شأنهم . كيف يزدادون ضلالا في ساحات النور ومجالي الهدى .

أو لم يطلبوا منه أن يأتيهم بكتاب من عند ربه ليؤمنوا به . فها هو ذا الكتاب قد أتاهم فيه هدى لهم ورقى . فلماذا لم يؤمنوا ، وما الذي ينتظرون بعد إنزال الكتاب بالحق . أيطلبون منه أن يروا الله جهرة حتى يؤمنوا كما طلب بنو إسرائيل من موسى عليه وعلى نبينا ألف صلاة وسلام . ولم يكفهم هذا الذكر الخالد الذي فيه شفاء للناس ورحمة . . وقد امتحنوا أنفسهم أمامه فأيقنوا أنه من عند الله . لعجزهم عن الإتيان بمثله ما أضل هؤلاء القوم الذين أضلهم الله على هدى . فقامت حجته عليهم . وقطعت معاذيرهم . تعس من هذا شأنه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ (الحج:٨).

ثم قال ﷺ :

بلاغة حديثه

كل يوم يهدي إلى سامعيه	معجزات من لفظه القراء
تتحلى به المسامع والأفـ	ـواه فهو الحلى والحلواء
رق لفظاً وراق معنى فجاءت	في حلاها وحليها الخنساء
وأرتنا فيه غوامض فضل	رقة من زلالة وصفاء
إنما تجتلي الوجوه إذا ما	جليت عن مرآتها الأصداء
سور منه أشبهت صوراً منـ	ـا ومثل النظائر النظراء[1]

---

(١) تتحلى : تتزين . الحلي : الزينة . الحلواء : الحلاوة المطعومة رق : حسن راق : صفا . الخنساء : هي ابنة عمر وكانت مثالا فذا في البهاء والحسن . الزلال : الماء الصافي العذب . تجتلي : تكشف الأصداء : الحجب والستر والرفعة لوضوح الرؤية .

هذا المشهد خاص بالوصف الإجمالي لخصائص القرآن الكريم . يقول إن قراء القرآن يهدون كل يوم إلى سامعيه معجزاته من جهة لفظه بما له من حلاوة في السمع . وإبهاج للنفس . كل من المسامع والأفواه تتحلى به وبقراءته فهو في الأسماع حلي وفي الأفواه حلاوة . وإنما خص المسامع بالحلي وهي الزينة من الذهب لأن المسامع كثيراً ما تتزين بها ولذلك كانت العرب تكنى عن المرأة الطويلة بأنها بعيدة مهوى القراط . والقرط حليه تضعها المرأة في أذنيها جاء ذلك في قول الشاعر يهدد امرأته بالتزويج عليها :

أكلت دما إن لم أرعك بحرة   بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

وخص الأفواه بالحلواء : لأن التذوق لا يكون إلا بالفم . فالقرآن حلي في الآذان ، وحلاوة في اللسان . وهذا التعبير يسمى عند علماء البديع بحسن التقسيم حيث ذكر الناظم المسامع والأفواه وأعاد على ما يناسبه من الحلي والحلواء ، وفيه أيضاً اللف والنشر المرتب . ووصف الناظم ألفاظ القرآن بالرقة والمقصود منها خلو ألفاظه من العيوب اللفظية كالتنافر والغرابة والتعقيد يعني أن لفظ القرآن جميل حسن شبيه بالمرآة في صفائها ورونقها كما وصف معانيه بالروق وهو صفاء المعاني وسلامتها من العيوب التي تعتري المعنى . فمعاني القرآن شريفة آسرة فيها للعقول إقناع . وللنفوس إمتاع .

وقد شبه الناظم القرآن في صفائه وحسن بهائه ورونقه بالمرأة المجلوة التي اكتملت لها مقومات الجمال الحسي المقابل للألفاظ والمعنوي من طهارة السيرة ، ونبل السلوك ليقابل بذلك معاني القرآن الكريم فيما ثبت لها من القوة والشرف الرفيع . ومهما كان الأمر فإن هذا التشبيه في النفس منه شيء لأن حسن المرأة حسياً كان أو معنويا فهو زائل منقطع ، أما مدد القرآن وفضله فقائم لا انقطاع له ولا زوال . فليس بين طرفي التشبيه مناسبة قوية تقتضي عقد تمثيل بينهما . وصدق من قال : إن كل قائل يؤخذ من قوله ويرد إلا الله وحده . فكلامه هو المعجز الذي هو بلاغة كله من « الحمد » في فاتحة الكتاب إلى « الناس » في ثانية معوذتيه .

ويقول الناظم إن تلك الرقة في ألفاظه كشفت لنا عن غوامض معانيه التي يكون لها عند التذوق من الاستطابة والروح ما للماء العذب الزلال الصافي النمير من طعم

شهي المذاق ، طيب الأثر . ولا جرم فإن الوجوه لا ترى بكمال حسنها إلا إذا صفت مرآتها من المكدرات والحجب الموانع فصفاء أسلوب القرآن أبان لنا عن صفاء معانيه فياله من حسن كشف حسنا فأمتعنا الحسنيان .

إن سور القرآن إن أردت لها مثالا حسياً يقرب لك كنه حسنها وصفائها فانظر إلى أحلى صورة فنياً وأزكاها وأنقاها فهي شبيه بها . صفاء يشرح لك صفاء مع بعد ما بين الصفائين لأن النظائر تقاس بنظائرها .

وأعود فأقول ما قلته في التشبيه الأول . إن هذا التشبيه في النفس منه شيء . فلا يقاس جمال القرآن بجمال الصور المرئية مهما علا قدرها .

ثم قال ﷺ :

الحديث عن القرآن

والأقاويل عندهم كالتماثيل ... فلا يوهمنك الخطباء

كم أبانت آياته من علوم ... عن حروف أبان عنها الهجاء

فهي كالحب والنوى أعجب الزر ... اع منه سنابل وزكاء

فأطالوا فيه التردد والريـ ... ـب فقالوا : سحر وقالوا افتراء

وإذا البينات لم تغن شيئا ... فالتماس الهدى بهن عناء

وإذا ضلت العقول على علـ ... ـم فماذا تقوله النصحاء[1]

بهذا المقطع ينهي الناظم حديثه عن القرآن ، فيبين في البيت الأول أن الكفار روجوا أكاذيبهم عن القرآن المصون وزخرفوها كما تزخرف الصور والتماثيل ونحوها بطلاء من المعادن النفيسة كذباً وبهتاناً ، فإذا علمت ذلك فلا تنخدع بما يقوله خطباء الفتنة منهم فإنهم إنما يصدون عن سبيل الله والقرآن فيه حاميه من أباطيلهم ، فهو قد كشف عن كثير من العلوم والهدايات أو ضمتها آياته البينات المؤلفة من حروف تكفل ببيانها علم الهجاء فهو مؤلف من جنس كلامهم ومع هذا فقد أعجزهم في طريقة بيانه ونظمه الحكيم ، فالمادة المصنوع منها القرآن ، والمصنوع منها

---

(١) الأقاويل : جمع قول ، والتماثيل : جمع تمثال ، والوهم : الخداع ، الزكاء : النمو ، الريب : الشك ، افتراء : كذب ، التماس : طلب ، عناء : مشقة .

كلامهم واحدة في الأصل ومع هذا اختلفت الصور ، وهذا هو سر الإعجاز في أجمل معانيه .

وأراد الناظم أن يبين بعض خصائص أسلوب القرآن فقال إن آياته كالحب الذي يبذره الباذرون وكنوى الأشجار التي يغرسها الغارسون فآي القرآن دائماً تعطي معاني أكثر من ألفاظها وكذلك الحبة الواحدة تبذر فتتولد منها سنبلة فيها عشرات الحبات ، والنواة تغرس فتنبت شجرة تثمر مئات المرات خير مضاعف في الزرع والغرس ، ومعان مضاعفة في آيات القرآن وقد أحسن الناظم في هذين التشبيهين وأجاد وكم له من إحسانات وإجادات في مجال الكشف والإيضاح والبيان .

ومع هذا الوضوح في جانب القرآن فإن الكفار ما زادهم طول التأمل فيه إلا صدوداً ونفوراً ، فلما رأوه فوق ما يعرفون زين لهم شياطينهم أن يصفوه بالسحر ، والسحر ينسب إليه كل خارق للعادات وقوانين العقول ، وفي هذا الوصف حجة عليهم لأنه نابع عن إحساس نفس صادق بأن القرآن فيه غرابة غير مألوفة عندهم ، ولكنها غرابة الإعجاز وليست غرابة الخرافات والأساطير ، ثم زين لهم شياطينهم أن يصفوه بأنه افتراء وكذب . والافتراء والكذب هو أن يقال إنه افتراء وكذب!

هؤلاء قوم لم تنفع معهم الآيات ولا النذر ، فضلوا مع قرب أسباب الهداية منهم ، ومن كان هذا شأنه فداؤه عضال فالمرض المستعصي لا يشفيه إلا الموت . والذي يضل على علم لا يثمر فيه وعظ واعظ ولا نصيحة أمين .

وذلك لأن سنة الله أن يبين للناس طريق الهدى فمن أقبل عليه هداه ، ومن أعرض عن الهدى ومال عنه عاقبه بالإضلال مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (الصف:٥) والآن فنحن على موعد مع الناظم في حوار ممتع مقنع مختلف الألوان والطعوم . ممتع لأنه حوار أدبي مشرق المعرض عامر بالشعور الفياض والتصوير البديع ومقنع لأنه جمع بين قوة البيان ومنطق العقل والحس والوجدان . كان فيه الناظم أديباً مرهف الذوق ، ومجادلا قوي البرهان ، فقد شبه أهلي الكتابين : اليهود والنصارى ، فما ترك حجة إلا أقامها عليهم ، وما ترك شبهة لهم إلا أزالها كما يزيل الصبح عواشي الظلام ، فلنعش مع هذا الحوار الممتع المقنع داعين للناظم بحسن المثوبة بقدر ما دافع عن الحق ومن أجل الحق .

يقول ﷺ :

حوار مع النصارى

قوم عيسى عاملتم قوم موسى بالذي عاملتكم الحنفاء

صدقوا كتبكم وكذبتم كتبهم إن ذا لبئس البواء

لو جحدنا جحودكم لاستوينا أو للحق بالضلال استواء[1]

هذه الأبيات الثلاثة بمثابة المطلع للحوار المذكور وفيها يخاطب الناظم قوم عيسى عليه السلام وهم النصارى فيقول لهم إنكم عاملتم قوم موسى عليه السلام وهم اليهود معاملة المسلمين لكم : لأن النصارى يؤمنون بالتوراة التي هي كتاب قوم موسى ويثبتونها عندهم في الكتاب المقدس معنونين لها بـ « العهد القديم » وقوم موسى لا يؤمنون بالإنجيل الذي هو كتاب قوم عيسى وهو يمثل القسم الثاني في الكتاب المقدس ، ويعنونون له بـ « العهد الجديد » هذه المعاملة التي عامل بها قوم عيسى قوم موسى شبيهة بمعاملة المسلمين لقوم عيسى : لأن المسلمين يؤمنون بالإنجيل على الصفة التي نزل بها على عيسى عليه السلام كما يؤمنون بالكتب المنزلة كلها ، ومع هذا فإن قوم عيسى يكفرون بالقرآن الذي هو كتاب المسلمين ، فتأمل ضلال هذا السلوك وخطئه ، يؤمنون بكتاب من كفر بإنجيلهم ، ويكفرون بكتاب من آمن بكتابهم ، وكان مقتضى قاعدة « المعاملة بالمثل » أن يكفر النصارى بكتاب من كفر بكتابهم ويؤمنون بكتاب من آمن بكتابهم ، والضمير في البيت الثاني في قول الناظم « صدقوا » عائد على الحنفاء الذين هم المؤمنون المسلمون يعني أن المسلمين صدقوا بكتابكم الإنجيل وأنتم كذبتم بكتابهم القرآن وكان إلى أن يسلكوا هذا المسلك مع اليهود ، ولذا يعلق الناظم على مسلك النصارى بقوله : « إن ذا لبئس البواء » أي الصنيع لما فيه جور وضلال عن الحق .

ثم يخاطب الفريقين معاً اليهود والنصارى فيقول : لو أنكرنا كتب الله المنزلة كما أنكرتم أنتم لكنا متساوين في الضلال . . ولكن كيف يكون منا نحن ـ المسلمين ـ

---

(١) قوم عيسى : النصارى وهم هنا منادى محذوف الأداة ، قوم موسى : اليهود ، الحنفاء : المسلمون ، البواء : الصنيع ، جحدنا : أنكرنا على علم .

سبيل إلى ذلك الجحود المتعمد والنكران الشنيع ، لأننا مهتدون ، وأنتم ضالون والاهتداء والضلال لا يستويان ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ (القلم: ٣٥-٣٦)؟

ثم قال ﷺ :

وحوار مع أهل الكتابين

مالكم أخوة الكتاب أناساً	ليس يرعى للحق منكم إخاء
يحسد الأول الأخير وما زال	كذا المحدثون والقدماء
قد علمتم بظلم قابيل هابيـ	ـل ومظلوم الإخوة الأتقياء
وسمعتم بكيد أبناء يعقو	ب أخاهم وكلهم صلحاء
حين ألقوه في غيابة جب	ورموه بالإفك وهو براء
فتأسوا بمن مضى إذ ظلمتم	فالتأسي للنفس فيه عزاء
أتراكم وفيتم حين خانوا	أم تراكم أحسنتم إذ أساءوا
بل تمادت على التجاهل آبا	ء تقفت آثارها الأبناء[1]

يمضي الناظم في حوار أهل الكتاب فيقول لهم : ما الذي دهاكم قصرتم جماعة لا ترعى الحق ، ولو رعيتموه لما كان لكم من اتباع محمد عليه السلام والتصديق به مناص ، لأن كتبكم التي أنتم مؤمنون بها قد نصت على نبوته ، ففي الكفر بمحمد عليه السلام كفر منكم بما أنزل إليكم لو كنتم تتدبرون الحق وتزعنون له . ولكنكم اتبعتم سنة خاطئة ، وطريقة جائرة هي أن كل سابق متقدم يحدث الذي يأتي بعده كأن الأول يريد أن يستأثر بالمزايا والفضل ، وهي طريقة معروفة من قديم الزمان . فولد آدم قابيل وهابيل حسد أولهما (قابيل) ثانيهما (هابيل) وهابيل أصغر سناً من قابيل . والمظلوم دائماً هم الأتقياء لأنهم يصبرون علي أذى معاديهم ولا يجزون السيئة بالسيئة . بل بالحسنة وإخوة يوسف الأكبر سناً منه حسدوا يوسف وأرادوا التخلص منه حتى لا يستأثر بحب أبيهم - يعقوب - من دونهم فألقوه في الجب

---

(١) مالكم : أي شيء ثبت لكم ، أخوة الكتاب : اليهود والنصارى . أناسا : حال ، إخاء : مراعا ، ووفاء قابيل وهابيل : ولدا آدم عليه السلام ، غيابة : قعر بئر . الإفك : الكذب ، براء : برىء ، تأسوا : اقتدوا، تمادت : تطاولت : تقفت : تتبعت .

واتهموه بالسرقة إفكاً وبهتاناً فقالوا فيما يحكيه عنهم القرآن ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ يريدون يوسف ، وهم يعلمون أنه لم يسرق مالا ولا متاعاً وإنما سطا على صنم لجده فأخذه وحطمه فسموا ذلك سرقة وعيروه بها وهو بريء مما يقولون ، وقد أشار الناظم بقوله : «وهو براء» إلى أن ما نسبوه إلى يوسف ليس سرقة كما تفوهوا به ، وإنما هو حقد الأول على الأخير والقديم على المحدث .

ثم انتقل الناظم من خطاب أهل الكتاب إلى خطاب المسلمين فقال ناصحاً لبني عقيدته عليكم بالتأسي والاقتداء بمن سبقكم من أولي الفضل والكمال فيه حين وقع عليهم الظلم من ظالميهم . وها أنتم قد ظلمتم من أهل الكتابين فليس لكم إلا التأسي فإن فيه للنفس عزاء وصبراً وعونا على تحمل الأذى فلا يدفعون السيئة بالسيئة ، والله يفصل بين عباده يوم يقوم الحساب ، وليس في هذه الدعوة أمر بالاستكانة والضعف وإنما المراد أن يصبح الخلاف في العقيدة طريقاً لإثارة الأحقاد والفتن التي كثيراً ما يتولد عنها الحرب والدمار . من أجل ذلك نهانا الله عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن فقال سبحانه ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾
(العنكبوت:٤٦)

وأهل الكتاب لا يرونكم ـ معشر المسلمين ـ أوفياء بالأمانة حين خانوها هم حيث آمنتم بكل الرسل ، وتعصب كل منهم لرسول . ولا يرونكم كذلك محسنين في الاعتقاد والعمل المطابق لمنهج الحق حين أساءوا هم في العقيدة والسلوك . لقد ورث الأبناء الحقد عليكم من الآباء وتناقلوا ذلك جيلا بعد جيل . فلا أمل في الوفاق ، فليعمل كل على شاكلته وإلى الله ـ وحده ـ الحكم وفصل الخطاب .

هنا وقد حفل هذا الفصل بكثير من صور البديع ، ففيه تجاهل العارف في قوله ما لكم إخوة الكتاب؟ والطباق بين الأول والأخير ، والمحدثون والقدماء . ووفيتم وخانوا ، وأحسنتم وأساءوا والآباء والأبناء .

ثم قال ﷺ :

بينته توراتهم والأناجيـ	ـل وهم في جحوده شركاء
أن تقولوا ما بينته فما زا	لت بها عن عيونهم غشواء
أو تقولوا قد بينته فما للأذن	عما تقوله صماء . ؟

عرفـــوه وأنكـــروه وظلمـــاً   كتمتـــه الشـــهادة الشـــهداء(١)

وأسفاه إن الحق الذي أنكروه هو ما نصت عليه التوراة والإنجيل يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ومع هذا فقد اشترك أهل الكتابين في التكذيب به . فقد أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق أن عبد الله بن سلام اليهودي جاء إلى النبي عليه السلام وكان ابن سلام عالم يثرب فقال له عليه السلام : أتجدني في التوراة؟ قال ابن سلام : أنسب ربك . فقرأ ﷺ سورة : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ فقال ابن سلام : أشهد أنك رسول الله وأن الله مظهرك ومظهر دينك على الأديان . . وإني لأجد صفتك في التوراة : «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . أنت عبدي ورسولي . سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ، ولا تجزي بالسيئة مثلها بل تعفو وتصفح ولن يقبضك الله حتى تستقيم الملة العوجاء وحتى يقولوا لا إله إلا الله . يفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً» قال البيهقي وأبو نعيم عن كعب ، والإمام البخاري عن عمرو بن العاص ﷺ نقلا عن التوراة والإنجيل مثل ذلك .

وفي القرآن الكريم :﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

(الأعراف:١٥٧)

فقد ثبت يقيناً لا ريب فيه أن رسالة محمد عليه السلام واردة وروداً قطعيًا في التوراة والإنجيل فلا عذر لأهلي الكتابين في إنكاره . ولذا فإننا نجد الناظم يناظرهم مناظرة مفحمة فيقول :

إذا قلتم أن التوراة والإنجيل لم تنصا على هذه الرسالة قلنا لكم إن أعينكم بها غشاوة وعمى فلم تستهدوا إلى مافي الكتابين . وإذا قلتم أنهما قد نصتا عليها قلنا لكم قد لزمتكم الحجة فلماذا إذن تصمون آذانكم عما جاء في كتابكم؟ فماذا عساهم قائلون إلا أن يعترفوا بجحودهم وأنهم كتموا شهادة هم بها عالمون ؟

---

(١) غشواء وغشاوة : غطاء وحجاب صماء : لا تسمع ، عرفوه وأنكروه عرفوا الحق وهو صحة رسالة محمد عليه السلام . الشهداء ، العالمون .

ثم قال رضي الله عنه :

أو نـــور الإلـــه تطفئـــه الأفـــ ـــواه وهو الـــذي بـــه يستضـــاء
أولا ينكـــرون مـــن طحنتـــهم برحاهـــا عـــن أمـــره الهيجـــاء
وكساهم ثوب الصغار وكم طلـ ـــت دما منهم وصـــينت دمـــاء
كيـــف يهـــدي الإلـــه قلوبـــاً حشوها من حبيبـــه البغضـــاء[1]

يسخر الناظم من محاولات أهل الكتاب لطمس الحق وهو شريعة الإسلام وقد عبر عنه بالنور على المجاز الاستعاري وأضافه إلى «الله» لأنه منزله مقتديا في ذلك بالقرآن الكريم شبه الحق بالنور وشبه محاولات طمسه بالإطفاء استعارة تصريحية تبعية وقد قوت هذه الاستعارة ورشحت المجاز السابق عليها . وفى التعبير بالأفواه إشارة إلى أن محاولات أعداء الإسلام كيدها ضعيف مثل النفخ بالأفواه إن كان النفخ في شفاء لحقودهم . كما يدل هذا التعبير عن معنى آخر وهو أن أهل الكتاب يعلمون تمام العلم صحة رسالة محمد عليه السلام ونكرانها لا يعدو النطق باللسان ، مصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾(النمل:١٤).

هذا صنيع أهل الكتاب مع الإسلام ورسوله وتابعيه ، وكان الأولى أن يرجعوا عن ضلالهم ولا يستمرون على ادعاء أنهم أحقاء وهم مبطلون . وكان الأولى بهم أن يتعظوا بمن أهلكتهم حرب رسول الله ﷺ وهم اليهود حين أجلاهم عن المدينة قبيلة بعد قبيلة حين خانوا العهود وأظهروا حقدهم على الإسلام وأهله . وألبسهم ثوب الذل والهوان . وفى هذا التعبير بلاغة آسرة اقتدى الناظم فيها بالبيان القرآني حيث استعار الثوب للصغار والهوان وجعله ملبوساً لهم ليفيد أن الهوان أحاط بهم من كل جانب كما يحيط الثوب بلابسه . ورشح هذه الاستعارة بقوله «وكساهم» لأن الكسوة من خصائص الثوب . أو لا يتذكر هؤلاء السادرون في غيهم كثره الدماء التي أهرقت في تلك الحروب وهي دماء أعداء الحق والدماء التي صينت وحفظت دماء أنصار الحق ،

---

(١) أو : الهمزة للاستفهام والواو عاطفة . الهيجاء : الحرب . الصغار الذل والهوان . طلت : ذهبت هدراً . حشوها : ماؤها .

لأن الله معهم ينصرهم ويجعل لهم الغلبة على أعدائهم : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

(الصافات: ١٧١-١٧٣)

هذه آيات لم يتأملوها . وعظات عصبوا عنها عيونهم فماذا هم منتظرون أينتظرون هداية الله لهم . وكيف يهدي الله قوما جعلوا حشو قلوبهم كره رسوله والحقد الدفين عليه . الاستفهام في صدر البيت الرابع للاستبعاد والتعبير بالقلوب مجاز مرسل علاقته الجزئية لأن المعنى كيف يهدي الإله أناساً، وإنما خص القلوب لأنها موضع الاعتقاد. وقد شبه القلوب بأجربة وشبه ما فيها من عقائد فاسدة . وأحقاد دفينة بالحشو الذي يملأ به الجراب وبين أن ذلك الحشو من جنس البغضاء . فالتشبية في القلوب استعارة مكنية حيث أثبت لها لازم المشبه به وهو الحشو . وهذه الاستعارة مجردة لأن قوله «البغضاء» من ملائمات القلوب لا من ملائمات الأجربة التي هي مشبه بها . وهذا التجريد لاينقص من قوة الاستعارة بل زادها قوة إذ لا شيء في قلوبهم سوى البغضاء.

وقال ﷺ :

أمر للتعجيز والتوبيخ

خبرونا أهل الكتابين من أيـ	ـن أتاكم تثليثكم والبداء
ما أتى بالعقيدتين كتاب	واعتقاد لا نص فيه ادعاء
والدعاوى ما لم تقيموا عليها	بينات أبناؤها أدعياء[1]

فيما مضى ناقش الناظم اليهود والنصارى في موقفهم من الإسلام ثم عاد يناقشهم في أصل عقائدهم فقال : يا أهل الكتابين أقيموا لنا الدليل على صحة معتقداتكم وأنتم يا معشر النصارى من أين جاءكم أن الله ـ سبحانه ـ مكون من ثلاثة أجزاء ، الأب والابن والروح كما تقولون تعالى الله عما تقولون علواً كبيراً . وأنتم يا معشر اليهود من أين جاءكم هذا البداء الذي بنيتم عليه مبدأ عدم النسخ في الشرائع . فتقول

---

(١) خبرونا : أعلمونا علما يقينيا . التثليث : دعوى النصارى أن الله ثالث ثلاثة . البداء : ظهور شيء بعد خفائه . ادعاء: كذب . أدعياء مزيفون ينتسبون لغير آبائهم .

لو نسخ الله شريعة بأخرى للزم من ذلك أنه كان يجهل مصلحة ، ثم بدت له تلك المصلحة بداء فألغى الأولى من أجل الثانية . تريدون من ذلك أن تنفوا رسالة عيسى ، ورسالة محمد عليه السلام بناء على ما بدا لكم من بداء ماهو إلا محض افتراء ووهم لا وجود له إلا في باطلهم ولهذا يجمع الناظم الخصوم فيقول :

ما أتى بالعقيدتين كتاب　　واعتقاد لا نص فيه ادعاء

فقد خلا الكتاب التوراة والإنجيل من بداء اليهود ، وتثليث النصارى والاعتقاد لابد فيه من النص ولا يكفي فيه التخمين وكل اعتقاد خلا من النص فهو ادعاء لا صحة له . إن ما ذكرتموه يا أهل الكتابين دعاوى وهي لا تثبت إلا بدليل وبينة . وكل دعوى خلت من البينة فنتائجها مردودة لأنها محض افتراء لا أصل له . مزيفة مثل زيف الدعي الذي ينتسب إلى غير أبيه هذه المعاني تضمنها بيت الناظم الذي صار مثلا يضرب على ألسنة الخطباء والمتناظرين :

والدعاوى مالم تقيموا عليها　　بينات أبناؤها أدعياء

وقد شبه الدعاوى بالأمهات على طريق الاستعارة المكنية حيث أثبت لها ما للأمهات من الأبناء . وشبه نتائج الدعاوى بالأبناء . على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية . ثم رشح الثانية بقوله «أدعياء» لأن هذا الوصف من خواص الأبناء لا النتائج.

هنا وقد وقع هذا البيت تأكيداً وتقريراً لشطر البيت الثاني الذي قبله . وهو : «واعتقاد لا نص فيه ادعاء» وهذا الشطر بدوره استئناف تعليلي لما قبله .

ثم قال رضي الله عنه :

الواحد لا يكون ثلاثة؟!

ليت شعري ذكر الثلاثة والوا　　حد نقص في عدكم أن نماء[1]

كيف وحدتم إلهاً نفى التو　　حيد عنه الآباء والأبناء

أإله مركب ما سمعنا　　بإله لذاته أجزاء

---

(١) ليت شعري : ليتني أعلم . نماء : زيادة ولينها الطباق نفى . استبعد والاستفهام في الموضعين الأخيرين للإنكار .

هذا شروع من الناظم في محاجة النصارى . يقول لهم ليتني أعلم أحين تقولون إن الله ثالث ثلاثة أيكون التوحيد في عقيدتكم نقصاً؟ وحين تقولون إله واحد أيكون التثليث زيادة . وكيف يكون ثلاثة ويكون واحداً في آن . أليس هذا تناقضاً لم يأت به وحي ، ولا يقبله عقل . وكيف ساغ القول لكم بالتوحيد وقد نفاه الآباء والأبناء؟ ثم استنكر هذا الباطل فقال أيصح في العقول أن إلهاً يكون مركباً من أجزاء مهما كان عددها ثلاثة أو أقل أو أكثر . لا . لا يصح هذا في العقول ولا سمعنا به من عقلاء .

وفي قول الناظم : نفي التوحيد عنه الآباء والأبناء حجة قوية طريفة جمعت بين القوة والطرافة في لمحة آسرة تحمد للناظم وثاقب فكره : لأنه دلل بها على أن قضية التثليث تحمل في تركيبها دليل نقضها وبطلانها . وذلك لأن النصارى يقولون : الأب والابن وروح القدس إله واحد . لكن عند التأمل نجد ذكرهم الأب ثم الابن يناقض توحيد النصارى الذي أثبتوه في آخر القضية وهذا هو معنى قوله : «الآباء والأبناء» وإنما عزا نفي التوحيد إلى الأب والابن المعبر عنهما بالآباء والأبناء دون روح القدس لأن نفى الوالدية والمولودية هو المنصوص عليه في القرآن الكريم في سورة الإخلاص ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فلم يلد لنفي البنوة ، ولم يولد لنفي الأبوة . وإذا حذف الأب والابن من القضية أصبحت : «روح القدس إله واحد» وهي كلمة ، لا تثليث فيها . فتأمل معي أيها القارئ دقة الناظم وقوة استدلاله وطرافة بيانه !

ثم قال رضي الله عنه :

الكل منهم نصيب من المُلـ	ـك فهلا تتميز الأنصباء
أتراهم لحاجة واضطرار	خلطوها وما بغى الخلطاء
أهو الراكب الحمار فياعجـ	ـز إله يمسه الإعياء
أم جميع على الحمار لقد جـ	ـل حمار بجمعهم مشاء[1]
أم سواهم هو الإله فما نسـ	ـبة عيسى إليه والانتماء
أم أردتم بها الصفات فلم خصـ	ـصت ثلاث بوصفه وثناء

---

(١) تتميز . تتضح . بغى : ظلم . الخلطاء . الشركاء . الإعياء : التعب . جل : عظم . مشا : سائر . الانتماء . الاتصال .

يستكمل الناظم محاجته للنصارى فيقول : دلونا على نصيب كل واحد من الثلاثة الذين زعمتم في الملك . فإن قلتم إن لكل منهم نصيب قلنا لكم فلماذا لم تتميز تلك الأنصباء . لنعلم ماهو خاص بكل إله . فإن قلتم خلطوها قلنا لكم وما الداعي لهذه الخلطة ألعجز فيهم يستفيد كل منهم بقوة الآخر؟ فإن قلتم نعم . قلنا لكم كل شيء من ثلث عجزه فليس بإله فإن قلتم خلطوها لغير عجز قلنا لكم هذا محال لأن الشركة الدائمة ينتج عنها الخلاف بين الشركاء ولأن الخلط عمل وكل عمل خلا من القصد فهو عبث والعبث على الإله محال فباطل كل ما تدعون . ثم أليس عيسى عليه السلام في زعمكم أحد أجزاء الإله وعيسى كان يركب الحمار فلو كان إلهاً لما احتاج إلى ركوب الحمار ، لأن الإله الذي يحتاج إلى الركوب إله عاجز وإن قلتم إن الثلاثة هم الذين كانوا على الحمار قلنا لكم ما أعظم الحمار الذي يحمل الآلهة الثلاثة . وما أحقر الآلهة الذين يحملهم حمار ويسير بهم . وإن قلتم سواهم هو الإله قلنا لكم لقد ناقضتم أنفسكم . ثم ما نسبة عيسى عليه السلام إلى ذلك الإله ، وهل تلك النسبة تقتضي التثليث ، وهذا يرفضه كل عاقل . فوجب التوحيد الحق من حيث لا تريدون .

وإذا قلتم أردنا بذلك التعدد في الصفات لا في الذوات قلنا لكم هذا مردود لأن الذوات على زعمكم الباطل متعددة . وحتى لو سلمنا لكم بهذا فلماذا خصصتم الصفات بثلاث . فلله أوصاف خلاف ماقلتم لا يحدها الثلاث ولا الثناء . فما قولكم هذا إلا تحكم باطل لا يصح من عاقل التفوه به . بله اعتقاده فالحجة قائمة عليكم كيفما قلتم .

لقد برع الناظم في مناظرة الخصم ، واعتمد في رد شبههم على أسس عقلية سليمة كان فيها أصوليا متكلما صادق الفهم ناصع البرهان ، أديب التعبير فصيح البيان . وقد صاغ محاجته في تسلسل حكيم مقنع ومؤثر ومما يحمد له في هذه المناظرة أنه حين يحتاج إلى دليل نقلي نراه يحيل ذلك الدليل إلى النقل الذي يؤمن به الخصم ليكون ذلك ألزم له في إقامة الحجة عليه سواء اشتركت مصادرنا الإسلامية في ذلك أم انفردت به مصادرهم . ويمضي الناظم على هذا المنوال فيما بقي له من حجاج .

وقال رضي الله عنه :

أم هـو ابـن الله مـا شـاركته ... في معـاني النبـوة الأنبيـاء
قتلتـه اليهـود فيمـا زعمـتم ... ولأمـواتكم بـه إحيـاء
إن قولا أطلقتمـوه علـى اللـ ... ـه تعالى ذكرًا لقـول هـراء[1]

ينهي الناظم حجاجه مع النصارى فيقول : أم تزعمون أن عيسى عليه السلام ابن الله اختصه الله بالبنوة ولم يشرك معه في هذه الصفة أحداً إن قلتم هذا فبئس ما تقولون . فعيسى عليه السلام لؤلؤة في « نظم » قبله لآلئ لا يعلم عددها إلا الله ، وبعده لؤلؤة فريدة جمعت كل ما تفرق من حسن فيما سبقها من لآلئ . فليس ببدع من الرسل فله إخوة كثيرون . فلم تخصونه بالبنوة فيما تعتقدون . وكيف تدعون أن اليهود تمكنوا من قتله فقتلوه وأنتم تعلمون أنه كان يحيي موتاكم بإذن الله . إن هذا دليل على سخف عقولكم وضعف إدراككم . وأشنع من هذا أن تظلوا متمسكين بأنه ابن الله وأنه إله . وهل نما إلى سمعكم قول القائل :

عبـاد المسـيح لنـا عنـدكم ... سؤال عجيب فهل مـن جـواب
إذا كان عيسـى علـى زعمكـم ... إلهـا قويًـا عزيـزا يهـاب
فكيـف اعتقـدتم بـأن اليهـود ... أذاقـوه بالقتـل مـر العـذاب
وكيـف اعتقـدتم بـأن الإلـه ... يموت ويـدفن تحـت التـراب ؟

ما أشنع قولكم الذي أطلقتموه على الله ، تعالى ذكر الله وشأنه عما تقولون علواً كبيراً .

ثم قال رضي الله عنه :

البداء وهم باطل

مثل مـا قالـت اليهـود وكـل ... لزمتـه مقالـة شـنعاء
إذ هم استقرأوا البداء وكـم سـا ... ق وبـالا إليـهم اسـتقراء
وأراهم لم يجعلوا الواحـد القهـ ... ـار في الخلق فـاعلا مـا يشـاء
جوزوا النسخ مثلما جوزوا المسـ ... ـخ عليهم لـو أنـهم فقهـاء

---

(١) زعمتم : ادعيتم ، أطلقتموه : قلتموه على عواهنه وضعفه ، هراء : زور وباطل لا قيمة له .

هو إلا أن يرفع الحكـــم بالحكـــ ـــم وخلـق فيـه وأمـر ســواء
والحكـــم مـــن الزمـــان انتـــهاء والحكم مـــن الزمـــان ابتـــداء[1]

بعد أن أنهى الناظم حجاجه مع النصارى في دعوى التثليث وما تعلق بها التفت لى مناظرة اليهود ليرد شبههم في مسألة «البداء» التي رتبوا عليها عدم نسخ الله شريعته لتحل محلها شريعة أخرى. وهدفهم من ذلك إبطال شريعتي عيسى ومحمد عليهما السلام. حتى يمكن لهم القول ببقاء شريعة موسى ونشير مرة أخرى إلى معنى «البداء» عند اليهود الذي سيفرغ الناظم جهده في الرد عليهم فيه.

اليهود يقولون بعدم جواز نسخ الشرائع لأن الله لو نسخ شريعة بأخرى للزم وصفه أنه بدت له مصلحة في الشريعة الناسخة لم يكن يعلمها عند إنزاله الشريعة الأولى لمنسوخة، وهذا البداء على الله محال. فلزم منه أن النسخ محال. ومؤدى هذا كله أن شريعة موسى التي يدين بها اليهود باقية إلى الأبد لن تنسخ، هذا قولهم، فكيف دحض الناظم ﷺ هذه الشبهة ؟.

قال الناظم: إن قول النصارى في دعوى التثليث باطل ومردود مثل قول اليهود بالبداء وكل من النصارى واليهود لزمته من قوله مقالة شنيعة جداً.

إن اليهود حين يمنعون النسخ في حق الله لاستلزامه البداء كما زعموا يحكمون على الله بالقهر والاستكراه حيث ألزموه ـ لعنهم الله ـ وتعالى عما قالوا علواً كبيراً ـ بأن يسلك مع عباده مسلكاً واحداً أبداً لا يتغير ولا يتبدل. فهو ـ سبحانه ـ عندهم ليس فعالا لما يريد ولو كان اليهود فقهاء لجوزوا النسخ في الشرائع ولجوزوا النسخ عليهم هم أنفسهم. لأن الله مسخهم قردة وخنازير حين أعرضوا عن أمره وكذبوا الرسل وقتلوهم. فالمسخ وقع فيهم لا محالة. والمسخ وإن كان هو تغييراً في الصورة أو الهيئة مثل النسخ في أن كلا منهما وضع شيء مكان آخر.

وماهو النسخ الذي يمنعونه، أليس هو رفع حكم شرعي بخطاب شرعي آخر يستوي في ذلك الخلق والأمر. فالنسخ واقع لا جدال فيه ولا يلزم منه أن الله بدا له أمر لم يكن يعلمه ثم علمه فكان النسخ لأن شرائع الله مرتبة ترتيباً أزلياً تبعاً لاختلاف إدراك البشر وأزمنتهم، وكل شريعة أدت دورها في بناء القصيدة وتربية

---

(١) شنعاء: قبيحة، استقرأوا: تتبعوا، ووبالا: هلاكا، النسخ. يكون فى الأحكام، والمسخ في الصور والأجسام، يرفع. يزال.

البشر متناسبة مع عصرها ومكانها تبعاً لتطور النمو العقلي عند البشر ، فلما بلغت البشرية كمال نضجها بعث الله إليها محمداً عليه السلام بشريعة تلائم كل زمان ومكان وضمت شريعته رسالات السماء . وهي لم تنسخ كل ما جاءت به الشرائع التي قبلها فما كان متصلا بالعقائد من التوحيد والبعث والحساب والجنة والنار فواحد في كل الشرائع وإنما الاختلاف أو النسخ حدث في ضروب العبادات والمعاملات لأنها أمور يقدر الله منها لعباده ما يناسب أحوالهم فيما سبق على الإسلام من شرائع . وهذا المعنى أشار إليه الناظم بقوله :

وله حكم من الزمان انتهاء وله حكم من الزمان ابتداء

كما أشار إلى تعريف النسخ بقوله : «هو إلا أن يرفع الحكم بالحكم» أن نسخ الشرائع يشتمل على حكمة وتدبير في علم الله اقتنع بها كل الأمم ماعدا اليهود فقد حملهم تعصبهم لملتهم التي حرفوها فقد انفردوا بهذه المقالة الشنيعة وتأثر بهم بعض الرافضة وكلهم على ضلال ماحق .

ثم قال ﷺ :

فسلوهم أكان في نسخهم مسـ ـخ لآيات الله أم إنشاء[1]

وبداء في قولهم ندم اللـ ـه على خلق آدم أم خطاء

أم محا الله آية الليل ذكراً بعد سهو ليوجد الإمساء

أم بدا للإله في ذبح إسحا ق وقد كان الأمر فيه قضاء

أو ما حرمه الإله نكاح الـ أخت بعد التحليل فهو الزناء

كان رد الناظم على اليهود في ادعائهم أن النسخ يترتب على البداء فيما سبق على هذه المجموعة يعتمد على مناقشة أصول عامة . أما في هذه المجموعة فقد وضع بين سمع ومرأى خصومه حقائق واقعة جزئية لا كلية وأدار الحوار على أساسها طالباً من اليهود أن يجيبوا عنها واحدة واحدة . وعلى أي وضع كان جوابهم فإن الحجة قائمة عليهم يقول الناظم :

فسلوهم يا معشر المسلمين أكان في مسخهم الذي مسخهم إياه الله بأن جعلهم قردة وخنازير أكان في هذا المسخ نسخ لآيات الله التي هي الصورة أو الصور

---

(١) فسلوهم : اسألوا اليهود . خطاء : خطأ . محا . أزال ذكرا بضم الذال العلم الإمساء : الظلام الليلي ؛ مضاء : حتم لازم . الزناء . الزنا .

المستقيمة التي كانوا عليها قبل المسخ أم كان إنشاء وتكوين جديد؟ فإن قالوا كان فيه نسخ فقد غالطوا لأن الصورة الممسوخة كانت موجودة قبل المسخ . فلا إنشاء . وعليه أيضاً لزمتهم الحجة .

وسلوهم عن قولهم إن الله ندم على خلقه آدم أكان ذلك القول قد صدر عن قصد منهم وإدراك؟ أم عن خطأ . فإن قالوا عن قصد فقد وصفوا الله ـ سبحانه ـ بالجهل تعالى عما يقولون علوا كبيراً لأنه حين خلق آدم ـ على قولهم ـ لم يكن يعرف حاله الذي سيكون عليه في المستقبل ولذلك ندم حين علمه ! فنقول لهم كيف أنكرتم النسخ لاستلزامه وصف الله بالجهل وها أنتم قد أثبتم له الجهل عن غير طريق النسخ .

وإن قالوا كان ذلك عن خطأ منا . فيكفي أنهم قد اعترفوا بضلالهم وسوء تقديرهم للأمور . وسلوهم أيضاً محو الليل بالنهار ومحو النهار بالليل واقع أم غير واقع . فإن قالوا واقع فقد لزم من ذلك تسليمهم للنسخ الذي أنكروه . وإن قالوا غير واقع فقد كابروا وأعظموا الفرية لإنكارهم الواقع المحسوس .

وعلى فرض قولهم بأنه واقع سلوهم هل هو عن عمد من الله بعد سهو؟ أم عن سهو ابتداء؟

فإن قالوا عن عمد بعد سهو فقد أقروا البداء الذي نفوه وهو أن الله قد علم شيئاً بعد جهل ـ سبحانه ـ وإن قالوا عن سهو ابتداء فكذلك . فيقال لهم : لماذا منعتم النسخ حذراً من البداء وها أنتم قد أثبتموه؟! وسلوهم هل افتداء الله الذبيح إسحاق بعد الأمر الجازم بذبحه هل كان ذلك الافتداء بدلا من الأمر الأول بالذبح فإن قالوا كان بدلا فقد سلموا بالنسخ وإن قالوا ليس بدلا قالوا بالمحال وكفاهم بذلك شناعة وجهلا .

وسلوهم إن الله حرم نكاح الأخت بعد أن كان جائزاً في عهد آدم عليه السلام . فهل التحريم ثابت عندكم بعد ذلك التحليل فإن قالوا ثابت فقد جوزوا النسخ . وإن قالوا غير ثابت فقد أحلوا ما هو أشنع من الزنا ؟ !

فأجل فكرك عزيزي القارئ في هذه الحقائق ، وتأمل كم كان الناظم قوي الحجة ناصع الدليل في حلبة الحوار . وماهو إلا التوفيق من الله الذي ينصر أولياءه ويخذل أعداءه .

بقيت كلمة قصيرة ذلك أن الناظم اقتصر في جداله اليهود على أن الذبيح هو إسحاق وهو أحد قولين ثانيهما أنه إسماعيل عليهما السلام ، وأن الرأي الأرجح عند المسلمين هو الثاني . فلم اقتصر الناظم عليه وهو مسلم؟

والذي أراه أن هذا لم يكن إلا من باب إرخاء العنان للخصم ، ومخاطبته بالأمور المسلمة عنده . وليس عن اعتقاد بأن الذبيح هو إسحاق . وذلك لأن المؤدى في الحالتين واحد ، أيها كان الذبيح لأن النتيجة ، التي رتبها الناظم على إجابة اليهود على فرض وقوعها لا تختلف باختلاف شخصي الذبيح ولو كان الناظم يحاور اليهود من كان هو الذبيح لكان له شأن آخر .

لؤم اليهود

ثم قال ﷺ :

لا تكذب أن اليهود وقد زا	غوا[1] عن الحق معشر لؤماء
جحدوا المصطفى وآمن بالطا	غوت قوم هم عندهم شرفاء
قتلوا الأنبياء واتخذوا العجـ	ـل إلاها إنهم هم السفهاء

يقول الناظم : لا تكذب أيها السامع بعدما ذكرت ذلك زيف اليهود وزيغهم عن الحق أنهم جماعة يملأ الخبث عقولهم وقلوبهم . لأنهم تمردوا على محمد عليه السلام وقد جاءهم بشريعة الحق وصدقوا أصحاب النحل الفاسدة من عبدة الشيطان والنار والأصنام والناس . وقد تمردوا على الأنبياء فقتلوهم وعصوهم ومن عبدوا العجل إلهاً من دون الله . فهل بعد هذا من سفه وطيش وحمق وقد طابق الناظم بين لؤماء وشرفاء . وجحدوا وآمن . كما اقتبس من القرآن الكريم في قوله : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾.

وسفه اليهود

وقال ﷺ :

وسفيه ما ساءه المن والسلـ	ـوى وأرضاه الفوم والقثاء

---

(١) زاغوا : مالوا . معشر : جماع . لؤماء : خبثاء . جحدوا : أنكروا . الطاغوت : الشيطان وكل من عبد من دون الله . السفهاء : الحمقى .

ملئـــت بالخبيـــث منـــهم بطـــون	فهـــي نـــار طباقهـــا الأمعـــاء
لو أريدوا في حـــال ســـبت بخـير	كـــان ســـبتا لـــديهم الأربعـــاء
هو يـــوم مبـــارك قيـــل للتصـــ	ـــريف فيه من اليهـــود اعتـــداء
فبظلم منـــهم وكفـــر عدتـــهم	طيبـــات في تـــركهن ابـــتلاء[1]

بعد أن فرغ الناظم من مناقشة بعض عقائد اليهود شرع في سرد ما وقع منهم من عمال شنيعة كقتل الأنبياء مثل يحيى وزكريا عليهما السلام من أجل ذلك وصفهم ناظم بالسفه كما وصفهم بذلك القرآن الكريم وعاد الناظم في هذه المجموعة يسجل لى اليهود بعض حماقاتهم فقال : إن قوماً يسخر الله لهم أطيب أنواع الحلوى ، أطيب أنواع الطيور تأتيهم في يسر فيبرمون بها ويشقون ويحزنون ويطلبون من نبيهم ن يسخر لهم الفوم والبصل والخيار والعدس فيسعدون بهذه المطعومات الدنيا خارجة من الأرض ويرفضون الطيبات النازلة من السماء إن قوماً هذا الشأن شأنهم قوم أحمق وأسفه من خلق الله! يشير بهذا إلى قول اليهود لنبيهم موسى عليه السلام يما حكاه عنهم القرآن الكريم : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ نَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ البقرة:٦١) ولما كان ما أنزله الله عليهم من السماء أطيب مما طالبوه قال لهم موسى عليه السلام : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ (البقرة:٦١) ينكر عليهم ذلك كما أكد القرآن هذه الحقيقة في الآية التى أشار إليها الناظم بقوله « فبظلم نهم . .» وهي قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ (النساء:١٦٠).

ووصف القرآن رزقهم الذي ملوه بالطيبات فقال : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ﴾ (البقرة:٥٧).

وقد استثمر الناظم حقارة ما طلبوه بالنسبة إلى ما كانوا قد رزقوه من الطيبات . فأنزل تلك الحقارة منزلة الخباثة المستفادة من الحقارة ومن مافي قلوبهم من عقائد

---

(١) سفيه : أحمق . ساءه : أحزنه . المن : حلوى كانت تنزل على اليهود . السلوى : نوع من الطير لذيذ الطعم والنكهة . الفوم : الثوم . القثاء : الخيار الأمعاء المصارين . السبت : يوم العبادة عند اليهود . التصريف : العمل للدنيا عدتهم : فاتتهم . ابتلاء : امتحان .

فاسدة وغل و حقد . فغلب عنده وصف الخباثة وأطلقه على ما في البطون وعلى ما في الصدور فقال :

ملئت بالخبيث منه بطون فهي نار طباقها الأمعاء

وهذا إلماح إلى سوء مصيرهم بسبب خبث سرائرهم . لشبه بطونهم وبواطنهم بمستودع نار مستعرة وشبه أمعاءهم بطبقات تلك النار وهذا من التشبيه المؤكد البليغ . ومما يؤيد هذا الوصف أن الربا مشهور في معاملة اليهود والربا من الكسوبات الخبيثة التي حرمها الله .

وانتقل الناظم إلى واقعة أخرى هي اعتداء اليهود على نظم العبادة التي كانت عليهم كل يوم سبت ، وحاصل هذه القصة أن الله فرض عليهم أداء العبادات كل يوم سبت وحرم فيه العمل عليهم ببيع أو شراء أو أى كسب دنيوي . وجعل أيام الأسبوع الأخرى من الأحد إلى الجمعة أيام عمل للدنيا جاء في القرآن الكريم : ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (النساء:١٥٤) لكن اليهود كانوا ينتهكون حرمة السبت ويحتالون على صيد الأسماك ويحفرون لها أحواضاً ثم يعزلونها عن البحر ليصطادوها يوم الأحد . وذلك لأن الحيتان ألهمها الله بأنها لا تصاد يوم السبت فكانت تظهر بكثرة على سطح البحر وتختفي في بقية الأيام وإلى هذا تشير الآية الكريمة : ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ (الأعراف:١٦٣).

بدأ اصطياد الأسماك نفر من اليهود ثم أخذ عددهم يتزايد حتى بلغ أكثر من الثلث. ونشاهد الاعتداء في قرية أيلة المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ (الأعراف:١٦٣).

غضب الله على اليهود ولعنهم لاعتدائهم في السبت فقال سبحانه : ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾ (النساء:٤٧).

وعمل لهم جزءاً من العقاب على عدوانهم فحرم عليهم طيبات أحلت لهم كما مر في الآية الكريمة التي أشار إليها الناظم .

والسبت في الأصل بمعنى القطع ضد الوصل . فعمد الناظم إلى هذا المعنى استثمره ـ كذلك ـ في لطيفة من لطائف بيانه الزاخرة فقال :

لو أريدوا في حال سبت بخير ... كان سبتاً لديهم الأربعاء

يعني : لو أراد الله لهؤلاء كمال الخير لما جعل يوم عبادتهم « السبت » لأنه بمعنى لقطع ولهداهم ليوم الأربعاء لأنه بمعنى الوصل إذ أن الله خلق فيه النور والنور وصل حسي ينشأ عنه وصل معنوي هو الهداية ووضوح الرؤية .

إذا كان هذا هو المعنى الذي قصده الناظم كما يقول بعض الشراح فيكون بين لسبت والأربعاء طباقاً ويزول اعتراض وجهه بعض النقاد للناظم من أنه إنما اختار لأربعاء من أجل القافية وهو اختيار خال من المعنى .

ونحن بدورنا نرى أن الناظم إنما اختار الأربعاء لأن المادة « ربع » من معانيها لمنزل والربيع . أما المنزل فهو مكان الوصل بين أفراد الأسرة . وأما الربيع فلأنه أكثر فصول السنة إنماء للنبات وكثرة الخيرات ، وتفتح الزهور وإشراق السماء واعتدال « المناخ » وهذه كلها أمور تبعث على الحركة والعمل . وهو بهذا المعنى مقابل للسبت الذي يكف اليهود فيه عن العمل ويقطعون رواحهم وغلوهم ويلزمون صوامعهم ومعابدهم . وأرى أن هذا التوجيه أولى بالاعتبار لأن مظاهره مشاهدة ومحسوسة تتكرر كل عام أما التوجيه الأول فدليله تجريدي بحت .

وعلى أي حملنا قول الناظم ، فإن المعنى الذي أراده فيه حيرة وطرافة لا ينكرهما إلا بليد الحس . أعمى الشعور .

ثم قال ﷺ :

اليهود والمنافقون

خدعوا بالمنافقين وهل ينـ ... ـفق الأعلى السفيه الشقاء

واطمأنوا بقول الأحزاب إخوا ... نهم إننا لكم أولياء[1]

(١) أولياء : أصدقاء . الإيلاء : اليمين . الرعب : الخوف الشديد الجلاء : الطرد . الآراء : المذهب . تعدوا : خانوا العدواء : الهلاك . أبيد : أهلك . الأمار والنهاء : الأمار بإيناء النبي عليه السلام والنهاء عن اتباعه ، وهما صيغتا مبالغة في اسم الفاعل وزنها : فعال .

حـــالفوهم وخـــالفوهم ولم أد ر لمـــاذا تخـــالف الحلفـــاء
أسلموهم لأول الحشـــر لا ميـــ ـــعادهم صـــادق ولا الإيـــلاء
سكن الرعـــب والخـــراب قلوبـــاً وبيوتـــاً منـــهم نعاهـــا الخـــلاء
وبيوم الأحزاب إذ زاغت الأبـــ ـــصار فيـــه وضـــلت الآراء
وتعـــدوا إلى الـــنبي حـــدوداً كـــان فيهـــا علـــيهم العـــدواء
ونـــهتهم وما انتهت عنـــه قـــوم فأبيـــد الأمـــار والنـــهاء

تاريخ اليهود حافل بضروب المكر والخديعة وفعل المنكرات ذكر الناظم ـ قبلا ـ جزءاً من تاريخ اليهود المؤسف . وها هو ذا جزءاً آخر من تاريخهم جرت أحداثه في عهد الرسول محمد عليه السلام فقد تأثر اليهود بألاعيب المنافقين الذين خشوا بطش محمد وأصحابه فصانعوهم، أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، لابثين لكل حالة لبوسها . فانخدع اليهود بما كان للمنافقين من حظوة . فهم سفهاء . والنفاق من أبشع أنواع الشقاء فلا سوق له ينفق فيه إلا سوق السفه والحمق الذي كان يضرب خيامه في وادي اليهود فأنفق المنافقون دراهم نفاقهم وشقائهم على أرباب هذه السوق ، فيها تباع . ومنها تشترى . واستعان الناظم في بيان هذه الحقيقة بأسلوب الاستعارة المكنية ، والراكن إلى بضاعة النفاق خاسر ولو بعد حين ، غفلة اليهود أنهم سارعوا إلى تصديق كفار قريش حين ادعوا أنهم سيحاربون معهم محمداً عليه السلام . ولن يعودا إلى مكة إلا بعد القضاء عليه ، فاطمأن يهود المدينة إلى هذه الوعود الخادعة ، ولكن سرعان ما تخالف الحلفاء فعاد كفار قريش لم ينالوا من المسلمين منالا وتركوا اليهود لقدرهم في المدينة يصنع بهم محمد عليه السلام ما يحلو له ، فكانت هذه صدمة مميتة لليهود ماكانوا يظنون أنها ستكون .

لكن مازال لهم في الأمل بقية ، فإن كانت قريش قد هزمت وولت الأدبار فإن حلفاءهم من المنافقين يعيشون معهم بالمدينة . . ولن يتخلوا عن نصرتهم ضد محمد عليه السلام ، وعدوهم بهذا ، وأقسموا عليه بأغلظ الأيمان ، ولم يمض من الزمن طويل حتى كررت المأساة نفسها فتخلى المنافقون عن اليهود فيحاربهم المسلمون وتمتلئ قلوبهم رعباً منهم ، ويحل بيوتهم الخراب تخلى عنهم المنافقون : لأنهم

منافقون ، كما تخلت عنهم قريش من قبل ، فلم تصدق وعودهم ، ولا صدقت أيمانهم ، وهذه ثمرة من ثمار الكفر والنفاق وخداع المنافقين كان أشد وقعاً من خداع قريش ، فهي بعيدة الديار ، أما المنافقون فهم ملاصقو الجوار ولكنهم سريعو الفرار ، فروا يوم حرب بني النضير ، وفروا يوم حرب بني قريظة .

ولم يكن محمد عليه السلام ظالماً لليهود ، ولكنهم خانوا عهودهم مع رسول الله وظهرت بوادر الشر في أقوالهم وأفعالهم ، حتى هموا بقتل الرسول نفسه وعملوا في إثارة الفتن بين المسلمين وكادوا يعبثون بالأعراض والحرمات،فكانت عاقبتهم خسراً.

ولقد نصحهم قوم باتباع محمد عليه السلام وترك معاداته فلم يسمعوا فانتقم الله منهم وكتب عليهم الجلاء من المدينة وذاقوا العذاب ألواناً على أيدي المسلمين ، وأهلك الله منهم من كانوا يأمرون بإيذاء المسلمين ، ومن كانوا ينهون عن اتباعه ، لأن الآمر بالشر كالناهي عن تركه سواء بسواء .

هذا وقد حفلت هذه المجموعة بالصور البيانية المشرقة . فقد تعانق الإنكار مع سحر المجاز في قوله : «وهل ينفق إلا على السفيه الشقاء» . أما قوله :

حالفوهم وخالفوهم ولم أد ... ر لماذا تخالف الحلفاء

فمعجزة من معجزات البيان ، ففي قوله : «حالفوهم وخالفوهم» طباق وجناس في آن واحد وكذلك قوله : تخالف الحلفاء كما ازدان هذا البيت بتجاهل العارف في الاستفهام عما هو معلوم للسائل المستفهم ، ولست أدري لماذا تعتريني روعة التعجب كلما قرأت هذا البيت أو رددته ، وإن كان لهذا التعجب وتلك الروعة من سبب فلا أظنه في رشاقة العبارة وحدها ، بل لطرافة المعنى وجدته في ذلك أوفى نصيب ، فهذا البيت فيه نغمة من جوامع الكلم والإيجاز البليغ .

ثم انظر إلى هذين البيتين :

أسلموهم لأول الحشر لا ميـ ... ـعادهم صادق ولا الإيلاء

سكن الرعب والخراب قلوباً ... وبيوتاً منهم نعاها الجلاء

تجد الناظم قد استوحى فكرة البيت الثاني من القرآن الكريم من قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحشر: ٢)

في الآية الكريمة استعارة مكنية - حيث شبه الرعب بجسم ثقيل صخرة مثلا ثم قذف هذا الرعب في قلوب اليهود ، فهل لهم قلوب ثابتة بعد هذا القذف ، وكذلك الناظم أبى إلا أن يستثمر قذف الرعب فجعله بعد قذفه ساكناً في القلوب وإذا سكن الرعب قلباً خرب القلب من نفسه ، ولهذا عطف الناظم الخراب على الرعب وزوج السبب الذي هو الرعب بالمسبب الذي هو الخراب ، فأصبحت قلوبهم مرعوبة خربة ، فلما خربت قلوبهم من رباطة جأشها خربت بيوتهم منهم هم أنفسهم فجاء الجلاء عن المدينة ليذيع هذا الخبر استعارة مكنية كذلك أرق من النسيم ، أما البيت الأول فقد اقتبس فيه الناظم قوله « لأول الحشر » من قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾ (الحشر:٢).

كما شاع الجناس في هذه المجموعة شيوعاً ملحوظاً وأدعوك لتنظر فخامة الطباق في قوله : « فأبيد الأمار والنهاء ».

وقال ﷺ :

كيدهم في نحورهم

وتعاطوا في أحمد منكر القو	ل ، ونطق الأراذل العوراء
كل رجس يزيده الخلق السو	ء سفاها والملة العوجاء
فانظروا كيف كان عاقبة القو	م وما ساق للبذي البذاء
وجدا السب فيه سماً ولم يد	ر إذ الميم في مواضع باء
كان من فيه قتله بيديه	فهو في سوء فعله الزباء
أو هو النحل قرصها يجلب الحتـ	ـف إليها وماله إنكاء[1]

يقول الناظم : دأب الكفار من يهود ومشركين ومنافقين على سب محمد عليه السلام ورميه بفاحش القول ، ولا جرم مما كان يصدر عنهم سوى الذي قالوه لأنهم من أسفل الخلق وهؤلاء شأنهم التلفظ بكل قبيح ، وزاد الطين بلة أن سوء طبع هذه

---

(١) تعاطوا : اقترفوا ، الأراذل : السفاء . العوراء : القبيح ، رجس : نجاسة . البذى : السم . الخانق ، الزباء : امرأة قتلت نفسها بيدها . الحتف : الموت ، الإنكاء لها معنيان . القتل وكظم الجرح ليدمي .

شراذم ليس لهم عاصم من عقيدة صالحة ومنهج قويم ، فكانوا مصدراً للشر والقبيح ى مقياس قستهم ، فكان جزاؤهم خزي الدنيا والآخرة .

وإن تعجب فعجب سب من كان يسب محمداً عليه السلام ويتلذذ بسبه وإيذائه هو لا يعلم أن سبه هذا انقلب سراعاً فصار سماً قاتلاً لصاحبه وحل الميم من «السم» محل الباء من «السب» فصار السب سماً ، وهذا هو معنى قول الناظم :

إذ الميم في مواضع باء

فالميم مبتدأ ، وباء خبر ، أي أن الميم في بعض المواضع هي باء ، ومن هذه مواضع «سب» الأبرياء وعلى رأسهم محمد عليه السلام ، فأصل الباء هنا الميم .

وهذا من المعاني الطريفة جداً لم نعرف لغير الناظم شبيهاً لها في الطرافة السهولة.

ثم انظر إلى قوله :

كان من فيه قتله بيديه فهو في سوء فعله الزباء

أى أن ساب محمد عليه السلام قتل نفسه بيديه ، ولكن «فيه» أي فمه قام مقام يدين في هذه القتلة ، وأسألك الآن - عزيزى القارئ - هل وقفت على مثل هذا معنى عند غير الناظم ، وهل عرفت لغيره ميزة امتلاكه لأدوات اللغة وإطاعة اللغة له بما يريد منها وتوليده للمعاني الطريفة لم تلهث أنفاسه ، ولم تجمع معانيه ، لا ركت ألفاظه مع أن «المشوار» الذي قطعه طويل طويل إن كل بيت في هذه ملحمة الجياشة تقرأه فيأسرك ، وتتأمله فيثريك كأن الناظم قد استجمع كل مهاراته بقوله بيتاً فناً لا وحدة في قصيدة ماعهدنا مثلها في الطول بين الشعراء الأقدمين المحدثين في تاريخ الشعر كله .

ثم انظر إلى هذا التشبيه الحكيم : «فهو في سوء فعله الزباء» فالزباء أخذت خاتما سموماً ومصته حتى ماتت وقالت قبل موتها بيدي لا بيد عمرو ، المثل الشهير . الذي تعاطى السب في محمد عليه السلام فقتل نفسه بسبب سبه هو والزباء سواء في سوء الفعل وجناية كل منهما على نفسه ، تأمل هذا التشبيه البليغ حقا واربط بينه وبين

المعنى السابق عليه تجد تآلف المعنيين قويا حتى أصبحا كالمعنى الواحد في شدة التآلف لا في صغر المدلول .

هذه صورة ، أو هو أي الساب محمد عليه السلام النحل حين تصيب أحداً بلسعها فإن لسعها يكون سببا في موتها ولا تأثير له في الشخص الملسوع لا جرح ولا قتل .

ووجه الشبه فوق ما تقدم من سوء الفعل ، والجناية على النفس الماحية أو اللاسعة هو سلامة الخصم فالزباء قتلت نفسها وسلم خصمها عمرو الأبرش والنحلة تموت هي ويسلم الملسوع ، وكذا الذي سب محمدا عليه السلام قتل نفسه بسببه وبقى محمداً ﷺ سليماً لم يصب بسوء وليس لي من تعليق على هذا البيان الآسر إلا أن أردد ما قاله عليه السلام : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة » .

وقال ﷺ :

جيوش الحق تزهق الباطل

صرعت قومه حبائل بغى	مدها المكر منهم والدهاء
فأتتهم خيل إلى الحرب تختا	ل وللخيل في الوغى خيلاء
قصدت فيهم القنا فقوافي الطـ	ـعن منها ما شانها الإبطاء
وأثارت بأرض مكة نقعا	ظن أن الغدو منها عشاء
أحجمت عنده الحجون وأكدى	عند إعطائه القليل كداء
ودهت أوجها بها وبيوتاً	مل منها الإكفاء والإقواء[1]

هذا شروع من الناظم في تفصيل بعض ما أصاب القوم ، قوم رسول الله ﷺ والمراد بهم الذين لم يؤمنوا به وحاربوه هؤلاء صرعتهم حبائل الظلم وفي هذا التعبير استعارة مكنية لأن الصرع ليس من مفعولات الحبائل فجعلها فاعلا له رمز لتشبيهها بالفرسان أو الأسود . والمقصود من الحبائل أفعال السوء ففيها استعارة تصريحية

---

(١) قومه : أي قوم النبي . صرعت : قتلت . حبائل : جمع حبالة . بغى : ظلم . القنا : جمع قناة آلة الحرب . نقعا : غباراً . أحجمت : وقفت . الحجون : جبل بمكة : أكدى: منع ـ كداء : جبل . دهت : أصابت : الإقواء والإكفاء أراد منها اختلاف طعنات الرماح . وأصل الإقواء اختلاف الحركة من بيت إلى آخر في القصيدة الواحدة والإكفاء اختلافها في الحرف الأخير وهما عيبان من عيوب القافية .

سلية والإضافة فيها بيانية وقد رشح لهذه الاستعارة بقوله « مدها » لأن المد من صائص الحبل المشبه به . وفي إسناد هذا المد إلى « المكر » استعارة مكنية كذا . يجوز حمله على المجاز العقلي الذي علاقته السببية أي مدوها بسبب مكرهم خبث دهائهم .

وأشار بقوله : وأتتهم خيل إلى الحرب » إلى الواقعة التي سجلها القرآن الكريم في له تعالى : ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴾ والمقصود من الخيل الجنود وإنما أسند الإتيان يها لأنها تحملهم . وقد أضاف الناظم إلى المعنى جمالا حيث جعل الخيل تختال تزهو في مجيئها تعالياً عليهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ وللخيل في حروب زهو وخيلاء . فما أن دهمتهم الخيل حتى حصدتهم الرماح وأسند الحصاد القصاد إلى الرماح على طريق المجاز العقلي لأنها آلة فيه ، أو هي استعارة مكنية . قد شبه الناظم أطراف الرماح بقوا في الشعر لأن القافية طرف البيت وهذا من باب مجاز الاستعاري . وهي طعنات سريعة متوالية لا إبطاء فيها .

أثارت تلك الخيول في عدوها وجولانها غباراً كثيفاً بمكة حتى ليخيل للرائي أن صبح الذي أغارت فيه هو العشاء لأن الغبار حجب ضوء الشمس . وعبر الناظم العشاء ولم يعبر بالمساء مع وفائه بحق القافية لأنها همزيان لمعنى جد عميق وهو ن المساء وهو أول الليل بعد الغروب الرؤية فيه ممكنة . فلو عبر به لكان الغبار لمثار خفيفاً أما العشاء فتتعذر فيه الرؤية فهو المناسب للمعنى .

لقد تضافر كل شيء لنصرة رسول الله ﷺ حتى جبلا مكة الحجون وكداء فأمسك لحجون وكف عن حماية المشركين ، ومنع كداء ولاءه لهم[1] .

هذه الغارة الشعواء مظهر أثرها على وجوه المشركين فاصفرت من الرعب وطار صوابهم . وأحلت في كل بيت كارثة من أفدح الكوارث وقد مل القوم من تلك القنا طعناتها المختلفة من فوق ومن أسفل وعن اليمين وعن اليسار . وفي الصدور وفي

---

(١) ما ذكره الشراح في توضيح هذا البيت ليس بمقنع لذلك فسرناه بما ترى حتى يستقيم المعنى . والبيت فيه من الخيال ما فيه .

الظهور ولما كان الناظم قد سبق له استعارة القوافي للطعن كما تقدم عاد هنا واستعار لاختلاف الطعنات بالإقواء والإكفاء إذ هما حالان مختلفان من أحوال القوافي .

وأنت خبير بأن هاتين الاستعارتين يعدان ترشيحاً لما تقدم من استعارة القوافي لأطراف المرماح . كما أن قوله « بيوتا » قبلهما فيه ما يقوي تلك الاستعارات جميعاً .

وهذا المعنى من المعاني البكر الفذة فليس هو فيها مقلداً لشاعر سبق . وما حاكا شاعر لحق . فلله دره من قئول موهوب وشاعر ملهم .

وقال ﷺ :

عفو القادر

فدعوا أحلم البرية والعفـ	ـو جواب الحليم والإغضاء
ناشدوه القربى التي من قريش	قطعتها الترات والشحناء
فعفا عفو قادر لم ينغصـ	ـه عليهم بما مضى إغراء
وإذا كان القطع والوصل للـ	ـه تساوى التقريب والإقصاء
وسواء عليه فيما أتاه	من سواه الملام والإطراء
ولو أن انتقامه لهوى النفـ	ـس لدامت قطيعة وجفاء[1]

سجل الناظم في هذه المجموعة وما سبقها ما حدث يوم فتح مكة المكرمة وبين هنا أن القوم في مكة حين سقطوا في أيديهم ، ونصر الله حزبه عليهم جاءوا يطلبون من محمد عليه السلام العفو ، وذكروه قرابته بهم ، تلك القرابة التي قطعوها بحقدهم ومكرهم ، فعفا عنهم عفو كريم قادر على الاقتصاص منهم لنفسه . وهم القوم الذين آذوه وآذوا أصحابه وأجمعوا على قتله إن نجاه الله منهم ، كل ذلك الماضي عفا عنه ، فقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

لأن محمدا عليه السلام ، إنما يصل لله . ويقطع لله ، ومن كان هذا شأنه فلا ميزة عنده لقريب على بعيد ، فالجميع عنده سواء ، لا يثأر ممن يلومه ، ولا يفرح بمن يمدحه ولو أراد أن ينتقم لنفسه لدامت جفوته لهم وحربه عليهم .

---

(١) الإغضاء : التسامح . ناشدوه : طلبوا منه . الترات : الأحقاد ، لينغضه يكدره إغراء : تحريش . الملام اللوم . الإطراء : المدح قطيعه : خصام . جفاء بعد وصدود .

كل إناء بما فيه ينضح

وقال رضي الله عنه :

قــــام لله في الأمــــور فــــأر	ضــى الله منــه تبــاين ووفــاء
فعلـــه كلـــه جميـــل وهـــل	ينضــح إلا بمــا حــواه الإنــاء
أطرب الســامعين ذكــر عــلاه	بــالراح مالــت بهــا النــدماء
النبي الأمــي أعلــم مــن أســـ	ـــند عنـــه الـــرواة والحكمــاء[1]

هدأت ثورة الناظم هنا لأنه فرغ من رد شبه المبطلين ، وشفى غله عليهم بكثرة ا شن من غارات انتصر في جميعها ، وختم حديثه عن هزائمهم بذكر فتح مكة حيث تطمت عروش الكفر وطهرت الكعبة وجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله نواجاً وسبح رسوله الكريم بحمد ربه واستغفر إنه كان تواباً .

وها هو ذا يقبل على فصل جديد من فصول ملحمته الفياضة ذلك الفصل هو صف رحلة الحج التي قام بها الناظم مع رفقة كرام ، ولكنه لم يهجم عليها هجوماً ل مهد لها بفاصل قصير من المدح في نبى الإسلام بما هو أهله فقال :

إن محمداً عليه السلام أدار كل الشئون بما أرضى الله فرضي الله عنه بكل عمل داه ، فما حارب إلا من أوجب الله حربه ، ولا سالم إلا من أوجب الله مسالمته ، جاء فعله كله جميلا ، ولا غرابة فما في نفس محمد عليه السلام وقلبه وعقله إلا لجمال والإناء المملوء بالشهد لا يرشح إلا شهداً ، وقد استثمر الناظم في هذا المعنى لمثل المشهور : كل إناء ينضح بما فيه .

ولهذه الشمائل فإن سيرة محمد عليه السلام يسر بها سامعوها أمتع معاصروه لنظر إليه ، وشرفتهم صحبته ، وروى تابعوه وتابع تابعيه قوله وفعله ووصفه ، رتبارى الرواة والحكماء في حفظ بيانه وتوثيقه ونقله وشرحه والعمل به ، وأحلوه لمحل الأرفع الذي وصفه فيه ربه فقال : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح:٤) وقال : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ (الحشر:٧) وقال : ﴿ مَّن يُطِعِ

---

(١) تباين : قطع للأعداء . وفاء: وصل للأصدقاء . ينضح يرشح . حواه : وجد فيه . أطرب : أسر وأفرح . يال : كلمة تعجب . والراح: الندماء : الشاربون الخمر . أسند : روى الحديث عنه .

ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (النساء: ٨٠) ولهذا قال عليه السلام ، « خذوا عني » فأخذت الأمة عنه ، فأصبحت بذلك الأخذ غنية أثرى ما يكون الغنى ﷺ .

وصف موكب الحجيج

وقال ﷺ :

وعـــدتني ازديـــارة وجنـــا	ء ومنـــت بوعـــدها الوجنـــاء
أفلا انطـوى لهـا في اقتضائيـــ	ـــة لتطـوي مـا بيننـا الأفـلاء
بألوف البطحـاء يجفلـها النيـل	وقـد شـفى جوفهـا الإظمـاء
أنكـرت مصـر فهـي تنفـر	مـالاح بنـاء لعينـها أو خـلاء
فأفضـت علـى مباركهـا بـر	كتـها فالبويـب فالخضـراء
فالقباب التي تليها فبشر النخـــ	ـــل والركـب قـائلون رواء[1]

في الرحلة الميمونة التي قام بها الناظم إلى الأرض المقدسة مع رفقة كرام اتخذ من الحديث عن الناقة التي تقله في تلك الرحلة وسيلة لوصف الرحلة نفسها ، فقال في مطلع هذا الفصل الرائع : « وعدتني ازدياره وجناء » فأسند الوعد بالزيارة إليها على طريقة الاستعارة المكنية لأن الوعد لا يبذله إلا عاقل ، وكانت هذه العبارة أول شرارة أورى بها زند الرحلة ، ثم تتابعت الشرارات بعدها حتى تولدت عنها خيوط هائلة من النور ، بدأت من مصر ، وانتهت بمكة ثم واصلت مدها حتى المدينة المنورة ، ثم عادت إلى حيث بدأت خيوط من الوصف المضيء نسجتها يد صناع فأجملت سداها ولحمتها فالوضاء وعدته الرحيل إلى مكة وامتنعت عليه بوعدها لأن الذهاب إلى مكة فضل عظيم ، واستجاب الموعود للواعد وكيف لا يستجيب والموعود به أمر جليل يحول دونه طريق طويل يقطع ألوف الأماكن ويمر بمئات البقاع قطعتها الوجناء وقد أضناها الظمأ الشديد والسير المتواصل ، وقد دفعها الشوق العظيم وجلال المنال

---

(١) وجناء : الناقة القوية ، منت : أنعمت ، انطوى : انضم . اقتضائية : طلبي مصدر مضاف للفاعل ، تطوي : تقطع . الأفلاء جمع فلا المسافة البطحاء : مكة . يجفلها : يزعجها ، شف : أضعف . الإظماء : العطش . لاح : ظهر . أفضت صبت من الصب والسكب . مباركها : مبارك الناقة . والبويب. والخضراء : مواضع يمر بها الحجاج وهم فى طريقهم إلى الحج ، القباب: اسم واد معروف . بئر النخل : مكان فيه ماء أكثر ما يكون عذوبة . الركب : الحجيج . رواءه : يطلبون الماء .

فأسرعت الخطى زاهدة في مصر راغبة في التوصل إلى أرض النور وموطن الوحي ، يلوح لها الحشيش الأخضر والبناء الشامخ من ورائها فلا تحفل بها لأن ما يشغلها الآن ليس هو المتاع والمقام بمصر . بل يغمرها شوق عظيم لمشاهدة الأماكن المقدسة . وبركة الوجناء في مجمع الحجيج وانصبت البركة صباً على مباركها . وغذت السير فمرت بالبويب ، والخضراء فالقباب التي تلي تلك الأماكن . ومرت ببئر النخل ذات الماء العذب والركب يقولون رواء رواء طلباً لذلك الماء النمير .

وقال ﷺ :

وغـدت أيلـة وحقـل وقـر	خلفهـا فالمفـازة الفيحـاء
فعيون الأقصاب ليتبعها النبـ	ـك ويتلو كفافـة العوجـاء
حاورتها الحـوراء شـوقا فينبـو	ع فـرق الينبـوع والحـوراء
لاح بالدهنوين بـدر لهـا بعـ	ـد حـنين وحنـت الصـفراء
ونضت بـزوة فرابـغ فالجحـ	ـفة عنـها ماحاكـه الإنضـاء
وأرتهـا الخـلاص بئـر علـى	فعقـاب السـويد فالخلصـاء
فهي من ماء بئر عسـفان أو مـن	بطـن مـر ظمآنـة خصـماء
قـرب الزاهـر المساجد منـها	بخطاها فـالبطء منـها وحـاء[1]

يقول الناظم : أخذت الناقة في سيرها حتى استدبرت أيلة وحقل وقر والمفازة . والفيحاء وعيون الأقصاب والنبك والعوجاء . كل هذه المنازل تركتها الناقة مسرعة إلى حيث تريد حتى ضاعف عندها الشوق الحوراء والينبوع إذا أصبحت على مقربة منها وهما قريبان من مهبط الرحلة الكريمة « مكة » وقد رق للناقة حباً وعطفاً كل من الحوراء والينبوع . هي تسرع الخطى نحوهما ، وهما يتلهفان شوقاً إليها . فلما حلت الناقة بالدهنوين لاح لنظرها بدر بعد أن تجاوزت حنين ، وقد حلت لها الصفراء شوقاً .

---

(١) أيلة وحقل وقر والمفازة وعيون الأقصاب : أسماء أماكن على الطريق . الفيحاء : المزهرة ، النبك: بلدة كانت بين حمص ودمشق ، والعوجاء :اسم مكان بعد النبك والينبوع والحوراء بلدان من بلاد الحجاز ، الدهنوين : تثنية دهناء مكانان ، وكذلك حنين ، الصفراء ورابغ والجحفة أسماء بلاد وأماكن .وكذلك بئر علي وعقاب السوق والخلصا أسماء أماكن على طريق الرحلة أما بئر عفان وبطن مر فمواضع مياه ، الزاهر باسم مكان ، ووحاء سرعة .

فلما وصلت الناقة إلى رابغ والجحفة «موضع الإحرام» خلعت عنها هذه الأماكن ثوب التعب الذي عبر عنه الناظم بالإنضاء أي التعب . ونفت أي خلعت . لأن الرحلة قاربت الانتهاء كما رأت الناقة الخلاص من التعب بئر على القريبة من مكة وعقاب السويق والخلصاء ، لأنها أماكن ملاصقة لمكة المكرمة والحال أن الناقة ظمأى إلى الشرب من بئر عسفان أو من مياه بطن مر لأن الحجاج شغلوا بأنفسهم فلم يهتموا كثيراً بأمر دوابهم فهي لذلك ظمآنة جائعة . وقد أدنى الزاهر لها المساجد المعروفة . بمكة والزاهر آخر المنازل التي يمر بها الركب في طريقهم إلى مكة وبعدها أناخ الناظم ناقته فقد أوفت بوعدها فأوصلت إلى أرض النور .

يمتاز هذا الفصل بسرد الأماكن التي مر بها الناظم في رحلته . والسرد ممل عادة لما فيه من جفاف وخشونة . ولكن الناظم وقد أحس بهذه الحقيقة نفخ فيها من روح شعوره ليذهب عنا الملل والسآمة .

انظر إليه إذ يقول : حاورتها الحوراء شوقا فها هنا الشوق متبادل بين الناقة وبين الحوراء والينوع . وكذلك قوله : حنت الصفراء ونضت بزوة وهي اسم مكان كذلك . ثم تأمل الخيال العجيب نضت بزوة أي خلعت ما حاكة الإنضاء . فقد شبه التعب بثوب تلبسه الناقة حاكة لها السير الطويل وخلعته عنها بزوة وما عطف عليها .

وكذلك بئر على وعقاب السوبق والخلصاء وصنعت أمام عيني الناقة «لادارا» لتريها الخلاص من التعب الشاق الذي تعانيه . !

ويأتى دور الزاهر فيدني منها المساجد التي من أجلها شدت الرحال . عند ذلك أصبح بسط الساعة سرعة ، لأنها قد بلغت المطلوب . ويختم الناظم هذه المجموعة بقوله :

هذه عدة المنازل لاما عد فيه السماك والعواء

أي عدة المنازل بين مصر ومكة ، لا منازل القمر التي منها السماك والعواء . والنفي وما دخل عليه احتراس لدفع الإيهام يعني أن هذه المنازل المعدودة هي المنازل التي على طريق مصر مكة وليست منازل القمر .

ثم قال رضي الله عنه :

فكأني بها أرحل من مكـ ـكة شمساً سماؤها البيداء . .
موضع البيت، مهبط الوحي، مأوى الـ ـرسل حيث الأنهار حيث البهاء
حيث فرض الطواف والسعي والحلـ ـق ورمي الجمار والإهداء
حبذا حبذا معاهد منها لم يغير آياتهن البلاء
حرم آمن وبيت حرام ومقام فيه المقام تلاء[1]

يتحدث الناظم في هذه المجموعة عن خروجه من مكة إلى عرفات للوقوف عليها فيقول إنه كان مثل من يرحل عن مكة شمسا ـ يعني ناقته ـ سجاء تلك الشمس هي الصحراء التي تسير فيها . روى بعض شراح الهمزية أن هذه العبارة من باب التشبيه الاستعاري حيث شبه الناقة بالشمس وعلى هذا فتكون هذه الاستعارة مطلقة لتعارض الترشيح ، وهو سماء ، مع التجريد ، وهو « البيداء » لكن الشارح حملها على الاستعارة المجردة وهذا سهو . وعندي أن العبارة من باب التجريد لانطباق حده عليها .

أما قوله : موضع البيت ، وما بعده من أوصاف . فهي نعوت لمكة بها يشع النور ، ويتلألأ البهاء . وجعلها مأوى الرسل لحديث « مانبي إلا حج بيت الله » . وبعض العلماء يقول ماعدا صالحاً وهوداً فإنهما لم يحجا . وقد ضعف هذا الاستثناء .

ولقد ألفت نفس الناظم تلك البقاع وعبر عن ذلك الإلف بقوله : حبذا حبذا . مكرراً مرتين ، وحبذا فعل مركب منه ومن فاعله حب فعل ماض ، وذا فاعل هنا على رأي . وهو من الأفعال الخاصة بالمدح ويقال في الذم : لاحبذا . وقيل : حبذا كله فعل وليس ذا فاعله فهو مفتقر إلى فاعل غيره . وعلى هذا ففاعله في البيت هو « معاهد » .

وإنما ألفت نفس الناظم تلك البقاع لما لها في نفوس المؤمنين من حرمة ومنزلة رفيعة . ولأنها آية من آيات الله الباقيات تحدث الزمن فلم يغير منها تطاول مروره . وكر جديدية شيئاً حتى الآن . ولن يغير بعد الآن .

---

(١) البيداء : الصحراء . مأوى : منزل . الطواف والسعى والحلق ورمى الجمار ، والإهداء كل ذلك من مناسك الحج والعمرة حبذا فعل يفيد المدح البلاء : الفناء . تلاء : أي جوار كريم .

وكيف يغير الدهر من تلك الآيات وهي الحرم الآمن فما أجمل المقام في تلك الديار التي فيها بيت الله الحرام أول بيت وضع للناس ببكة مباركاً وهدى للعالمين . وفيها مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا .

أن المقام في تلك الديار وهي مهبط الرحمات جوار لرحمات الله وإنعامه ومشرق أنوار الهداية إلى سعادة الدنيا والدين .

وصف السير إلى المدينة المنورة

وقال ﷺ :

فقضينا بها مناسك لا يحـ ـمد إلا في فعلهن القضاء

ورمينا بها الفجاج إلى طيـ ـبة والسير بالمطايا رماء

فأصبنا عن قوسها غرض القر ب ونعم الخبيئة الكوماء

فرأينا أرض الحبيب يغض الطرف منها الضياء واللألاء

فكأن البيداء من حيث ما قابلت العين روضة غناء

وكأن البقاع ذرت عليها طرفيها ملاءة حمراء

وكأن الأرجاء ينشر نشر المـ ـسك فيها الجنوب والجربياء[1]

البيت الأول فيصل بين رحلتين ميمونتين : رحلة إلى مكة لأداء مناسك الحج . ورحلة من مكة إلى المدينة لزيارة الرسول عليه الصلاة والسلام . وفيه يقول : لقد أدينا بمكة مناسك وعبادات لا يحمد الأداء إلا في مثلها لما ينعم الله به على الحجاج من غفران الذنوب . واستيجاب الرحمة ومباهاة الملائكة بالحجاج العمار .

وبعد أداء هذه المناسك عزمنا الرحيل إلى المدينة المنورة مقر الحبيب الكريم فرمينا الطريق بالنوق كل منا يسرع نحو الهدف المطلوب كأننا في حلبة سبق بالمطايا النجيبات . وقد أوصلتنا الوجناوات إلى أرض الحبيب ﷺ وشاهدنا الأنوار

---

(١) قضينا . أدينا . مناسك . شعائر . الفجاج . الطريق . طيبة . المدينة المنورة رماء : سباق غرض القرب . كناية عن المطلوب وهو هنا المدينة المنورة الخبيئة الذخيرة ـ الكوماء . العظيمة وصف للناقة . يغض الطرف . ينحسر النظر اللألاء : البرق اللامع . البيداء: الصحراء . روضة غناء : حديقة مزهرة الأرجاء : الفراحى . الجنوب . الريح المقابلة لريح الشمال· الجربياء . ريح الشمال .

اللألاءة فغضضنا الطرف حياء وانبهاراً ولم نكن نحس أننا نسير في بيداء بل في حديقة فيحاء مغردة طيورها وأدهشنا منظر الرمال الحمراء التي تفرش حرم الحبيب كأنها العقيق وأمتعتنا الروائح الطيبة كأن المسك سكب سكباً على تلك البقاع فما أطيبها بقعة فيها البهاء والنور . وكل ريح تهب عليك تحمل أزكى العطور جنوبية كانت أم شمالية .

أما بلاغيات هذه المجموعة فأبرزها أن الناظم شبه الناقة بالسهم على طريق الاستعارة المكنية . ودل على ذلك التشبيه بإثبات الرمي الذي هو من خصائص المشبه به (السهم) للمشبة (الناقة) والجامع قطع المسافة بسرعة في كل . ولكل منهما هدف . هدف الرامي إصابة الفريسة . وهدف الناظم بلوغ طيبة .

ثم عاد فشبهها بالقوس لتقوسها وهزالها من شدة السير وطوله فهو على حد قول الشاعر :

قف العيسى قد أدنى خطا كلالها　　وسل دار سعدى إن شفاك سؤالها

ولكن في الإعياء والهزال لا المقصد والنتيجة . . ومنها كذلك المجاز العقلي في بعض الطرف الضياء . لأن الضياء سبب الغصن وليس فاعله رمى هنا مبالغة في وصف النور بالقوة . ولهذا صبغ النور الرمال بلونه الأحمر القاني .

ومنها تشبيه الصحراء بالروضة الغناء في الاستطابة . وتشبيه جانبي البقاع بطرفي ملاءة حمراء . وتشبيه رائحة البقاع بريح المسك في الزكاة واستراحة النفس .

وقد سلك الناظم في هذه المجموعة مسلكه في المجموعة السابقة من إمتاعنا بالصور البلاغية من تشبيه ومجاز . فجاء وصفه حبيباً إلى النفس فيه روح وراحة وبهجه ورواء .

وقال ﷺ :

فإذا شمت أو شممت رباها　　لاح منها برق وفاح كباء

أي نور وأي نور شهدنا　　يوم أبدت لنا القباب قباء

فرمنها دمعـي وفـر اصـطباري فدموعي سـيل وصـبري جفـاء

فترى الركب طائرين مـن الشـو ق إلى طيبـة لـهـم ضوضـاء

فكأن الـزوار مـا مسـت البـأ ساء منـهم خلقـا ولا الضـراء

كل نفس منـها ابتـهال وسـؤل ودعـا ورغبـة وابتغـاء[1]

يقول ها نحن أولاء على مشارف المدينة فإذا نظرت ببصرك لاح وظهر لـك منهـا برق لامع من بهاء نورها ، وإذا شممت بأنفك شممت رائحة البخـور الطيـب الزكـي . فما أعظم النور المضيء الذي تراه . وما أبهى الزهور التي تتراءى أمام ناظريـك وأنـت بقباء إذ ترى قباب المدينة تزهو بمجدها . حينذاك انهمر دمعـى فأصـبح سيلا عارمـاً فرحاً باللقاء ، وما أرق بكاء الفرح ودموع المنال أما صبري فقد طار ولـم يكن عنـدي أدنى طاقة تحول بيني وبين لقاء الحبيب المصطفى ﷺ . لقد تبدد صبري حتـى أصبح كزبد السيل تفرقه هبات النسيم بله الرياح .

وكنت ترانا طائرين من الشوق ونحـن داخلـون طيبـة مـأوى الرسـول ﷺ وصـحبه الكرام . وعلى كثرة ما مسنا من مشقة السفر فقد زال عنا كل عناء حينما بلغنا أهدافنا وعند الصباح يحمد القوم السرى وهذا على حد قول الشاعر الحكيم :

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرهـا تنال إلا على جسر مـن التعـب

أجل . زال عنا كل العناء . فكأننا لم نكن على سفر طويل وارتفعت أكف الضراعة إلى السماء ترجو الخير مـن رب الـنعم مبـتهلين متوسـلين ، داعـين ، راغـبين مبـتغين الخير من مالك السموات والأرض ومن فيهن .

ذلك ما اشتمل عليه هذا النص من معنى . شرحناه مجملا أما ما قـد حفـل بـه مـن صور البيان . فإنك ترى الجناس الخفيف الظل في شمت وشممت ولاح وفاح وحسن التقسيم حيث جعل لاح للنظر . وفاح لحاسـة الشـم . واللـف والنشـر المرتـب حيـث يقول :

---

(١) شمت : نظرت . شممت . استروحت بحاسة الشم . رباها . جمع ربـوة المكـان العـالي لاح . ظهـر - فاح انتشرت رائحته . كباء: بخور نور الأولى بضم النون الضياء ونور الثانية بفتح النون وسـكون الـواو الزهر . جفاء . زبد . ابتهال . تضرع سؤل . وعاء وعطف عليه دعـاء عطـف تفسـير . ورغبـة . أمـل . ابتغاء . طلب المحبوب .

فإذا شمت أو شممت فقدم ما يختص بالنظر وأخر ما اختص بالشم ثم ذكر ما يناسب كلا منهما لاح وفاح مقدما هنا ما اختص بما قدم هناك وهكذا الثاني .

والجناس الرائع بين نور ونور فكلاهما مضيئان الضياء والزهد وزاد من روعة هذا الجناس ما صدره به من استفهام تعجبي زاده روعة وفخامة والجناس بين قباب وقباء . وبين قر وفر . والاستعارة المكنية في «فر اصطباري» حيث شبه الصبر بطائر ودل على هذا التشبيه بإثبات «فر» للصبر وهو من خصائص الطير . ثم التشبيه البليغ بين دموعي سيل ، وصبري جفاء والاستعارة التبعية في «طائرين» وقد أكسبت المعنى قوة وجمالا :

ثم انظر إلى مراعاة النظير في ابتهال وسؤل ودعاء ورغبة وابتغاء

وقال ﷺ :

وزفير تظن منه صدوراً	صادحات يتعادهن زقاء
وبكاء يغريه بالعين مد	ونحيب يحثه استعلاء
وجسوم كأنما رحضتها	من عظيم المهابة الرحضاء
ووجوه كأنما البستها	من حياء ألوانها الحرباء
ودموع كأنما أرسلتها	من جفون سحابة وطفاء[1]

يستتبع الناظم ما قدم من الأوصاف أوصافاً أخرى . منها أن صدور الركب كنت تسمع منها زفيراً من لهث أنفاسهم . وبكاء تمده سيول من الدموع ونحيب يرتفع شيئاً فشيئاً . فاغتسلت أجسامهم من هطول الدموع كأنهم محمومون يتصببون عرقاً . ولكنها حمى الشوق والحب . وليست حمى الوباء والاعتلال . تتغير ألوان وجوههم من المهابة والجلال.فتعود الدموع تزرف من جديد كأن سحابة تمدها من ماء غزير.

---

(١) الزفير والزقاء :صوتان خفيان ثانيهما أعلى وأقوى من أولهما وهما ينبعثان من الصدر . يغريه: يلفعه . مد : سيل . نحيب : البكاء بصوت يحثه يقويه . استعلاء : ازدياد في رفع الصوت بالبكاء رحضتها : غسلتها الرحضاء العرق المتصبب من الحمى . الحرباء : دويبة تتلون كثيرا لما تقدم . وطفاء : غزيزة المطر .

وقد أبى الناظم إلا أن يجعل الصدور طيوراً صادحات أنغاماً شجية . وإلا أن يجعل البكاء والنحيب في قبضة المد والاستعلاء . المد يقري البكاء والاستعلاء يدفع مطية النحيب . إنها صور عامرة بالحركة ثم أمعن النظر في هذه التشبيهات : جسوم كأنما رحضتها . ووجوه كأنما ألبستها ، ودموع كأنما أرسلتها . الأداة كأنما تكررت ثلاث مرات فلم يزدها التكرار إلا ألفة ورقة لاختلاف ما قبلها وما بعدها من المشبه والمشبه به . حتى ليخيل إليك أن الناظم قد أخذ على اللغة عهداً أن تمده بكل سلاح يحتاجه في التعبير عن شعوره في معركة طويلة كان النصر حليفه فيها بلا نزاع .

ثم قال ﷺ :

فخططنا الرحال حيث يحط الـ	ـوزر عنا وترفع الحوجاء
وقرأنا السلام أكرم خلـ	ـق الله من حيث يسمع الأقراء
وذهلنا عن اللقاء وكم أذ	هل صباً من الحبيب لقاء
ووجمنا من المهابة حتى	لا كلام منا ولا إيماء
ورجعنا وللقلوب التفاتا	ت إليه وللجسوم انثناء
وسمحنا بما نحب وقد يسـ	ـمح عند الضرورة البخلاء[1]

يقول : عندما وصلنا إلى روضة الحبيب وضعنا رحالنا من على نوقنا وقد وضعت عنا أوزارنا ورفعت رحالنا لكمال حجنا والفوز بزيارة نبينا القائل : «من زارني فقد وجبت له شفاعتي» وقرأنا السلام على أكرم خلق الله من مكان قريب يسمع من مثله إقراء السلام . ولشد ما ذهلنا عند لقائه عليه السلام وليس بعجيب ذهولنا فكثيراً ما ينهل المحبون عند لقاء أحبتهم ويحبسون أصواتهم إجلالا وتوقيراً . فما كنت تسمع منا كلاماً ولا ترى لنا إشارة وجوم في وجوم . وتفكير عميق .

وحين هممنا بالعودة التفتت إليه قلوبنا ، وشدت إليه أجسامنا فكنا كمن يدفع إلى الإمام ثم يرتمي إلى الخلف . لأنه «خلف» هو قبلة لكل أمام إننا قفلنا راجعين ونحن أضن ما يكون بجوار الحبيب ﷺ . ولولا الحاجات الملحة من رعاية الأولاد .

---

(١) حططنا الرحال : وضعنا أمتعتنا . الوزر : الذنب . الحوجاء : المطالب الإقراء : إلقاء السلام ذهلنا : دهشنا . صبا : محباً . وجمنا : صمتنا المهابة : العظمة . إيماء : إشارة . انثناء : رجوع . الضرورة : الحاجة الملحة .

والعمل من أجل كسب الرزق ما فارقنا حضرة المصطفى ﷺ . إن جواره لأمر عزيز علينا . ومع هذا فقد سمحنا ـ تحت ضغط الحاجات ـ بمفارقته . ونحن بخلاء بها ولكن البخلاء قد يسمحون بأعز ما يملكون إذا دعت إليه حاجة . وكأن الناظم أخذ هذا المعنى من قول الشاعر :

والله ما فارقتكم قالياً لكم ... ولكنما يقضى فسوف يكون

فارقناه بجسومنا . أما قلوبنا فمعه هناك ، وحيث كان ، لأنه قدوتنا المثلى .

توسل ورجاء في المقام الشريف

وقال رضي الله عنه :

يا أبا القاسم الذي ضمن إقسا ... مي عليه مدح له وثناء
بالعلوم التي عليك من الله ... بلا كاتب لها إملاء
ومصير الصبا بنصرك شهراً ... فكأن الصبا لديك رخاء
وعلي لما تلفت بعينيـ ... ـه وكلتاهما معا رمداء
فغدا ناظراً بعيني عقاب ... في غزاة لها العقاب لواء[1]

أشار الناظم منذ قليل إلى أن الركب كانوا يتوسلون عند قدومهم المدينة المنورة . فأخذ هنا يذكر طرفاً ممتعاً من ذلك التوسل فينادي الرسول عليه السلام بقوله : يا أبا القاسم وهو كنيته ﷺ والمراد بالإقسام مصدر أقسم على كذا . يقول من إقسامي عليه مدحه والثناء عليه بما هو أهله ولذا أقسم عليه الناظم بجلال العلوم التي أنزلها الله عليه وأقرأه إياها بلا كاتب سجلها . وأقسم عليه بتسخير الله الصبا له وهو ريح الشرق . وفي هذا إشارة إلى قوله عليه السلام : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » ونصره بالريح عليه السلام من الخصائص الخمس التي من الله به عليه وقد ذكر عليه السلام من تعدادها : « ونصرت بالرعب مسيرة شهر » أي أن الله كان ينصر رسوله بهبوب الريح على أعدائه وبينه وبينهم مسيرة شهر . ولهذا يقول الناظم « كأن الصبا لديك

(١) أبو القاسم : كنيته ﷺ . المدح : والثناء : ذكر أوصاف الكمال للممدوح والمثني عليه . إملاء : إلقاء وتسجيل الصبا : ريح الشرق . رخاء منقادة . رمداء : مريضة بالرمد . غدا . أصبح . عقاب : طير حاد النظر .

رخاء» أي طائفة منقادة كأنها جند من جنودك يسمع ويطيع . كما أقسم عليه بتصحيح عيني علي ﷺ حين دعاه في غزوة خيبر ليحمل الراية فجاءه علي يشكو رمداً في عينيه فتفل عليهما ﷺ فبرأتا وأصحبتا كعيني العقاب في القوة وحمل الراية السوداء التي كانت تشبه ـ كذلك ـ لون العقاب إذ هو أسود اللون . ولنا قال الناظم : «في غزوة لها العقاب لواء» وفي هذا مجاز بالاستعارة التصريحية الأصلية . وهذا من المواضع التي استثمر فيها الناظم اللفظ ، وقد عن له ، في أكثر من معنى واحد . وهي فضيلة يعز تحصيلها على كثير من الشعراء .

فإنه حين قال : فغدا ناظراً بعيني عقاب وجد في يده صيداً ثميناً أبا أن يفلته حتى وضعه في تمام البيت «في غزاة لها العقاب لواء» والجامع بين الطرفين هو مطلق اللون «السواد» أو لست معي أن هذا من مهارة الناظم .

وقال ﷺ :

وبريحانتين طيبهما منـ	ـك الذي أودعتهما الزهراء
كنت تؤويهما إليك كما آو	ت من الخط نقطتيها الياء
من شهيدين ليس ينسيني الطـ	ـف مصابيهما ولا كربلاء
ما رعى فيهما ذمامك مرءو	س وقد خان عهدك الرؤساء
أبدلوا الود والحفيظة في القـ	ـربى وأبدت ضبابها النافقاء
وقست منهم قلوب على من	ثبت الأرض فقدهم والسماء
فابكهم ما استطعت إن قليلا	في عظيم من المصاب البكاء[1]

يقول : وأقسم عليك بريحانتيك الحسن والحسين الطاهرين لأنهما ابنا فاطمة الزهراء ابنتك فطهارتهما من طهارتك التي أودعتها فاطمة ﷺ والذي وصف لريحانتين وقد أفرد مع أن الموصوف مثنى لأن الذي قد يقع موقع الجمع والمثنى ، وقيل أفرده للضرورة الشعرية ، ويجوز إبقاء اللفظ على ظاهره بدون حذف على أن

---

(١) ريحانتان : زهرتان والمراد بهما هنا الحسن والحسين ﷺ . طيب طهارة . الزهراء : فاطمة ﷺ . تؤوى : تضم . الطف : مكان قريب من كربلاء بالعراق . رعى: حفظ ذمامك : حرماتك . الود : الحب الحفيظة : الحمية والدفاع . النافقاء : بيت اليربوع . والضباب : اليرابيع .

يكون وصفاً «لطيبها» إذ هو مفرد، وتكون تثنية الصلة باعتبار أن الطيب وإن كان مفرداً فقد أضيف إلى مثنى فاكتسب التثنية من الإضافة، فلكل منهما طيب.

وأشار بقوله: كنت تؤويهما. إلى ما هو معروف من أن النبي عليه السلام كان يضمهما إلى صدره ويجلسهما على فخذيه ويقول: هما ريحانتاي من الدنيا. وأراد الناظم أن يزيد المعنى توضحياً فلجأ إلى صورة مبتكرة فشبه هذا الضم بقوله: «كما أدت من الخط نقطتيها الياء» مراعياً في وجه الشبه قرب نقطتي الياء منه.

ولنا مأخذ على هذا التشبيه، لأن نقطتي «الياء» تكونان تحته ولو أن الناظم قال: التاء بدل الياء لكان أجمل لأن نقطتي التاء تكونان في كنفه ليستا تحته. وعلى أي فإن الصورة كما أشرت من قبل مبتكرة فيها جدة وحسن حيلة.

واستطرد في مناقب الحسن والحسين فقال: «من شهيدين» لأن الحسن مات بالسم الذي وضعته له زوجته جعدة الكندية حين أوعز إليها يزيد بن معاوية بذلك زاعماً أنه سيتزوجها لو فعلت فلما قتلته بالسم رفض أن يتزوجها وأما الحسين فأمر شهادته معروف إذ قتل شهيدا بكربلاء. يقول الناظم إن الطف وكربلاء لاينسيانه روعة المصاب فيهما ويخاطب الرسول فيقول إن المرءوسين والرؤساء كلهم لم يراعوا حرماتك فاعتدوا على ابني بنتك ﷺ قتلا بالسم وبالسلاح وأبدلوا الحب الواجب لهم بالبغض والاعتداء وقست قلوبهم على فقيدين بكت الأرض والسماء فقدهما وهذه مبالغة في عظم المصاب بهما ثم التفت الناظم يخاطب كل من يسمع فيقول: ابكهم ما وسعك البكاء فإن المصاب العظيم لايفي بحقه البكاء ومهما بلغ فهو قليل بجانبه. وهو في هذا مقتد بالخنساء إذ تقول في رثاء أخيها صخراً:

إذا قبح البكا على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وسوف يصرح الناظم بعد قليل باقتدائه بالخنساء فكل منهما يبكي مصابا فادحاً. وفاجعة نكراء.

ثم قال ﷺ:

كل يوم وكل أرض لكربي منهم كربلاء وعاشوراء

آل بيــت الــنبي إن فــؤادي — لــيس يســليه عــنكم التأســاء
غير أني فوضت أمــري إلى اللــ — ــه وتفويضــي الأمــور بــراء
رب يــوم بكــربلاء مســيء — خففــت بعــض وزره الــزوراء
والأعــادي كــان كــل طــريح — منهم الزق حل عنــه الوكــاء[1]

يقول : لم أنس ما حل بآل بيت النبي عليه السلام ، فقد أصبحت مكروباً منذ علمت بما حدث ومأساتهم لاتغيب عن خاطري . فكل أرض أحل بها هي كربلاء التي قتل فيها الإمام الحسين . وكل يوم يمر بي هو عاشوراء اليوم الذي قتل فيه الإمام الكريم . وهل ينسى الإنسان محنة يعيش على أرضها وفي زمنها .

يا آل بيت النبي إن بكائي لكم دائم لايزول ولن ينسينه شيء ولو صبوا عليَّ العذاب صباً وأنزلوا بي من الشدائد ما أنزلوا فقلبي وفي أمين ولأن الوفاء لكم أمر عظيم التبعة قد تقصر عنه طاقاتي فقد فوضت أمري إلى الله ومن يفوض أموره إلى الله بعد بذل ما عليه . فقد برئ ونجا والله هو المستعان في كل الأمور .

يا آل بيت النبي إن نفثة المكروب بمأساتكم الظالمة فقد يخفف وقعها ما قام به بعض بني العباس بالزوراء حين أخذوا ببعض ثأركم وانتقموا من ظالميكم فطرحوا أعداءكم على الأرض تسيح دماؤهم كأنهم آنية خمر طرحت على الأرض وحلت أربطتها .

وبلاغيات هذه المجموعة تراها في البيت الأول حيث جمع فيه بين شبه الجناس في كربي وكربلاء واللف والنشر المشوش حيث ذكر اليوم ، ثم الأرض وذكر ما يخص كلا منهما مقدماً ما أخر ، ومؤخراً ما قدم وذلك لأن عاشوراء التي كان حقها التقديم أخرت من أجل الوفاء بحق القافية لأن وزنها العروضي في هذا البيت أنسب للقافية من وزن كربلاء .

---

(١) كربي : همي وحزني . كربلاء : الموضع الذي قتل فيه الإمام الحسين ﷺ وعاشوراء اليوم الذي وقع فيه قتله . يسليه : يلهيه . التأساء : الشدائد والمحن . فوضت . تركت . براء : خلاص . الزوراء : موضع بالعراق قام به بعض خلفاء بني العباس وثأروا لمقتل الحسين طريح : ملقى على الأرض الزق : إناء الخمر . الوكاء : الرباط .

كما أن لتأكيد الجملة بأن وفعلية الخبر في «يسليه» ما لايخفى أثره في قوة التعبير ومناسبته للمقام . وتأمل روعة التذييل التقريري في قوله : «وتفويضي الأمور براء» وشبه الجناس في وزره والزوراء وجمال التشبيه الرائع حقاً في تشبيه صرعى القوم تسيل دماؤهم بأواني الخمر الملقاة على الأرض نزعت عنها أوكيتها .

وقال ﷺ :

آل بيت النبي فطاب الـ ـمدح لي فيكم وطاب الرثاء
أنا حسان مدحكم فإذا نحـ ـت عليكم فإنني الخنساء
سدتم الناس بالتقي وسواكم سودته البيضاء والصفراء[1]

في هذه الأبيات الثلاثة يخاطب الناظم آل البيت فيقول : لقد سدتم الناس بمكارم الأخلاق ، ونبل السيرة ، وطهارة السريرة . ففضلكم أصيل راسخ لأن دعائم القيم الفاضلة التي يعيش بها ولها الصالحون أمثالكم قدوة السائرين ، ومنار السالكين .

أما فضل غيركم فإن مرجعه إلى مظاهر زائفة من مال أثراهم . أو منصب أغراهم وهي مظاهر لاثبات لها شأنها شأن سحابة صيف سرعان ما تتبدد وتزول .

وقد هداني الله مولى النعم بأن اتخذكم لي قدوة على منوالها أنسج ، وعلى هداها أسير . أحبكم فأبدع في مدحكم بما أنتم أهله . وأذكر ما حدث لكم فأنوح عليكم . أمدحكم راجياً ، وأرثيكم وفاء . فأنتم أهل للرجاء والوفاء .

أمدحكم صادقاً كما مدح حسان سيد المرسلين ، وأنوح عليكم مخلصاً كما ناحت الخنساء ابنة عمرو بن الشريد أخاها صخراً ، وكلاهما جمع إلى جمال المضمون جمال الصورة . وها أنذا أقتفي أثرهما في كل ما صنعا جامعاً بين صدق المعنى وجمال اللفظ . ونور على نور والله يهدي لنوره من يشاء فطاب مدحكم وطاب رثاءكم .

وأدعوك عزيزي القارئ أن تتذوق جمال التشبيه في قوله :

أنا حسان مدحكم فإذا نحـ ـت عليكم فإنني الخنساء

---

(١) طبتم : حسنتم . الرثاء : ذكر حسنات الموتى . نحت : بليت البيضاء والصفراء : الفضة والذهب . أي كان فضل غيركم بالمال وفضلكم بالتقوى والورع والعمل الصالح . سدتم : أصبحتم سادة .

حيث شبه نفسه بحسان بن ثابت في المدح . وبالخنساء في الرثاء والنوح واربط بين هذا البيت والبيت الذي قبله : فطاب المدح لي فيكم والرثاء تجدهما يتعانقان في إلف والتئام . أولست معي ـ كذلك ـ بأن هذا من الغرر الفرائد التي أجاد الناظم صوغ الكثير منها في هذه التحفة النادرة العصماء .

وقال ﷺ :

التوسل بالصحابة رضي الله عنهم

وبأصحابك الذين هم بعـ ـدك فينا الهداة والأوصياء

أحسنوا بعدك الخلافة في الديـ ـن وكل لما تولى إزاء

أغنياء نزاهة . فقراء علماء أئمة أمراء

زهدوا في الدنيا فما عرف الميـ ـل إليها منهم ولا الرغباء

أرخصوا في الوغي نفوس ملوك حاربوها ، أسلابها إغلاء

رضي الله عنهم ورضوا عنـ ـه فأنى يخطو إليهم خطاء

كلهم في أحكامه ذو اجتهاد وصواب وكلهم أكفاء

جاء قوم من بعد قوم بحق وعلى المنهج الحنيفي جاءوا

ما لموسى ولا لعيسى حواريـ ـون في عدهم ولا النقباء[1]

بعد أن توسل الناظم بشمائل الرسول عليه السلام ، وتوسل بآل بيته الكرام طفق في هذه المجموعة يتوسل بأصحابه ﷺ واصفاً لهم وصفاً جامعاً بالإحسان بعده في السيرة والخلافة ، وانتهاج نهجه في أمور الدين والدنيا . وكفاءتهم في كل ما تقلدوه من تبعات . وبأنهم ملكوا الدنيا بالزهد فيها وعدم الافتتان بها خلت أيديهم من ثروات المال ، وغنيت أنفسهم بخلال الكمال فهم أعفة نزهاء . علماء قادة شجعان أخضعوا الملوك الجبابرة ،وأرخصوا دماءهم في ميادين القتال. وغنموا أسلابهم النفيسة الغالية .

---

(١) تولى : تصدى . الرغباء : الطمع فى نعم الدنيا . الوغى : الحرب أسلابها : جمع سلب وهو ما تركه قتيل الحرب من سلاح وغيره . إغلاء : أي غالية الثمن . أنى يخطو خطاء : كيف ينسب إليهم الخطأ . أكفاء : جمع كفء وهو الجدير بأداء ما وكل إليه . المنهج : الطريق . حواريون : صفوة مخلصون . نقباء : جمع نقيب وهم المعروفون بأصحاب موسى عليه السلام .

هم فرسان في الحرب . فقهاء مجتهدون موفقون في إدراك الأحكام . أمناء الأمة في هدايتها إلى الحق ، ورعاية مصالحها . وجاء بعدهم تابعوهم فلم يحيدوا عن الطريق نصروا الحق وأخلصوا للدين ، هم صحابة الصحابة فحبهم بالرسول موصول العرى ، وكلهم بحبل الله معتصمون .

إنها صفوة ممتازة خلقا ، لا تحصى عداً التفوا حول الرسول القائد فكانوا أنجما زهراً ، لم يكن لموسى عليه السلام مثلهم ، ولم يكن لعيسى عليه السلام مثلهم . وإن كان لموسى نقباء ، ولعيسى حواريون .

ففضل أصحاب محمد عليه السلام على نقباء موسى ، وحواريي عيسى عليهم السلام ، كفضل محمد على موسى وعيسى وسائر الرسل صلوات الله عليهم أجمعين ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ (الفتح: ٢٩).

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الحديد: ٢١).

وقال رضي الله عنه :

بأبي بكر الذي صح للنا	س به في حياتك الاقتداء
والمهدي يوم السقيفة لما	أرجف الناس أنه الدأداء
أنفذ الدين بعدما كان للديـ	ـن على كل كربة إشفاء
أنفق المال في رضاك ولا منـ	ـن وأعطى جماً ولا إكداء[1]

توسل الناظم في هذه الأبيات بأول الخلفاء الراشدين أبي بكر رضي الله عنه فذكر من مناقبه أنه أم الناس في الصلاة حال مرض رسول الله ﷺ بأمر منه عليه السلام وهذه منقبة لم

---

(١) الاقتداء : المتابعة : المهدي : المسكن . يوم السقيفة : يوم سقيفة بني ساعدة حيث اجتمع الأنصار للتشاور فى خلافة رسول الله بعد وفاته . . أرجف : زعزع الدأداء . الفتنة : كربة . غم إشفاء قرب جما . كثيرا إكداء منع وبخل .

يحزها أحد غير أبي بكر ﷺ . ومما يزيد من فضلها أن الرسول عليه السلام كرر الأمر مرات فكان يقول مروا أبا بكر يصلي بالناس ومازال يكررها حتى أنفذ أبو بكر الأمر .

والمنقبة الثانية أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قام بأعظم دور في جمع صفوف المسلمين بعد وفاة الرسول عليه السلام . حين اجتمع الأنصار في ثقيفة بني ساعدة للاستشار بأمر الخلافة ، وكانوا يرون أنهم أحق الناس بها لهجرة الرسول إليهم ونصرتهم للإسلام ، وانتحى المهاجرون جانبا يتشاورون في أمر الخلافة راجين أن يئول لهم الأمر لقرابتهم من رسول الله ﷺ . وكادت بوادر الخلاف تنمو وتتصاعد لولا أن تدارك أبو بكر الأمر . وعالج الموقف بحكمة وفطنة وأقنع الأنصار بالحل الذي رآه وبايع عمر بالخلافة ولكن عمر رد هذه البيعة وبايع أبا بكر . وبعد حوار لم يطل بين الشيخين الجليلين بايع الناس أبا بكر فقاد الأمة في أحرج ساعة تمر بها بعد وفاة النبي الكريم ﷺ ولولا هذا التدبير وذاك الوفاق الذي هدى الله إليه المسلمين لحلت بالأمة كارثة ما كان يعلم مداها إلا الله ولكن الله سلم إن الله فعال لما يريد .

وكيف تتعرض الأمة لأزمة طاحنة وقد ربى رسول الله ﷺ رجالا صالحين للاضطلاع بأخطر المسئوليات وهكذا أثبت التاريخ الأمين .

أما المنقبة الأخيرة التي سجلها الناظم لأبي بكر ﷺ إنفاقه في سبيل الله وقد ورد في هذه المنقبة نصوص مختلفة على رأسها قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ (الليل:١٧-٢١) قال ابن الجوزي أجمعوا على أنها نزلت في أبي بكر ﷺ.وكان عليه السلام يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه.

وعلى كثرة ما كان ينفق من مال كان لايمتن به بل يدخره عند الله وكان عطاؤه في سبيل الله كثيراً يؤتيه وهو سخي النفس قرير العين . هذا ولم يكن مراد الناظم إحصاء مناقب أبي بكر وإلا لما توقف عند هذا الحد فأبو بكر أول من آمن بالدعوة من الرجال ، وأول من أعطى النبي ثقته الكاملة يصدقه في كل ما يقول حتى سمى

«الصديق» وهو رفيقه في الهجرة وأحد وزرائه الذين كان يقدر مشورتهم في مهام الأمور،ولذا فقد أخذ برأيه في أسرى بدر فرضوان الله عليه من رجل تقي سخي أمين.

وقال ﷺ:

وأبي حفص الذي أظهر اللـــ	ـه به الدين فارعوى الرقباء
والذي تقرب الأباعد في اللـــ	ـه إليه وتبعد القرباء
عمر بن الخطاب من قوله الفصـــ	ـل ومن حكمه السوي السواء
فر منه الشيطان إذا كان فارو	قاً فللنار من سناه انبراء[1]

وفي هذه الأبيات الأربعة توسل الناظم بثاني الخلفاء الراشدين عمر ابن الخطاب ﷺ فذكر من مناقبه ما يلي:

إن الله تعالى أظهر به الدين، مشيراً بذلك إلى ما حدث بعد إسلام عمر ﷺ فقد طلب من الرسول أن يظهر الدعوة وكان الرسول قبلا يجتمع في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي هو ومن اتبعه يبصرهم بمقاصد الدين. فخرج المسلمون في صفين كان عمر في أحدهما وحمزة في الثاني فساروا حتى دخلوا المسجد الحرام ففزعت قريش من إسلام عمر وكان حمزة قد أسلم قبله بثلاثة أيام. وقالت قريش: اليوم انتصف القوم، أي صار المسلمون يعادلون في القوة لا في العدد نصف أهل مكة لما كان لحمزة وعمر من قوة وشجاعة ومهابة، يقول عبد الله بن مسعود مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، وقال أيضاً: كان إسلامه فتحاً وهجرته نصراً، وإمامته رحمة، ولهذا سماه الرسول الفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل وبعد إسلام عمر وحمزة نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال:٦٤).

وقد أخاف إسلام عمر الكثيرين ممن كانوا يلحقون بالمسلمين الأذى فكفوا عن أذاهم خوفاً من بطش عمر، والحديد، كما يقال، لايفله إلا الحديد ومعلوم أن الذين خلت قلوبهم من الإيمان لا يرهبون إلا القوة المادية لذلك خاف المشركون عمر، ولم يخافوا الله.

---

(١) أبو حفص: كنية عمر ﷺ. ارعوى: رجع واستقام. الرقباء: الأعداء والمتربصون للإفساد. الفصل: البين الواضح. السواء: الاعتدال. انبراء: انمحاء وزوال.

المنقبة الثانية أن عمر كان يعامل الناس على أساس طاعتهم لله فمن أطاع الله قربه منه ولو كان بعيداً عنه في النسب ، ومن عصى الله أبعده عنه ولو كان قريباً منه في النسب ، ولهذا فإن عمر أقام حد شرب الخمر على أحد بنيه فجلده غير راحم ولم تحمله قوة الصلة على تعطيل حكم الله فيه ، يقول كعب الأحبار : « إن عمر قرن من حديد ، عمر الحق لم يترك له صديقاً » أي أن عمر كان شديداً في الحق ، وليس قول كعب محمولاً على حقيقته في نفي صداقة الناس لعمر ، فما أكثر أصدقاءه من أصدقاء الحق والعدل . .

والمنقبة الثالثة هي الإشارة إلى سداد رأي عمر ، ويكفيه شرفاً أن القرآن نزل مؤيداً لرأيه في أحد عشر موضعاً ، منها مسألة الحجاب الذي أشار به على النبي ﷺ لتخفي النساء محاسنهن ومنها ما أشار به في أسرى غزوة بدر ، وليس معنى هذا أن عمر ﷺ كان معصوماً من خطأ الاجتهاد في أمور الدين والدنيا ، فقد نفي أن يكون الرسول قد مات وهدد من يقول بذلك بضرب عنقه بالسيف لولا أن أرشده أبو بكر إلى الصواب وسرعان ما استجاب وقد عارض أبا بكر في محاربة مانعي الزكاة معارضة شديدة فلما أبان أبو بكر الصواب سارع باتباعه .

وكان يوماً يخطب فنهى الناس عن المغالاة في المهور فعارضته امرأة وذكرته بقول الله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ فآب إلى رشده وقال قولته المعروفه « امرأة أصابت وأخطأ عمر ».

وليس هذا منقصاً من فضله ﷺ . فإن الرضوخ إلى الحق فضيلة أثقل مؤنة من الاهتداء إليه ابتداء ، فرحم الله عمر من رجل حكيم عليم أمين .

أما المنقبة الرابعة فهي ما ذكره من فرار الشيطان منه ، وهذه الكلمة ، يراد منها هنا حقيقتها ومجازها .

أما الحقيقة فلما رواه بعضهم من أن الرسول عليه السلام قال لعمر : « والذي نفسي بيده مالقيك الشيطان سالكا طريقاً إلا سلك طريقاً غير طريقك » ولهذا الحديث نظائر تسانده وتقويه . وهذا هو جانب الحقيقة في العبارة .

أما جانب المجاز فلأن شياطين الإنس من الكفار والمشركين كانوا إذا أبصروا عمر
ثراً في طريق خالفوا طريقه إلى طريق أخرى فراراً منه ﷺ .

وفي هذه الأبيات من البلاغة ما تراه في المجاز التمثيلي في قوله : أظهر الله به
ين . والعكس والتبديل في قوله : تقرب الأباعد ، وتبعد الأقارب والطباق في تقرب
باعد ، وتبعد الأقارب . وهذا التعبير كله كفاية عن إخلاصه العمل لله .

وقد أشرنا قبلا إلى المجاز والحقيقة في كلمته « الشيطان » وبها مجاز في كلمة
ر » مراد بها سرعة الهرب منه ، وبها مجاز أيضا في تشبيه الشيطان بالنار وللشيطان
نار صلة وثيقة مبدأ ومعاداً . وفي تشبيه هروب شياطين الإنس والجن منه بالانبراء
و الانمحاء كما تقدم ترشيح لهذا المجاز . كما تلحظ جناسا بين السوي والسواء
، غير ذلك من الوثائق التي يضيق بها المقام .

وقال ﷺ :

التوسل بعثمان بن عفان ﷺ

وابن عفان ذي الأيادي التي طال	إلى المصطفى بها الإسداء
حفر البئر ، جهز الجيش ، أهدى	الهدى لما أن صده الأعداء
وأبى أن يطوف بالبيت إذا لم	يدن منه إلى النبي فناء
فجزته عنها ببيعة رضوا	ن يد من نبيه بيضاء
أدب عنده تضاعفت الأعـ	ـمال بالترك حبذا الأدباء[1]

وهذا توسل بعثمان ﷺ وعد لبعض مناقبه التي ذكر منها بذله ماله في سبيل الله ،
ن ذلك البذل أن النبي عليه السلام قدم المدينة وليس بها ماء عذب إلا بئر عند
ودي يحتكر ماءها فرغب الرسول عليه السلام الناس في شرائها وإصلاحها . فسارع
ثمان وكان من أثرياء القوم فاشتراها من اليهودي بمال كثير ووقفها لمصالح
مسلمين . وهي البئر المسماة بـ« بئر رومة » ويقال إنها باقية الآن ، وهي من
صدقات الجارية .

---

[1]) ذي : صاحب . الأيادي : النعم . الإسداء : الإعطاء . صده : منعه . فناء : فناء البيت : رحبته .
تضاعفت : تكاثرت .

ومن ذلك البذل أن عثمان ﷺ كان قد جهز جيش العسرة في غزوة تبوك ، فقد للنبي عليه السلام ثلاثمائة بعير معدة للاستعمال في الحرب .

ومن مناقبه ﷺ أنه حين أرسله الرسول عليه السلام عام الحديبية إلى مك ليتفاوض مع قريش سنة ست من الهجرة ، قدم عثمان إلى مكة ومعه هديه الذي ساة إلى البيت ، وتوقف الرسول عليه السلام ومن معه فلما تم الاتفاق بين النبي علي السلام وبين قريش على تأجيل العمرة في تلك السنة على أن يقدم في السنة التالي للاعتمار ، عاد الرسول وأصحابه إلى المدينة ومعهم هديهم إلا هدي عثمان فقد أهد إلى البيت حين قدم إلى مكة ، فاعتبر الناظم هذا العمل خصوصية نادرة وقعـ لعثمان ﷺ .

ومن مناقبه ﷺ أنه حين قدم مكة وتفاوض مع عظماء قريش أبوا أن يدخا الرسول مكة في عامه وعرضوا على عثمان البيت وقالوا له : طف أنت إن شئت ود محمداً ومن معه ، فأبى عثمان أن يطوف إلا إذا سمح للرسول عليه السلام بالطواف فلما أصروا على رفضهم السماح له عليه السلام رفض هو أن يطوف تأدباً مـ الرسول ، ومع أن هذا العمل ترك للعبادة فقد ضاعف الله فيه الأجر وكأنه وقع مـ طوافات متعددة وليس تركا للطواف وإلى هذا أشار الناظم بقوله :

أدب عنده تضاعفت الأعـ ـمال بالترك حبذا الأدباء

وحين علم الرسول بالخبر الذي يقول إن قريشاً قتلت عثمان ، وكانوا قد حبسو فترة جمع عليه السلام أصحابه فبايعوه على القتال رداً على قتل عثمان وأخذ كل منه يضع يده في يمنى الرسول ويبايعه تحت الشجرة . فلما فرغوا وضع النبي علي السلام يمناه على يسراه وقال هذه بيعة عثمان . فكان في ذلك شرف عظيم لعثما نفسه عليه رضوان الله ، وقد سميت هذه البيعة ببيعة الرضوان ؛ لأن الله قد رضي عـ أهلها كما جاء في القرآن الكريم ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ وإلى هذه الواقعة يشير الناظم بقوله :

فجزته عنها ببيعة رضـ ـوان يد من نبيه بيضاء

وقد استعان الناظم على بيان فكرته في هذه الأبيات بصور بيانية منها المجاز لمرسل في «الأيادي» بمعنى النعم . والمجاز العقلي وطال الإسداء لأن فاعل الإطالة هو عثمان أما الإسداء فمفعول . وأراد من ذلك المبالغة في كثرة البذل . والكفاية في قوله : «إذ لم يدن منه إلى النبي فناء» فهو كناية عن السماح بالطواف للرسول عليه السلام . ثم المجاز المرسل في «جزته يد» لأن المجازى هو الرسول عليه السلام . وعلاقة المجاز فيه هي الجزئية ، ثم كنى عن شرف النعمة في هذا الجزاء بالبياض في قوله : «يد بيضاء».

ونكر كلمة «أدب» للتعظيم . وفي قوله : «تضاعفت الأعمال بالترك» اعتبار لطيف زها به التعبير ورق .

وقال ﷺ :

التوسل بالإمام علي كرم الله وجهه

وعلـي صنو النبي ومن د	ين فؤادي وداده والولاء
ووزير ابن عمه في المعالي	ومن الأهل تسعد الوزراء
لم يزده كشف الغطاء يقيناً	بل هو الشمس ما عليه غطاء[1]

وفي هذه الأبيات الثلاثة يتوسل الناظم بابن عم رسول الله ﷺ وهو الإمام أبو الحسن والحسين وزوج ابنة الرسول فاطمة الزهراء . فذكر في مناقبه أنه صنو النبي عليه السلام لأنه ابن عمه والصنوية هنا مجازية لاحقيقية لأن الرسول يقول : «عم الولد صنو أبيه» لأن الأخوين من أصل واحد هو أبوهما أما ابن العم فليس فرع ابن عمه فحمله هنا على التشبيه أو المجاز المرسل . ولهذه القرابة النسبية والسبق إلى الإسلام قال الناظم أن قلبه يدين لعلي ﷺ بالحب والولاء والمناصرة .

أما المنقبة الثانية فهو وزارته ﷺ للرسول عليه السلام ونيابته له في إدارة الشئون العامة . من ذلك نيابته له ليلة الهجرة حيث نام على فراش الرسول عليه السلام ثم أصبح فوزع الأمانات على أهلها التي كانت في عهدته ﷺ ثم لحق به في دار الهجرة .

---

(١) صنو : فرع . الولاء : المتابعة الوزير : العضد والمساعد . الغطاء : الحجاب .

ومنها نيابته له على المدينة حيث خرج عليه السلام في غزوة تبوك . وقد تلقف هنا بعض المنافقين فأرجفوا وقالوا : ما ترك محمد عليا إلا تخلصاً منه . فركب علي جواده وأدرك رسول الله وهو في الطريق إلى تبوك وقال أتتركني مع النساء والصبيان يا رسول الله؟ فقال عليه السلام : «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي» هذا الحديث وإن كان فيه مكرمة لعلي كرم الله وجهه من حيث أن الرسول عليه السلام وضع فيه ثقته فولاه أمر المدينة حال غيبته عنها فإن فيه بادرة من بوادر صدق النبوة . لأن الرسول حينما قال : «غير أنه لانبي بعدي» كان قد لمح إلى بقاء علي حياً بعد وفاته هو عليه السلام . ومنها حمله الراية يوم خيبر .

وكان علي ﷺ أميناً في وزارته لمحمد عليه السلام ولذا أشار الناظم بقوله :

ومن الأهل تسعد الوزراء

أما قوله : لم يزده كشف الغطاء يقيناً ، فقد أشار فيه إلى قول علي ﷺ : لو كشف عني الغطاء لم أزدد يقيناً وهذا كناية عن بلوغه الدرجة القصوى من اليقين والإيمان حتى ليستوي عنده البرهان العقلي الفكري والبرهان المادي الحسي . والمعنى في هذا محمول على المبالغة وإلا فإن عين اليقين أقوى من علم اليقين . فعلم اليقين يكون بالتأمل في البراهين والأدلة أما عين اليقين فتكون بالمشاهدة . ولهذا طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى فلما قال له ربه :«أو لم تؤمن؟» قال : «بلى ولكن ليطمئن قلبي».

أما قول الناظم :«بل هو الشمس ما عليه غطاء» فإن بعض الشراح يحمله على علي ﷺ . فيجعله وصفاً له بمعنى أنه ظاهر العقل لايجهل ذلك عنه أحد . . ولكن من يدقق الفهم في النص الذي صاغ عليه الناظم هذا البيت يدرك في ثبات أن الناظم أراد بالضمير في قوله «بل هو» اليقين نفسه وليس علياً . هذا هو المناسب لشطر البيت الأول . وبهذا يصبح الشطر الثاني تذييلا مؤكداً لمعنى الشطر الأول ويكون المعنى على هذا :

لقد بلغ علي ﷺ درجة اليقين القصوى وثبت لديه من علم اليقين وألا يزداد معه شيئاً وإن كشفت له كل الحجب فرأى اليقين مشاهدة . لأن اليقين الحق واضح عنده

ضوح الشمس لا حجب عليها . ويؤيد هذا الفهم أن حديث الناظم هنا ليس في جلية ما هو غامض في علي ﷺ . بل حديثه في وضوح الحق عنده وضوحاً لاريب به . وأياً كان المشبه فإن الشمس هي المشبه به تشبيهاً بليغاً وقوله بعدها ما عليه غطاء تتميم أو احتراس بالغ القوة . لأن هذه العبارة تفيد معنى لايمكن فهمه بدونها . حين شبه الناظم علياً كما يرى بعض الشراح ، أو الحق ، كما نرى نحن حين شبهه الشمس رفع بقوله ما عليه غطاء توهم أن تكون تلك الشمس قد اكتنفتها بعض سحب والغيوم وكثيراً ما هذا للشمس هنا . كما انتفع الناظم من طريق غير مباشر قوله تعالى حكاية عن موسى ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ في قوله هو : ومن أهل تسعد الوزراء» فجاء قوله هذا مكينا في موضعه ولفظه ومعناه .

وقال ﷺ :

عود إلى التوسل بالصحابة

وبباقي أصـحابك المظهـر التـر	تيـب فينـا تفضـيلهم والـولاء
طلحـة الخـير المرتضـى رفيقـا	واحـداً يـوم فـرت الرفقـاء
وحواريـك الـزبير أبي القـر	م الـذي أنجبـت بـه أسمـاء
والصفيين توأمي الفضـل سـعد	وسـعيد إذ عـدت الأصـفاء
وابن عوف من هونت نفسه الـد	نيـا ببـذل يمـده إثـراء
والمكـي أبـو عبيـدة إذ يعـزي	إليـه الأمانـة الأمنـاء
وبعميـك نـيري فلـك المجـ	ـد وكـل أتـاه منـك إتـاء
وبـأم السـبطين زوج علـي	وبنيهـا ومـن حوتـه العبـاء
وبأزواجـك اللـواتي تشرفـ	ـن بـأن صـانهن منـك بنـاء
الأمـان الأمـان إن فـؤادي	مـن ذنـوب أتيتـهن هـواء[1]

---

(١) المرتضية : الذي ارتضينه حواري الرجل . أحباؤه ومخلصوه أبي القرم : كنية ابن بنت أبي بكر ﷺ وهو عبد الله أبي حبيب بن الزبير . أنجبت : أي أثمرت ولدا نجيبا توأمي الفضل : قربى الفضل . الأصفياء : الخلصاء إثراء غنى . يعزى : ينسب إتاء . فضل: السبطين: الحسن والحسين ﷺ وهي فاطمة الزهراء ﷺ حوته: ضمته بناء : زواج . هواء . فراغ .

عاد الناظم مرة أخرى يقسم على النبي متوسلا بالصحابة ﷺ . وقد صور هذ المجموعة ببيت أجمل فيه المراد ثم فصل في الأبيات التسعة التالية بادئاً بطلحة الخير ﷺ واسمه طلحة بن عبد الله القرشي السهمي وسماه الرسول عليه السلا طلحة الخير . وطلحة الفياض ، وطلحة الجود . وقد حاز طلحة هذا أمهات الفضائ في صدر الإسلام .

فهو أحد العشرة المبشرين بالجنة . وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام وعضو مجلس الشورى في أمر الخلافة بعد عمر ﷺ وكانوا ستة رجال مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض . وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر ﷺ .

أما سبب تسميته طلحة الخير والفياض والجود فقد كانت له أرض باعها بسبعمائ ألف دينار أنفقها على الفقراء والمساكين في يوم وليلة تاليين لبيعها ولم يبق من ثمنه شيئاً ، وكان له دخل من أرض العراق فكان يكفي حاجة المحتاجين من أقربائ وغيرهم .

وهو من الذين ثبتوا حول الرسول يذبون عنه كيد المشركين في غزوة أحد حين فر الجنود فضربه العدو حتى شج وجهه وشلت يده وبقيت شلاء حتى مات ، يومه قال عليه السلام : « لقد أوجب طلحة » أي أوجب لنفسه الجنة .

وقد وقع في كلام الناظم إيهام في قوله : « المرتضية رفيقاً واحداً » لأن طلحة لم يكن وحده مع الرسول في أحد حين فر الناس بل كانوا سبعة من الأنصار وسبعة من المهاجرين هو واحد منهم فقوله : « رفيقا واحداً » لا وجه له .

لذلك يرجح بعض العلماء أن النص هكذا « المرتضية رفيقاً أحد » ويكون في التعبير مجاز عقلي لأن « أحد » على هذا هو فعل الارتضاء أما إذا جعلنا الفاعل هو الرسول عليه السلام فيحمل كلام الناظم حينئذ على أن طلحة كان أول من بادر بالدفاع عنه ﷺ ثم تابعه الآخرون أو أن لطلحة موقفاً آخر كان فيه الرفيق الوحيد للنبي عليه السلام وهذا يحتاج إلى دليل فالأولى هو التوجيه الأول .

ولطلحة هذا مناقب كثيرة غير ما ذكر والناظم في تناوله لهذه المناقب سواء لطلحة أو لمن سبقه من الصحابة لم يرد الاستقصاء بل أراد التمثيل لكل بما سمح به المقام . وقد أشرنا إلى هذا من قبل عند الحديث عن مناقب أبي بكر ﷺ .

ومضى في تفصيل ما أجمل فتذكر الزبير بن العوام القرشي ابن صفية عمة الرسول عليه السلام فهو ذو رحم ماس به ﷺ . وقد حاز الزبير فضائل جمة فوق فضيلة القرابة النبوية . فهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام . وعضو مجلس الشورى الذي أنشىء بتوجيه من عمر بن الخطاب ﷺ ، وهو من الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض ، وأحد الرجال المشهود لهم بالشجاعة والفروسية . ومن الذين شهدوا بدراً ، وكان يعتم بعمامة صفراء ونزل الملائكة بعمائم صفر في بدر مثل عمامته ، وكانت له مآثر جليلة يوم فتح اليرموك حيث اخترق صفوف الروم مرتين واشترك في فتح مصر مع عمرو بن العاص . وكان كريما جواداً ينفق كثيراً في قضاء حوائج الناس . وله فوق ذلك كثير من المناقب الفاضلة وهو الذي وصفه رسول الله ﷺ بأنه حواريه أي ناصره والمخلص له .

وسعد بن أبي وقاص بن مالك القرشي ، وهو أحد الثمانية السابقين إلى الإسلام وعضو مجلس شورى الخلافة ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة . وأحد الشجعان المشهورين . وهو أول من رمى بسهم في سبيل الله وكان يسمى فارس الإسلام وشهد كل المشاهد مع رسول الله ﷺ ، ورمى يوم أحد ألف سهم في صدور الأعداء ، وهو آخر المهاجرين موتاً .

وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل القرشي العدوي أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وممن شهد بدراً ، وقد جمع الناظم بين سعد وسعيد في الكلام لاتفاق اسميهما مع إشعارهما بالتفاؤل (سعد وسعيد) ولهذا أطلق عليهما توأمي الفضل والتوأمان هما المقترنان في بطن واحد في زمن واحد شبه الفضل بأم أنجبت توأمين هما سعد وسعيد ففي التعبير استعارة مكنية حذف فيها المشبه به ودل عليه بإثبات لازمه .

أما كونهما صفيين للرسول عليه السلام فلأنهما من أكابر المخصلين له . وليس هذا الوصف خاصاً بهما ولذا قال : « إذا عدت الأصفياء» أي أنهم من عداد أصفياء النبي عليه السلام وهم كثيرون .

وعبد الرحمن بن عوف بن الحرث القرشي وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام ، وأحد الستة أهل الشورى ، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر ﷺ ، وشهد مع الرسول عليه السلام المشاهد كلها ، وكان ممن ثبت حول الرسول يوم أحد ، ومبعوث الرسول إلى دومة الجندل .

ومن أجمل المناقب أن الرسول عليه السلام ائتم به في غزوة تبوك فصلى وراءه ركعة في صلاة الصبح حيث كان الرسول يقضي حاجته وأدرك القوم الصلاة فأمهم عبدالرحمن ، وبعد الصلاة قال عليه السلام ما قبض رسول حتى يصلي خلف رجل صالح من أمته ، هذه المنقبة لم تحصل لصحابي قط إلا لعبد الرحمن .

صحيح أن النبي عليه السلام هم بالصلاة خلف أبي بكر فلما علم أبو بكر أن الرسول وقف وراءه للصلاة تأخر عن الإمامة فأشار عليه الرسول بالثبات فرفض أبو بكر وحين سأله عليه السلام : ما منعك أن تثبت حين أشرت إليك؟ قال أبو بكر : ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ . . ولم يفعل عبدالرحمن مثل ما فعل أبو بكر لأنه لم يكن يعلم أن النبي يصلي خلفه إلا بعد تمام الصلاة . ولو علم لما استمر إماما .

وكان عبدالرحمن من أثرياء العرب فأنفق ثروته في سبيل الله وإلى هذا أشار الناظم بقوله :

وابن عوف من هونت نفسه   الدنيا ببذل يمده إثراء

فإنفاق عبدالرحمن في سبيل الله لم يتوقف لما كانت تدره عليه التجارة من ربح وفير . ويمثل هذه المواقف الخالدة أظهر الله الدين وقوى شوكته .

وأبا عبيدة عامر بن الجراح أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر في يوم واحد . وأحد رجلين رشحهما أبو بكر لخلافة المسلمين يوم السقيفة بعد وفاة الرسول عليه السلام ، وهو الملقب أمين هذه الأمة وهو وصف جامع لمكارم الخصال كلها ، ولذلك كان ينسب إليه الأمانة الأمناء كما يقول الناظم .

وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ ﴾ (المجادلة:٢٢) لأن أبا عبيدة قتل أباه الذي ظل على كفره وخرج لقتال المسلمين وكان ابنه أبو عبيدة يقاتل في صفوف المسلمين فكان يبصر أباه فينصرف عنه ليقف بعيداً عن مواجهته . ولكن أباه كان يترصده ويتحرى أن يقف أمامه ، فلما ضاق به ابنه قتله لكفره وعناده فمدح الله هذا العمل ونزل قوله تعالى المتقدم .

وتوسل الناظم بعمي النبي عليه السلام أخوي أبيه من أبيه وهما الحمزة والعباس ﷺ . ووصفهما بأنهما نيرا فلك المجد حيث شبه المجد بسماء له فلك الحمزة والعباس من ألمع أقماره ونجومه ففي التعبير استعارة مكنية تولدت عن خيال خصب وذوق صحيح وأثرها في جمال المعنى أثر القمر في الظلام . وهما وإن كانا عمي الرسول عليه السلام فله عليهما فضل الهداية بإخراجهما من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . وهذا هو معنى قول الناظم . «وكل أتاه منك إتاء» كناية عن تأثيره بالهداية فيهما بتوفيق الله وحكمته ، وكان لهما فضل في بث الدعوة وحمايتها وقد كان لحمزة من رهبة خشيتها قريش حين أسلم هو وعمر بن الخطاب حتى قالوا : اليوم انتصف الناس .

وقد ختم الله حياته بالشهادة حيث قتله وحشي في أحد ، فحزن عليه الرسول ﷺ حزناً شديداً ووصفه الرسول بأنه : سيد الشهداء ، ومما قاله فيه : «رحمك الله فقد كنت وصولا للرحم فعولا للخيرات» .

أما العباس فمن مآثره أنه حضر مع النبي عليه السلام يوم بيعة العقبة التي بايع فيها الأنصار رسول الله عليه السلام ليستوثق له . وثبت معه يوم أحد حين فر الناس ، كما شهد حنيناً وثبت فيها وفيه يقول عليه السلام : «من آذى العباس فقد آذاني» إلى غير ذلك من الأخبار التي وردت في فضله .

ثم توسل الناظم بفاطمة الزهراء ابنة أكرم الخلق ﷺ وزوج الإمام علي كرم الله وجهه . وبنيها الأطهار وآل البيت جميعاً . أما بنو فاطمة منهم الحسن والحسين

ومحسن الذي مات صغيراً وأم كلثوم وزينب . فأما من حوته العباءة منهم : «النبي عليه السلام ، وعلي ، وفاطمة ، وابناها الحسن والحسين» وفي هؤلاء يقول عليه السلام . «اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» .

ثم توسل الناظم بزوجات النبي عليه السلام اللاتي صانهن من النار ومن النقائص ويناؤه بهن أي زواجه . وكفاهن شرفاً وكرامة أن الله تعالى سماهن : أمهات المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ وجعل لهن علي المؤمنين حقوقاً مثل حقوق الأمهات فحرم نكاحهن . وهن إحدى عشرة زوجاً أولهن خديجة بنت خويلد ﵂ وسودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وهند أم سلمة وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ابن حرب ، وزينب بنت جحش وزينب بنت خزيمة الهلالية ، وميمونة بنت الحرث الهلالية ، وجويرية بنت الحرث الخزاعية ، وصفية بنت حيي بن أخطب . هؤلاء هن زوجاته ﷺ المتفق عليهن ، ولم يكن في عصمته منهن أكثر من تسع نسوة وهو أعلى عدد اجتمع في عصمته ثم أخذ يتناقص بالموت شيئاً فشيئاً ولم يكن زواجه ﷺ منهن تلبية لهوى نفسه ، لأن المتتبع للأحوال التي تم فيها زواجهن يلمس حقيقة لا جدال فيها إذ أن عشراً منهن كن زوجات رجال إذ لم يتزوج بكراً سوى عائشة ﵂ أما الباقيات فكن ثيبات وكان زواجه منهن إما لأن أزواجهن قتلوا في الحروب ، وإما لأنهن وقعن في الأسر ، وواحدة منهن ارتد زوجها عن الإسلام فبقيت وحيدة لا عائل لها . فكان زواجه منهن لجبرهن ومواساتهن ، ولو كان محمد عليه السلام شهوانياً كما يقول أعداؤه من المستشرقين وغيرهم لانتقى ملكات الجمال في ذلك الحين فبنى بهن ولكنها الحكمة والسياسة والمواساة .

وفي كثرة زواجه ﷺ حكمة أخرى هو تقوية أزر الدعوة بمعاضدة الأسر والقبائل التي تشرفت بزواج النبي من نسائهم . واتساع نطاق الروابط بينه وبين قبائل العرب .

وإلى هنا ينتهي توسل الناظم . وكان توسله وسيلة لغاية أجملها في قوله الحكيم البليغ الجامع لشتات المعاني وهو :

الأمـــان الأمـــان إن فـــؤادي   مـــن ذنـــوب أتيتـــهن هـــواء

يطلب من الرسول الشفاعة التي تحقق له الأمان من سوء العاقبة ويكـرر مطلوبـه : الأمان الأمان ، لأن هذا المطلوب حبيب إلى النفس وهو غاية الغايات . وهمـز « إن » إما مفتوحة فتكون الجملة تعليلية أي لأن فؤادي . وإمـا مكسـورة فتكـون استئنافية . والجملة هنا كناية عن شدة خوفه من العاقبة .

وفي قرنه ذكـر ذنوبـه مـع طلـب النجاة منها بفضـل شـفاعته ﷺ سمـة المـؤمنين المخلصين، وهو أدعى للغفران واستجلاب الرحمة والرضوان على حد قول بعضهم:

إلهـــي عبـــدك العاصـــي أتـــاك   مقـــراً بالـــذنوب وقـــد دعاكـــا

فإن تغفـــر فانـــت لـــذاك أهـــل   وإن تأخذ فمن يرضـــى ســـواكا

وقال ﷺ :

وصف الطالب والمطلوب منه

قد تمسكت مـــن ودادك بالحبـــ   ـــلِ الذي استمسكت به الشفعاء

وأبى الله أن يمســـني الســـوء   بحـــال ولي إليـــك التجـــاء

قد رجوناك للأمـــور الـــتي أبـــ   ـــردها في قلوبنـــا رمضـــاء

وأتينـــا إليـــك أنضـــاء فقـــر   حملتنـــا إلى الغـــنى أنضـــاء

وانطوت في الصدور حاجات نفس   مالها عن نـــدى يـــديك انطـــواء

فأغثنا يا من هو الغـــوث والغيـــ   ـــث إذا أجهـــد الـــورى اللـــواء

والجواد الذي به تفـــرج الغمـــ   ـــة عنـــا وتكشـــف الحوبـــاء

يـــا رحيمـــا بـــالمؤمنين إذا مـــا   ذهلـــت عـــن أبنائهـــا الرضـــعاء

يا شـــفيقاً للمـــذنبين إذا أشـــ   ـــفق من خـــوف ذنبـــه الـــبراء

جد لعاص وما سواي هـــو العـــا   صي ولكن تنكـــري اســـتحياء[1]

(١) ودادك : حبك رمضاء : حرارة بالغة التأثير . أنضاء : مهازيل انطوت : رفعت . نـدى عطـاء . انطـواء . استغناء . الغوث : النجدة . والغيث : المطـر . الـورى : الخلـق ـ اللـواء . الفقـر والجـدب . الحوبـاء : الكربة البراء : الأبرياء . تنكرى . تسترى . استحياء : خجل وكسـوف .

يتابع الناظم ما أجمله في البيت الأخير من المجموعة السابقة : الأمان ، ويقدم بين يدي هذا الطلب العظيم أسباب تحققه والظفر به ويحمل تلك الأسباب في جدولين كلاهما يملأ النفس أملا بالظفر بالمطلوب . أما الجدول الأول فهو وصف الطالب . وأما الجدول الثاني فهو وصف المطلوب منه .

وفي الجدول الأول يقول الناظم : إنني تمسكت بحبل ودادك ومحبتك ومن قبلي تمسك بذلك الحبل أناس فمن الله عليهم بأجل نعمه وجعل لهم من شفاعتك فيهم شفاعة لهم في من يحبون ممن لم يبلغوا درجة الشفاعة والتماسك بحبل مودتك عهد ووعد فأنت تقول : « من أحبني وجبت له شفاعتي . وتقول لكل أخ صالح يوم القيامة شفاعة» وأنا لكثرة ذنوبي لا أرجو سوى شفاعتك فيَّ عند ربك الذي يقول لك يوم القيامة : « قل يسمع لك ، واشفع تشفع» وحبي لك جعلني أثق في نوال مطلوبي فبحبك أصبح محبوك شفعاء من الأولياء والصالحين . فهل أقنط من شفاعة منك يعفو الله بها عني؟ لا لقد أبى الله أن يمسني السوء في الدنيا لإيماني بك وبما جئت به من ربك فأرجو أن لايمسني السوء في الآخرة . وكيف يمسني وأنا قد استمسكت بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها .

هانحن أولاء جئناك راجين فيك أعظم الرجاء للأمور العظيمة التي أقلها أثراً في نفوسنا إنما هي نار تتلظى في قلوبنا فما بالك بعظائمها وكبائرها؟

وهانحن أولاء قد جئناك من مكان بعيد أضنانا السفر والسهر والفقر من الفضائل ، نسعى إليك على رواحل مهازيل من طول السفر . وما اعترانا من نضو وهزال نحن ورواحلنا لدليل صادق على حبنا لك ؛ جئناك معتلين نرجو السلامة والصحة . . ومذنبين نبتغي العفو والمغفرة . ومكروبين فقراء نأمل في الفرج والغنى ورفعنا أكف الضراعة وألقينا حوائجنا في رحابك الطاهر متوسلين بك إلى ربك ومربيك ، فهذه الساحة يرفع فيها الدعاء ويستجاب فيها السؤال ألم يقل ربك في بيان منزلتك عنده : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:٦٤) وهانحن أولاء قد جئناك واستغفرنا الله بعد أن ظلمنا أنفسنا فاستغفر لنا يفتح الله علينا بتوبته ، ويعمنا برحمته . أغثنا ياحبيب الله بدعائك

الله لنا فأنت النجدة تزيل كرب المكروبين . والمطر يروي ظمأ الظامئين إذا أصاب الناس الجدب ونزلت بهم النوازل .

ويقول في الجدول الثاني الذي يصف فيه المطلوب منه عليه السلام :

بك يفرج الله الغمة ويزيح عن النفوس الكآبة ويرفع بك البلاء . أو لم يقل لك ربك : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال:٣٣) وأنت فينا حياً وميتاً يا رسول الهدى ، ويادليل الكرم قلبك كله محبة ورحمة لمحبيك وأتباعك . حريص على هداهم ومنافعهم الجليلة رءوف بهم في كل حال . أو لم يقل عنك ربك : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:١٢٨).

فاشفع لنا يوم يخاف الأبرياء من صغائر ذنوبهم وقد اتقوا كبائرها. فلم يقترفوها .. ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾
(المزمل:١٧،١٨)

يوم ينفع الصادقين صدقهم، يوم لاينفع مال ولابنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

يا رسول الله : جد شفاعتك لعاص . وما ذلك العاصي إلا أنا . . ولكن حيائي وخجلي حملني على التنكر أدباً مع المسئول . وبراءة من الذنوب .

قلنا في مقدمة هذا الشرح إن الناظم دأب على أن يختم بعض المجموعات بأبيات لم نر أصح منها سبكا ، ولا أجمع معنى ، وعهدنا قريب بالبيت الذي ختم به مجموعة التوسل وهو : الأمان . . .» وها هو ذا على عهده قد ختم هذه المجموعة ببيت هو أروع ما تكون الروعة ، وأجمل ما يكون الجمال .

جد لعاص! وما سواي هو العاص ولكن تنكري استحياء! فقد مرت له في شطر البيت الأول كلمه «عاص» وأبى إلا أن يستثمرها في الشطر الثاني فكان استثمارها فيه نفثة من نفثات السحر الحلال إذ أودع فيها الحسن كله :

. . . . وما سواى هو العاصي . . ولكن تنكري استحياء

فإنه حين قال : جد لعاص « فإن هذا التعبير يشعر بأن الناظم يدعو لغيره إذ المقام يتطلب أن يقول : جدلي » لكنه خالف المقام ووضع المظهر موضع المضمر وهو من الالتفات عند السكاكي . وأتى بذلك المظهر منكراً « عاص » فاجتمع في هذا التعبير إيهامان . الأول يستفاد من وضع الظاهر موضع المضمر والثاني من تنكير الظاهر نفسه « عاص » ولهذا عقب الناظم بقوله :

« وما سواي هو العاصي »

لرفع ذينك الإيهامين . ثم استدرك معتذراً لأنه استشعر من يقول مادمت أنت العاصي فلماذا ذلك الغموض؟ فأجاب :

ولكن تنكري استحياء

وهذا كلام كله ظرف وملاحة لايخفى أثرهما على من له حاسة التذوق لكل معنى جميل .

هذا وقد برزت بعض الملامح البلاغية في هذه المجموعة بالإضافة إلى ما ذكرناه في البيت السابق . فترى المجاز الاستعاري في قوله « فقد تمسكت . وما صاحبها من تخييل . والتشبيه في قوله « أبردها رمضاء » والكناية في قوله : « أنضاء فقر » والمجاز الاستعاري في « ندى يديك » والطباق في « أبردها ورمضاء » والجناس في « أنضاء فقر » وأنضاء ؛ لا أنضاء الأولى مجازية المعنى ، بخلاف الثانية والجناس بين الغوث بمعنى النجدة . والغيث بمعنى المطر . وتشبيه الغمة بالسحابة لأنها تخيم على نفس صاحبها وتكرر صفاءه كما تبدد السحابة صفو السماء .

واستفاد الناظم من الآية الكريمة التي في مطلع سورة الحج : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ (الحج:٢) حيث يقول هو :

ذهلت عن أبنائها الرضعاء[1]

بيد أن لنا تعليقاً على كلمة أبناء هنا لأنها تصلح للكبير كما تصلح للصغير الرضيع وهذا الاحتمال يضعف من قوة المعنى ولو قال الناظم : « ذهلت عن رضيعها

---

(١) فى بعض النسخ . الرحماء . بدل . الرضعاء . وما اخترناه أنسب .

الرضعاء» لكان أنسب معنى ولفظاً . لأن المرضعة لا تذهل عن رضيعها إلا لشدة الهول وهو المناسب لعظيم يوم القيامة ولايقدح فيه كونه «مفرداً» وتلك جمع : لأن من معاني المفرد المضاف العموم .

أما قوله : «إذا أشفق من خوف ذنبه البراء» ففيه كناية بالغة الجودة عما يعتري الناس يوم الحشر من هول فظيع تشيب فيه الولدان حتى أن الخلص من عباد الله يخشون على أنفسهم سوء المصير على حد قول أبي بكر ﷺ «لو كانت إحدي رجلي في الجنة والأخرى خارجها لما أمنت مكر الله»!

وقال ﷺ :

وصف الناظم نفسه بالقصور والتفريط

وتداركه بالعناية ما دا	م له بالذمام منك ذماء
أخزته الأعمال والمال عما	قدم الصالحون والأغنياء
كل يوم ذنوبه صاعدات	وعليها أنفاسه صعداء
ألف البطنة المبطئة السيـ	ـر بدار بها البطان بطاء
فبكى وبه بقسوة قلب	نهت الدمع فالبكاء مكاء
وغداً يعتب القضاء ولا عذ	ر لعاص فيما يسوق القضاء
أوثقته من الذنوب ديون	شددت في اقتضائها الغرماء
ما له حيلة سوى حيلة المو	ثق: إما توسل أو دعاء
راجياً أن تعود أعماله السو	ء بغفران الله وهي هباء
أو ترى ي سيئاته حسنات	فيقال استحالت الصهباء[1]

ويمضي الناظم في بسط دعواه ، فيحمله على الإلحاح في تحقيق مراده صلة له بسيد المرسلين وهي وإن كانت واهية لقلة أعمال الخير عنده لباعثة على الأمل . لأن دماء الروح في الجسد يضفي عليه صفة الحياة . ففيه استعارة تصريحية لطيفة الموقع.

---

(١) الذمام :العهد الذماء ما بقى فى الجسم من روح عند الاحتضار قبل مفارقة كل الروح الجسد والمراد به هنا : أدنى علاقة صعداء: متقطعة مستطيلة أولاحقته . البطنة . الطمع والشراهة في حطام الدنيا . . البطان بظاء الشرهون معوقون . نهت : منعت : مكاء : صور اقتضائها : طلبها . الغرماء . والدائنون الموثق . الأسير . هباء : لا وجود لها استحالت: تحولت: الصهباء الخمر .

أنه مسيء مسيء تقدم الصالحون وتأخر هو مشغولا بدنياه وأعماله السيئة ما من يوم إلا وذنوبه به صاعدات إلى السماء تغلفها أنفاسه اللاهثة من التندم والتحسر على ضعف همته وقوة هواه . استهوته زخارف الحياة فمال إليها ينهم منها شرها في طلبها فعوقته عن الركب هي وأمثالها المبطئون عن ركب المعالي بدنيا فانية تأسر من جنح إليها . فلم يملك إلا البكاء على الذنوب ، وحتى بكاءه لم يجد لقسوة قلبه التي حبست الدموع في مآقيها . فجاء بكاؤه تمثيلا صوريا لا روح فيه . لم يبك بكاء الثكلى بل بكاء النائحة . صوتها تكلف ودموعها زيف .

ولجأ المسكين إلى القدر يعتب عليه ويلومه ، ولا عذر لمن يلوم القدر فإن الله كتب على الإنسان كل أعماله من خير وشر بناء على ما علمه منه في الأزل فإذا جاء الإنسان ونفذ المكتوب فالمسئولية تقع عليه وحده . إذ لو علم الله أنه سيختار كل أعماله من الخير لما سطر عليه سطراً واحد من الشر . أعمالنا مكتوبة . أي نعم . ولكننا نحن المسئولون عنها لا القدر ولا رب القدر .

وها هو ذا أصبح أسير ذنوبه موثقاً بقيوده . وليس للأسير حيلة سوى التوسل إلى الله بما قدم من عمل صالح إن كان . وإلا فلا حيلة له إلا الدعاء والتضرع ولا ييأس من روح الله إلا القوم الضالون المضللون فإذا استجاب الله الدعاء أصبحت سيئاته بسبب المغفرة هباء لا وجود لها .

والدعاء توبة . والتوبة النصوح نافعة فإذا تقبلها الله أصبحت سيئاته حسنات . ألم يقل أحكم الحاكمين في كتابه الأمين : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ (الفرقان: ٧٠) ما أكرمك يا رب . وما أوسع أبواب رحمتك يا أرحم الراحمين .

تبدل السيئات حسنات ليس بدعة . فالخمر أم الخبائث . إذا تخمرت أو صارت خلا وذهبت عنها حدتها ذهوتها تطهرت وجاز أن ينتفع الناس بها . وليست الذنوب أخبث من الخمور حتى يتأبد العقاب عليها .

هذا موجز معناه . . وقد أعانه على التعبير عنه حظ وافر من البلاغة فمن تشبيه العلاقة الواهية ببعثه الروح في الجسد والتجنيس في البطنة المبطئة ، والبطان والبطاء .

والمجاز الكنائي في نهت الدمع . وتشبيه البكاء بالصغير : والمذنب بالأسير . والمسئولة عن الذنوب بالغرماء وحسن التقسيم في توسل ودعاء ، وتشبيه الذنوب بالخمر ؛ والحسنات بالخل ، وغفران الذنوب بتحويل الخمر إلى الخل الطاهر ، إلى غير ذلك من الصور . كل هذه قدرات لغوية وبلاغية أظهرت المعاني في ثوب قشيب وبعثت فيها روح الحركة والحياة .

ثم قال ﷺ :

على أبواب التوبة النصوح

كل أمر تعني به تقلب الأعـــ	ـــيان فيه وتعجب البصراء
رب عين تفلت في مائها الملـــ	ـــح فأضحى وهو الفرات الرواء
آه مما جنيت لو كان يغني	ألف من عظيم ذنب وهاء
أرتجي التوبة النصوح وفي القلـــ	ـــب نفاق وفي اللسان رياء
ومتى يستقيم قلبي وللجسم	اعوجاج من كبرتي وانحناء[1]

طمع الناظم في المجموعة السابقة أن تصبح سيئاته حسنات ، ولما كان هذا الأمر مستغربا عند مبادرته إلى الذهن أراد الناظم أن يذكر له نظيراً ومماثلا فقال : إن كل أمر يعني به خاتم النبيين تحدث له فيه المعجزات حتى لتخرج الذوات عن خصائصها وتحل بها خصائص أخرى تكريماً من الله لرسوله ، يسلب الذوات صفاتها غير المحبوبة له ﷺ ، ويضفي عليها الصفات المحبوبة ، فكم من ماء ملح تفل فيه عليه السلام فأصبح ماء عذباً ، تكرر منه هذا مراراً ، وليس ذلك بعزيز على الله فقد استحالت العصى حية معجزة لموسى عليه السلام ، وانقلبت النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام ، فإذا تحققت شفاعة النبي للعصاة انقلبت السيئات حسنات .

أما قوله : وتعجب البصراء ، أي أن الأعيان عندما تتبدل صفاتها على الوجه الذي يريده المؤيد بالمعجزات الباهرات ، فإنها تروق الرائين ، وتسر الناظرين ورب في قوله : «رب عين» للتكثير . ومن ذلك الكثير بئر رومة بالمدينة ، وبئر يقال لها بئر أريس .

---

(١) تعنى : تهتم . تقلب : تتحول . الأعيان : الذوات : الرواء: الماء الكثير . المروى . الفرات : العذب الحلو . كبرتى : شيخوختى وكبر سنى . انحناء : تقوس .

وخطأ ما يتبادر إلى الذهن من أن «التفل» المراد به البصاق ، كما جرى على ذلك بعض الشراح ، لأن التفل هو نفث خفيف لايرى الخارج معه من الفم ، أما البصاق فهو النخامة الخارجة من الصدر وترى حين طرحها من الفم ، فالتفل لاتتأذى منه النفوس غالباً . أما البصق والبصاق فتتأذى منه . والذي يليق بالمقام هنا هو التفل بمعناه لابمعنى البصق ؛ لأنه تنفر منه الطباع وتأباه الأذواق السليمة .

وقوله : «فأضحى وهو الفرات الرواء» تشبيه بليغ وجه الشبه فيه ملحوظ فيه أمران وهما : الكثرة والعذوبة . وبها تكمل النعمة من الماء . وكلمة «الفرات» تحتمل أن يراد بها النهر المعروف ، أو العذب الصافي من الماء .

وبعد هذين البيتين اللذين أشبها الجملة الاعتراضية عاد الناظم يواصل وصف حاله بهذا البيت الرائع حقاً :

آه مما جنيت لو كان يغني ألف من عظيم ذنب وهاء

تأمل روعة الصنعة وبهاءها فيه تجدها كالعروس المجلوة في ليلة عرسها وتذوق معنى كلمة «آه» ودلالتها النفسية الموجعة وما تشيعه من ظلال فقد اعتاد من يقولونها هز رءوسهم يمنى ويسرى والتحليق بأبصارهم إلى عل وبسط أيديهم . وإني لأتخيل الناظم وهو يؤدي هذا الدور في جدية وإتقان . وإن المعنى ليزداد روعة عندما تلحظ مع هذه «الآه» متعلقها «مما جنيت» وضعف الثقة في هذه «الآه» التي أشعر به قول الناظم : «لو كان يغني».

ولو أن الناظم توقف عند هذا الحد لأقنع وأمتع ، لأن قوله هذا كلام تام مفيد .

لكن اليد الصناع تخلق لك من المادة الواحدة صوراً وأشكالا تروق وتعجب ، ولو كانت المادة في وزن حبة خردل . . وهكذا فعل الناظم فعمد إلى «آهه» التي صدر بها البيت ، وفتتها كما يفتت خبراء المادة جزيئياتها المسماة «بالذرة» ويركب منها صورتين مستقلتين وغير مستقلتين في آن واحد .

فقد أخذ الألف من «آه» وجعله فاعلا ليغني ، هذه صورة ، ثم عطف عليه الهاء وأشركه معه في معنى الفاعلية ، وهذه صورة ثانية ، فهما من حيث أنهما معطوف ومعطوف عليه مستقلتان استقلال المعطوف والمعطوف عليه .

وإذا تأملت حقيقة هاتين الصورتين «ألف وهاء» ذكرتاك بـ«آه» التي في الصدر ، بل هما هي ، وهي هما : آه!؟ فهل رأيت تصرفاً بديعاً مثل هذا التصرف البديع ، أم هو من «البوصيريات» التي لم يحذقها سواه من فحول الشعراء ومفلقيهم؟!

وبعد هذا يقترب الناظم من لب مقصوده فيقول إنه لايرجو سوى التوبة النصوح ، ولكن كيف السبيل إليها والقلب مشغول بالمطالب الزائفة التي تشبه في التعلق بها النفاق في الأعمال ، واللسان مازال يلغو بغير الحق الذي يشبه اللغو به الرياء في الأقوال ولكل من القلب واللسان عذره ، فقد كبر وتقوس ظهره ، فكيف إذن يستقيم قلب إذا كان الهيكل الذي يحتمله معوج ، وكيف ينضبط لسان دهمت أوهام الشيخوخة قوى العقل الذي يصرفه؟!

إن العقل السليم في الجسم السليم ، فهل يستقيم الظل والعود أعوج؟

وقال ﷺ :

وعند الصباح يحمد القوم السرى

كنت في نومة الشباب فما استيـ ... ـقظت إلا ولـمتي شـمطاء . .

وتماديـت أقتفـي أثـر القـو ... م فطالـت مسـافة واقتفـاء

فـورا السـائرين وهـو أمـامي ... سـبل وعـرة وأرض عـراء

حمـد المـدلجون غـب سـراهم ... وكفـى مـن تخلـف الإبطـاء

رحلة لم يـزل يفنـدني الصيـ ... ـف إذا مـا نويتـها والشـتاء

يتقي حـر وجهـي الحـر والـبر ... د وقد عـز مـن لظـى الإتقـاء

ضقت ذرعاً مما جنيـت فيـومي ... قمطريـر ولـيلي درعـاء[1]

---

(١) نومة الشباب : غفلته . لمتي : لحيتي . تماديت : ظللت . أقتفى : أتتبع . وعرة : صعبة . عراء : قفر لا زرع ولا ماء فيها . المدلجون : السائرون ليلا . غب : بعد والمراد هنا النتيجة . يفندني : يضعفني . يتقي يخاف . لظى : النار . قمطرير : صعب وشديد . درعاء مظلمة مخيفة .

الاعتراف بالذنب سمة من سمات العارفين ، وكثيراً ما يتخذونه وسيلة في طلب المغفرة وليس معصوماً من الذنب أحد من عامة الناس وخاصتهم يقول الشاعر :

أن تغفـر اللـهم تغفـر جمـا وأي عبـد لـك لا ألـمّا؟

وعلى هذا المنهج مضى الناظم فقال : لقد ضيعت أيام شبابي سدى كنت فيها في نوم عميق ، ولم أنتبه من نومي إلا على ضوء بياض لحيتي واشتعال الشيب فيها ، ففوجئت بأن قطار الراكب قد أقلع ومضى بعيداً بعيداً ، فأسرعت وراءهم علّي أدركهم ، ولكن هيهات هيهات .

لقد ساروا وساروا ، ووراؤهم الذي تركوه ومضوا هو أمامي ومطلبي وبين ذلك الوراء وبيني طرق ملتوية وصحاري ورمال صعب اجتيازها كيف واليد صفر ، والرجل حافية ومركبي هزيل . . . وصل السابقون فشكروا ، وتخلفت فتحسرت ، ولو لم يترتب على ذلك السبق شيء سوى الفرح به لطاب فيه المسعى ، فما بالك وقد ادخر الله للسابقين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ (الواقعة: ١٠-٢٦).

ولو لم يترتب على التخلف شيء سوى التحسر منه لكفى بذلك خيبة أمل وبوار رجاء ، ولكن ما سيشقى به المخلفون من حرمان يوم القيامة أبكى وأنكى من التحسر والضيق : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ (آل عمران: ٣٠).

إنها رحلة مضنية شاقة إلا على الذين هدى الله وإني كلما هممت بها أقعدني حر الصيف وبرد الشتاء ، وإنه لخطل في الرأي أن أوثر السلامة منهما لأنها وإن كانت

ممكنة فإنها لاتثمر إلا التلظي بنار جهنم التي هي أشد حراً . وأبلغ ضراً وأذهى أجرا . ولا ينجي منها هرب ، ولايدفع عذابها حذر . فالله لا يجمع على عبده أمنين ، ولاخوفين ، فمن أمنه في الدنيا أخافه في الآخرة ، ومن أخافه في الدنيا أمنه في الآخرة ، وجنته حفت بالمكاره ، وناره حفت بالشهوات .

وإذا تذكرت ماضي واستحضرت قصوري وظلمي لنفسي ضاقت علي الدنيا بما رحبت وضاقت علي نفسي . نهاري مؤلم شديد الإيلام . وليلي مظلم حالك الظلام . فآه مما جنيت لو كان يغني مما جنيت آه . ! ؟

وقد أكثر الناظم في هذه المجموعة من الطباق والكنايات . فقوله : «ولمتي شمطاء» كناية عن الهرم والشيخوخة . وقوله : سبل وعرة وأرض عراء مجاز تمثيلي ممتع . وهو الأظهر ، ويجوز حمله على الكناية إذ أن من الطاعات ما يشد من أجلها الرحال المقادون كالحج والعمرة . وفي هذه الحالة تكون الكناية فيه عن مشقة الطريق وصعوبة الوصول ، ومثله قوله : «فطالت مسافة واقتفاء» .

أما قوله : «حمد المدلجون»، وقوله : «وكفى من تخلف الإبطاء» فإن الأول كناية عن سرور المهتدين الجادين ، والثاني كناية عن التندم والتحسر عند المبطئين المخلفين . وبين هاتين الكنايتين طباق إذا ما تأملنا معناهما وفي إسناد التفنيد إلى الصيف والشتاء مجاز عقلي إذ هما سبب التفنيد وليسا فاعليه . أو في العبارة استعارة بالكناية شبه الناظم فيها الصيف والشتاء بمن يغري بالكسل والتباطؤ فحذف المشبه به ودل عليه بإسناد الفعل إليهما . في قوله : «وقد عز من لظى الإتقاء» كناية أخرى كذلك أراد منه أن من استحق دخولها لسوء بعمله فلا حيلة له في كف سعيرها عن وجهه وجسمه . وكذلك قوله : ضقت ذرعاً . . إلخ كناية عن حزنه الشديد ، وأسفه البالغ المدى .

والطباق بين النوم واليقظة وبين يومي وليلتي . وكذلك بين الحر والبرد والصيف والشتاء وبين وراء وأمام . وبين الشباب ومضمون قوله : شمطاء أما قوله ، سبل وعرة . وأرض عراء . ففيها مراعاة النظير . وكذلك بين في قمطرير ودرعاء .

ومع هذا فلن تحس بأن في الأسلوب تكلفاً ولا قلقاً أو استكراها للفظ أو معنى .

وقال رضي الله عنه :

عزاء وأمل

وتـذكرت رحمـة الله فالبشـــر لـوجهي أنى انتحـى تلقـاء
فألح الرجـاء والخـوف بالقلـب وللخـوف والرجـا إحفـاء
صاح لاتأس إن ضعفت عن الطـا عة واسـتأثرت بـها الأقويـاء
إن لله رحمـة وأحـق النـا س منـه بالرحمـة الضعفاء
فابق في العرج عند منقلب الـذو د ففي العـود تسبق العرجـاء
لاتقـل حاسـداً لغـيرك هـذا أثمـرت نخلـه ونخلـي عفـاء
وأنت بالمستطاع من عمـل البـر فقد يسقط الثمـار الإثـاء[1]

كان الناظم ـ فيما تقدم ـ ينظر إلى معاصيه فكاد لبه يطير خوفا من سوء المصير فوجف قلبه ودارت عيناه ، وانعقد لسانه وملأ الأفق بأنفاسه اللاهثة ، وآهاته الوجيعة .

ولكن سرعان ما يتلألأ أمام ناظرين شعاع من الأمل الباسم . إذ خطر على وجدانه سعة رحمة الله . فيكسو البشر ساحة وجهه أينما توجه ، وكيفما كان .

حينئذ يشب الرجاء والخوف كلاهما في قلبه ولكل منهما مطلب فالرجاء يحمل على بسمة الأمل ويغري النفس بشيء من الراحة والاقتصاد في المسعى أيا كان ذكراً أو صلاة أو صوماً أو إنفاقا ، والخوف يحمل على البذل وأن تتجافى الجنوب عن المضاجع قاضية سواد ليلها وبياض نهارها في العمل فإن من خاف نجا ، ومن فكر في العواقب سلم . وفي حلبة هذا الصراع بين الرجاء والخوف يحسن أن تتعادل النتائج أو يتغلب الخوف على الرجاء ففي التعادل ضمان . وفي غلبة الخوف أمان . أما إذا استبد أحدهما بالآخر استبداداً كاملا فإن كان المستبد هو الخوف أسلم صاحبا

---

(١) انتحى : توجه . تلقاء : مواجه ، ألح : شد فى الطلب . إحفاء : منازعه وفعالته . صاح : صاحبنو مرقم تأس : تضغط . استأثرت : انفردت الزود : الجمع من الإبل . والمنقلب : الرجوع عفاء لا ثمار لها . الإثاء : النخل الصغير .

إلى اليأس والقنوط . وإن كان المستبد هو الرجاء أسلم صاحبه إلى الغرور والتمني واليأس والقنوط . والغرور والتمني ليس من صفات المؤمن الصحيح الإيمان ولذا مدح الله من عباده من يدعونه : «رغبا ورهباً» .

ولهذا ـ أيضا ـ نرى الناظم يقدم لنا نصيحة غالية فيقول :

صاح لا تأس إن ضعفت عن الطا　　عة واستأثرت بها الأقوياء

أي لا يحملنك ضعفك عن ترك الطاعة ينفرد بها الأقوياء القادرون على فعلها فإن هذا الترك هو عن اليأس والقنوط ، ولكن ابذل ما في وسعك فقد يبارك الله لك فيه ، فاحبس نفسك مع الضعفاء وإن كانوا في مؤخرة القافلة ، واحبوا كما يحبون حبوا فإنك عامل ، فإذا بدأت القافلة في العود أصبحت المقدمة مؤخرة ، والمؤخرة مقدمة ، والمسبوق سابقاً ، والسابق مسبوقاً ، وإلى هذا المعنى أشار الناظم بقوله :

«ففي العود تسبق العرجاء»

وأعلن أن لله رحمة عظيمة وسعت كل شيء . . وأولى الناس باستحقاق تلك الرحمة هم الضعفاء الباذلون قصارى جهدهم في العمل الصالح فلا يقصد بك ضعفك ويحملك على حسد العاملين فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، فلا تشعل في قلبك ناراً تكون حرباً عليك وعلى ما ادخرت من صالح الأعمال ، واستثمر ما لديك من طاقة ولن يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وخير الأعمال عند الله أدومها وإن قلت ، وإلى هذا المعنى يشير الناظم بقوله :

لاتقل حاسداً لغيرك هذا　　أثمرت نخله ونخلي عفاء

وأنت بالمستطاع من عمل البـ　　ـر فقد يسقط الثمار الإتاء

هذا ، وقد أشرقت في هذه المجموعة صور أنيقة من البيان الرفيع منها تشبيه الأمل لجميل بالشمس تملأ كل مكان ، فعندما تذكر الناظم سعة رحمة الله أشرقت شمس لأمل في نفسه فأصبح أينما كان يشع نورها على وجهه .

ومنها الاستعارة المكنية في إلحاح الرجاء والخوف ، وقد رشح هذه الاستعارة قوله :«وللخوف والرجا إحفاء» أي منازعة ومغالبة ، وهما من خصائص المشبه به .

ومن الطباق جمعه بين الخوف والرجاء والضعف والقوة ، وقد أفاد التنكير في قوله : «رحمة» تعظيم المنكر كما جاء البيت الذي فيه هذه الكلمة استئنافاً تعليلياً لمعنى البيت الذي تقدم عليه . أما قوله : «فابق في العرج» ففيه مجاز تمثيلي أضفى على المعنى ثوباً من البهاء والحكمة والإقناع والإمتاع .

أما قوله : «أثمرت نخله ونخلي عفاء» فكنايتان أولاهما عن السعادة ، وثانيهما عن الشقاء ، وبين الإثمار والعفاء فيهما طباق .

أما قوله : «ففي العود تسبق العرجاء» و«فقد يسقط الثمار الإثاء» فلا إخالك تخالفني في أنهما حكمتان حكيمتان كلتاهما تدعوان إلى بعث الأمل ، وإحياء موات النفوس ، فالأعرج قد يسبق ، والنخل الصغير الهزيل قد يثمر ، أو ليس السبق والإثمار من أقوى بواعث الأمل عند المكروبين؟

وقال ﷺ :

بين الخوف الرجاء

وبحب النبي فابغ رضا اللـ	ـه ففي حبه الرضا والحباء
يا نبي الهدى استغاثة ملهوف	أضرت بحاله الحوباء
يدعي الحب وهو يأمر بالسوء	ومن لي أن تصدق الرغباء
أي حب يصح منه وطرفي	واصل للكرى وطيفك راء
ليت شعري أذاك من عظم ذنب	أم خطوط المتيمين حظاء
إن يكن عظم زلتي حجب رؤيا	ك فقد عز داء قلبي الدواء
كيف يصدأ بالذنب قلب محب	وله ذكرك الجميل جلاء
هذه علتي وأنت طبيبي	ليس يخفى عليك في القلب داء[1]

في المجموعة السابقة تفتحت زهور الأمل أمام ناظري الناظم فاستبشر برحمة الله التي أحق الناس بها الضعفاء . فراح يدعونا إلى الإقبال على العمل الصالح مهما قل ؛ ويحذرنا من الحسد واليأس .

---

(١) ابغ : اطلب . الحباء : العطاء . الحوباء : الغمة . الرغباء : العزيمة الكرى : النوم . الطيف الخيال . راء محجوب . حظاء متفاوته . عز : امتنع . جلاء : طهارة وتنقية من الأدران والحجب .

أما في هذه المجموعة فنرى الناظم يرسم لنا معالم الطريق فيقول إن محبة الرسول عليه السلام هى أقوى سبب موصل إلى رضوان الله وعطائه ، وهذا مبدأ مسلم به لوروده في وثائق الإسلام من قرآن وسنة أفضى القرآن الكريم : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ واتباع الرسول عليه السلام دليل محبته ، وجاء رجل يسأل النبى عليه السلام عن الساعة فقال له : «وماذا أعددت لها حتى تسأل عنها؟ قال أعددت لها حب الله ورسوله . فقال عليه السلام : أنت مع من أحببت» وقال ﷺ : «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده ونفسه التي بين جنبيه».

ثم التفت ينادى الرسول فقال : يا نبي الهدى إني أستغيث بك إغاثة ملهوف مكروب أحاطت به ذنوبه فأغمته ، يزعم أنه يحبكم ولا ينتهي عن السوء ، وعلامة الحب الصادق هي طاعة المحبوب ، إنني لم أوف بحق حبكم فظلمت نفسي ولكني عزمت على التزام الطاعة ، فمن يعينني على أن تصدق تلك العزيمة فيحسن حالي .

وكيف يكون حبه صحيحاً والنوم لا يفارق عيني ولم أحظ برؤيا طيف الحبيب .

وإنه ليحيرني أنني لم أعلم سبب اختفائه عني ، أعظم ذنوبي هو السبب أم إن حظوظ المحبين مقامات متفاوتة عند المحبوب ، لكل منهم مقام معلوم ومقامي هو الحرمان من المشاهدة .

إن كان السبب هو عظم ذنوبي فيالطول شقوتي ، لأن حالي هو قاتلي وليس لأمراض قلبي دواء .

ولكن كيف يصدأ قلب فيه من حب المصطفى ﷺ ولو القليل إن ذلك القليل من الحب كفيل بصقل القلب وتطهيره من الأغيار ، يا رسول الله : هذه عللي وأسقامي أبوح بها إليك وأبثها في حضرتك لأنك الطبيب الحاذق الذي لا يخفى عليه دواء داء ، ولا برء سقم!؟

وإلى هذا المعنى أشار الناظم بقوله :

هذه علتي وأنت طبيبي ليس يخفى عليك في القلب داء

وإنما فسرنا هذا البيت بما تقدم حتى لا يقع في وهم أحد أن الرسول عليه السلام عليم بذات الصدور ، لأن علم ما في القلوب والطوايا صفة استأثر الله بها وحده ، فلا رسول ولا نبي ولا ملك يطلع خفايا النفوس فعلم ذلك لله وحده لا شريك له .

ويمكن حمل كلام الناظم على معنى آخر قريب من معناه الظاهري دون المساس بما تقرر استئثار الله به من علم الخفايا والأسرار . وحاصل ذلك أن الرسول عليه السلام يهتدي إلى معرفة ما في القلوب بتصرفات الإنسان نفسه . فالذي لا يثبت على حالة واحدة كأن يمدح الشخص في حضوره ويذمه في غيبته لتحقق مصلحة له فإن هذا السلوك يدل على داء النفاق في القلب ، والذي يسعى وراء الدنيا يجمعها من حلها وحرامها يدل تصرفه هذا على أن في القلب داء الطمع والحرص ، ومصداقاً لهذا فقد رأى النبي رجلا يصلي وهو يعبث فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » . وقال لرجل سب رجلا آخر فعيره بأمه قائلا : « يا ابن السوداء » فقال عليه السلام : « إنك امرؤ فيك جاهلية » .

هذا ، ولا يمكن حمل كلام الناظم على ظاهره لما تقدم ، ولأن الرسول نفسه نفى مواضع كثيرة أن يكون علم يتجاوز حدود ما ظهر ، ففي مسألة الفصل في الخصومات يقرر عليه السلام أن حكمه لا يحلل حراماً ولا يحرم حلالا ، فيقول : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليَّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من أخيه ، فأقضي نحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه شيئا فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » وهذا تقرير واضح لسلطات الرسول عليه السلام ورسم دقيق لحدود الدائرة التي يتحرك فيها وهي دائرة « الظواهر » أما البواطن فعلمها عند الله وحده .

وكما نفى عليه السلام عن نفسه معرفة الخفايا والأسرار . نفى عن غيره أن يكون له ذلك من باب أولى . فقد ذم أحدهم رجلا في حضرته ذما ينصب على ما في قلبه من عقيدة . فنهاه ﷺ وقال : « هلا نقبت في قلبه » أو « هلا فتشت في قلبه » .

ولا نظن أن الناظم أراد بقوله هذا غير أحد هذين التفسيرين ، أو هما معاً وإن جاء قوله صالحاً لغيرهما فإن فقهه بأمور الدين عاصم له من إرادة المحظور .

وكأني بك تقول : إن الناظم في هذه المجموعة . وفي غيرها أحياناً تضطرب معانيه وتتضارب متناقضا مع نفسه . فمرة يقول إن حبه للرسول ادعاء وزيف . ومرة يقول : كيف يصدأ قلبه وهو عامر بحب الرسول عليه السلام وهو دائم الذكر له وهذا الذكر هو جلاء قلبه وصقل . وهذا سوء صنيع من الناظم فإنه إما محب صادق ، وإما مدع كذوب . فكيف يجمع بين الأمرين وفي فور واحد؟

وللإجابة أذكرك بأن الناظم يعيش بين الرجاء والخوف . فعندما يتغلب الخوف على الرجاء يرمي نفسه بكل قصور ، ويرى حبه غير واف بالمقام الكريم فيبكي وينوح وعندما يتغلب الرجاء على الخوف يفرح ، ويستبشر ويعتز بحبه وعمله الصالح . وما هذا ولا ذاك بالمعيب أو المبتدع في سلوك العابدين المقتفين أثره ﷺ . فليس ما صرح به هنا أو هناك تضارب أو اضطراب ، وإنما هي أحوال تعتري خواطر السالكين فتجري آثارها على ألسنتهم . والناظم رجل متصوف . وللمتصوف معيار حساس جدا في وزن الأعمال واعتبارها أو عدم اعتبارها . ومن تلك المعايير أنهم يقولون « كل طاعة تقدمها لله فترى لك فضلا فيها فهي معصية محسوبة عليك . وكل معصية تقع من غيرك فتعيره بها فهي لك». وهذا مجال فسيح جداً . فحسبنا منه ما قدمت .

أما قول الناظم « وطيفك راء» يريد مختفياً عنى ففيه إشارة إلى قصة واصل ابن عطاء الله السكندرى إذ كان ألثغ لا يجيد النطق بحرف الراء فكان يتحاشى في كلامه جهد المستطاع أن يتلفظ بكلمة تشمل على ذلك الحرف . فاختفى حرف الراء من كلامه أو كاد . وعلى هذا ففي هذه العبارة تشبيه دقيق المأخذ ولعل القصة المشار إليها كانت مشهورة في عصر الناظم ، لأن من شروط المشبه به ـ أحياناً ـ أن يكون أعرف في وجه الشبه من المشبه والتشبيه بالخفي غير محمود عند البلاغيين لأن المقصود منه في الغالب الكشف والبيان وإشارة الناظم هنا إلى هذه القصة تندرج عند البديعيين تحت باب التلميح وهو الإشارة في الشعر إلى قصة أو واقعة ، والمراد من الاستفهام في قوله : « من لي أن تصدق الرغباء» فيه معنى الاستبعاد أما نظيره في قوله : « أي حب يصح منه» فهو للإنكار والتوبيخ . أما قوله : « نبي الهدى» ففيه التفات بعد قوله « وبحب النبي » .

كذلك نرى الناظم يتحدث عن نفسه بضمير المتكلم مرة . وبضمير الغائب أخرى وهذا نوع من التلوين في العبارة فيه استرواح للسامع بالإضافة إلى بعض الاعتبارات البيانية . فهو إن رضي على نفسه صرح بنسبتها إليه مغلبا للرجاء على الخوف مثل : من لي أن تصدق الرغباء . ومثل . طرفي واصل للكرى . في مثل : « أضرت بحاله الحوباء » ومثل : يدعي الحب وهو يأمر بالسوء وأي حب يصح منه أما قوله : كيف يصدأ » فالاستفهام فيه للاستبعاد وكذلك . وقوله يصدأ مجاز استعاري شبه فيه تراكم الذنوب على القلب بالصدأ بجامع أن كلا منهما ـ يحجب ويغطى ، ويتلف ، فصدأ الحديد تآكل فيه ، وصدأ القلوب قسوة . ولكل شيء آفة من جنسه .

وهذه الاستعارة وثيقة الصلة بالبيان القرآني ولا أخال الناظم إلا مستفيداً منه إذا يقول الحكيم سبحانه : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والران الصدأ يعلو الأجسام .

ومثل هذه الاستعارة قوله قبلها : « إن يكن عظيم زلتي حجب رؤياك » ولا اختلاف بينها إلا في اللفظ .

هذه علتي وأنت طبيبي

ففيه مجاز تمثيلي حيث شبه نفسه بالمريض المشرف على الموت ، وشبه الرسول عليه السلام بالطبيب الذي يهب المرضى السلامة بإذن الله وتوفيقه واسم الإشارة « هذه » مشار به إلى ما عدد الناظم من المساوئ حتى صارت مجسمة محسوسة ترى بالبصر . وهذه سمة المخلصين يتهمون أنفسهم بالقصور والمعاصي وإن كانوا أبرياء طاهري السيرة والسريرة . فإنهم يرون في التوفيق نعمة تستوجب الشكر ، فإن شكروا رأوا في الشكر نعمة تستوجب شكراً آخر ، وهكذا فهم مدينون لمولى النعم ولن يوفوه حقه . فالقصور وهو ذنب ، ملازم لهم مهما عملوا .

وقال ﷺ :

شكوى ومدخل

ومن الفوز أن أبثك شكوى ... هي شكوى إليك وهي اقتضاء

ضـــمنتها مــــدائح مســـتطاب	فيـــك منـــها المـــديح والإصــــفاء
قلمـــا حاولـــت مـــديحك إلا	ســـاعدتما مـــيم ودال وحـــاء
حق لي فيـــك أن أســـاجل قومـــا	سلمت منـــهمو لـــدلوي الـــدلاء
إن لي غـــيرة وقـــد زاحمـــني	في معـــاني مـــديحك الشـــعراء[1]

في هذه الأبيات يقول الناظم : يا رسول الله إن لدي شكوى أرى من السعادة الغامرة ، والفوز المرجو أن أظهرها لك . وأبثها أمامك إنها شكوى من نوع فريد ، لأنها شكوى إليك ، وهي طلب منك . هذه الشكوى قد صغتها في صور من المديح فيك بما أنت أعظم من أهله ، لأنها مهما اجتهدت في تجميلها وتدبيجها فلن توفيك حقك ، ولكنه جهد المقل بما ملكت يداه . مدائح يطيب صوغها ويطيب للسامع الإصغاء إليها .

مدائح كلما حاولت الشكوى إبرازها أطاعتها أحاسن الألفاظ بروائع المعانى متضمنة أرفع وأجل معاني المدح ، مستمدة من شمائلك الغرر وسيرتك الباهرة . وأوصافك النيرة . وسجاياك العبقة سداها ولحمتها . فمثلك لا ينتهي القول فيه ، ولا تضيق مناهب الشعراء حوله .

مدحتك ، وقد حق لي المدح فيك . فنافست فيه قوماً جعلوا صناعتهم مدحك فصوروا وأبدعوا . وجودوا وحسنوا . فلما زاحموني في مدحك ونزحت بدلوي مما ينزحون . غلبت دلوي دلاءهم . فسلمت تلك الدلاء لدلوي .

وما لذلك الغلب من سبب سوى أني وله في حبك ، أسير ولائك بملء قلبي غيرة وحمية وحماسة . فمدحتك صادقاً ، ووصفتك مفتونا وتوسلت بك راجياً ، لم أتكلف شعوراً ، ولم أدع مستحيلاً . وإنما كنت أصدر في مدحك عن إحساس نفس ، وحرقة شوق ، فمرق سهمي وأكدت سهامهم . وامتلأت دلائي ، وصفرت دلاؤهم . كان مدحي فيك هو الصوت القوي الدوي . وكان مدحهم فيك هو الصدى الخافت الوني .

---

(١) أبثك . أبوح لك اقتضاء : طلب . ضمنتها : احتوتها . مستطاب مستلذ . ميم ودال وحاء : مدح : أساجل : أفاخر وأغالب الدلو : ما ينزح به الماء من البئر . غيرة : مماسة .

وهكذا نرى الناظم يتخذ من شكواه ، مدخلا لبدائع مدحه . لذا نرى أنه في البيت الأول من هذه المجموعة يجمل ثم يفصل . الإجمال في قوله « أبثك شكوى » والتفصيل في قوله : « هي شكوى إليك وهي اقتضاء » وقدم مدائحه بطعام لذيذ يشعر بحلاوته اللسان عند التذوق . كان التذوق هنا إنشاء وسماعا أو سماعاً .

كما شبه الشكوى بذي إرادة وتصرف ، ثم حذف المشبه به ودل عليه بذكر لازمه للمشبه فقال : قلما حاولت ، والمحاولة لا تكون إلا لعاقل متصرف وهذه هي الاستعارة المكنية . ويمكن حمل العبارة على المجاز العقلي الذي علاقته المفعولية أي كلما حاولها صاحبها » .

أما قوله : ساعدتها ميم . . . فهو ترشيح إذا قلنا بالاستعارة المكنية ونوع الترشيح فيه مجازي استعارة مكنية كذلك .

حق لي فيك أن أساجل قوماً سلمت منهم لدلوي الدلاء

فهو مجاز مركب أو استعارة تمثيلية . شبه حاله مع الشعراء وهم يتنافسون في مدحه ﷺ كل منهم ينشئ ويؤلف بحال قوم اجتمعوا على حافة بئر كل منهم ينزح منها بدلو جاهداً في غيرونى ، فإذا بأحدهم لا يفري فرية أحد فيمسك الناس دلاءهم إعياء ويأساً ويظل هو نازحاً زلال الماء وعذبه .

وهذه صورة جميلة تثير في النفوس حركة دائبة في دنيا الخيال في كليات الصورة وجزئياتها . ويمكن اعتبارها استعارتين مكنيتين إحداهما في أساجل حيث شبه نفسه بمن ينزح من بئر ، فحذف المشبه به ورمز له بالمساجلة . وثانيتهما في قوله : « سلمت منهم لدلوي الدلاء » على أن تكون هذه ترشيحاً للأولى .

وأيا كان التوجيه البلاغي للمسألة فإن الصورة البيانية فيها من الصور « البوصيريات » الفريدة الممتعة .

انظر إلى قوله « حق لي فيك » وتأمل قوة المطلع في البيت ، ثم جعل فاعل « حق » المصدر المؤول من أن والفعل « أن أساجل » أى مساجلة « ثم جعل مفعول « المساجلة » كلمة « قوماً » وصاغها منكرة فكساها ثوبا من الفخامة . ثم جعل شرط

البيت الثاني سلمت منهم لدلوي الدلاء» صفة لـ « قوما » فتحقق له بهذه الصفة الغلبة عليهم . والبيت في مبناه سلس مطواع ينحدر على اللسان والسمع والذوق كما ينحدر الماء النمير في « حلق» الظامى المتقد .

أن لي غيرة وقد زاحمتني	في معاني مديحك الشعراء

فلا يقل في ألفاظه ومعانيه وسلاسته عن البيت الذي تقدم عليه وقد ضمنه الاستعارة اللطيفة في قوله «زاحمتى الشعراء» وازدحام الناس لا يكون إلا على شيء مطلوب محس . فهاهنا ـ كذلك ـ استعارة مكنية موجبة .

وقال ﷺ :

الناظم يصف مدحه في النبي الكريم

ولقلبي فيك الغلو وأنى	للساني في مدحك الغلواء
فأثب خاطراً يطيب له مد	حك علماً بأنه اللألاء
حاك من صنعة القريض بروداً	لك لم تحك وشيها صنعاء
أعجز الدر نظمه فاستوت فيـ	ـه اليدان : الصناع والخرقاء
فارضه أفصح امرئ نطق الضا	د فقامت تغار منها الظاء
أبذكر الآيات أوفيك مدحاً	أين مني وأين منها الوفاء
أم أماري بهن قوم نبي	ساء ما ظنه بي الأغبياء
ولك الأمة التي غبطتها	بك لما أتيتها الأنبياء
لم تخف بعد الضلال وفينا	وارثو نور هديك العلماء
فانقضت آي الأنبياء وآياتك	في الناس مالهن انقضاء[1]

انتهينا في المجموعة السابقة عند تصوير الناظم هيئة الشعراء وهم يتنافسون في مدح الرسول عليه السلام كل منهم يريد أن يحوز كأس الفوز . وقال الناظم هناك بأنه

---

(١) الغلو : الزيادة فى الحب . أنى : كيف . الغلواء : البعد والمراد به هنا الإسراع والتقدم . أثب : كافئ . اللألاء : الفرح . حاك : نسج القريض الشعر بروداً : حللا . وشيها : زينتها . الدر : معدن نفيس الصناع : الماهرة . الخرقاء : العاجزة . أمارى : أجادل . غبطتها أى أعجبت بها انقضت انتهت أى : معجزات . انقضاء : انتهاء .

فاقهم فلم يصنع واحد « منهم مثل صنيعه . ثم عاد هنا يبين السر في ذلك السبق ، وحصره في أمرين : أحدهما مجاوزته الحد المألوف في حبه ﷺ . وثانيهما إمداد المحبوب له بأسباب روعة المديح وأنه لو لم يكن له منك ذلك الإمداد لكان مثل بقية الشعراء يصيب ويخطىء . هذا هو معنى البيت الأول . وبعده مباشرة يأمل الناظم من الرسول عليه السلام أن يمن عليه بالشفاعة التي يطمئن بها خاطره الذي طاب له المدح فيه . وهو فرح بذلك المدح اللألاء المنير فصنع منه العبقري الحسان فأعجزت الدر النظيم في حسنها وفاقت برود صنعاء المشهورة بجودة الصنع . واستوى في العجز عن الإتيان بمثلها كل الأيدي فصارت الماهرة خرقاء .

وأملى أن تمن عليَّ يا أفصح الناس بهذه المدائح الفصيحة وإن لم تبلغ معشار عشر فصاحتك . أن يمن عليَّ بالشفاعة يوم يقوم الحساب ومقدرة فإني لن أوفيك حقك بصوغ معجزاتك وشمائلك في القصيدة فما أبعد الوفاء عني وعنها فليس في تعديد الفضائل وفاء بحق الفاضل هي مدائح خالصة لم أقصد بها الحظوة عند الناس كما يظن الأغبياء لي أن من مفاخرك أمتك العريقة التي تنتسب إليك وبها غطبتك الأنبياء وتمنوا أن يكون ممن شرفتهم بدعوتك الخالدة الظاهرة لقد عمرت فينا سنينا هي أخصب فترة عاشها على وجه الأرض إنسان فاستقامت بك الملة وأقيمت الحجة ليحيا من حي عن بينة ، ويهلك من هلك عن بينة .

ثم مضيت إلى حيث أراد ربك وكأنك تعيش بيننا لانخاف بعدك ضلالا وقد تركت فينا كتاب الله وسنة رسوله ، وقام المخلصون من العلماء يؤدون دورهم في أمانة ولا جرم فهم ورثة الأنبياء صلوات الله عليهم .

مضيت وبقيت رسالتك خالدة كما بقيت معجزاتك بين الناس ومضى الأنبياء من قبلك فمضت معهم معجزاتهم وصارت خبراً يصدقها المؤمن ، ويردها المرتاب .

أما بلاغيات هذه المجموعة فتراها جناس الأشقاق بين الغلو والغلواء وتشبيه المدح ـ كما مر ـ بالمطعوم المستلذ ، ثم تشبيهه بالنور في قوله : « أنه اللألاء » وتشبيه القصيد بالحلل المزخرفة الموشاة والاستعارة المكنية في قوله : « أعجز الدر نظمه » والترشيح في قوله : اليدان الصناع والخرقاء . وهو الإتيان بمثنى ثم تفسيره بذكر

مفرديه والكناية عن الموصوف في قوله : « أفصح من نطق بالضاد » والاستعارة المكنية في قوله : « فقامت تغار منها الظاء » والتخييل البديع الذي تولد عن هذه الاستعارة .

والاستفهام المراد به النفي في قوله : أبذكر الآيات؟ أين مني وأين منها أم أماري بهن . وتشبيه الهداية بالنور في قوله : وارثو نور هديك العلماء والتطبيق المسلوب في قوله : فانقضت . . ومالهن انقضاء . ثم جناس الاشتقاق فيهما أيضاً .

وقال ﷺ :

مدح لم يوف بالمقام

والكرامات منهمو معجزات	حازها من نوالك الأولياء
إن من معجزاتك العجز عن وصـ	ـفك إذ لا يعده الإحصاء
كيف يستوعب الكلام سجايا	ك وهل تنزح البحار الركاء
ليس من غاية لمدحك أبغيـ	ـها وللقول غاية وانتهاء
إنما فضلك الزمان وآيا	تك فيما تعده الآناء
لم أطل في تعداد مدحك نطقي	ومرادي بذلك استقصاء
غير أني ظمآن وجد ومالي	بقليل من الورود ارتواء[1]

هذه المجموعة هي خاتمة لما بدأه الناظم من قوله : كيف ترقى رقيك الأنبياء لأن المجموعة التي بعدها إنما هي تسليمات وصلوات ودعاء وثناء عام أشبه ما يكون بعبارات التحية المألوفة المعاني والتراكيب وهي لقطات سريعة خاطفة بعد أن فرغ الناظم مما أراد أن يقوله تفصيل في القول على الوجوه التي مرت .

إذا استقر هذا فإن نهاية المطاف في هذه الرحلة الطويلة الممتعة ما بينه الناظم في عدة أمور :

---

(١) حازها : اكتسبها نوالك: عطاؤك . الركاء : جمع ركوة وهى القرب التي يحمل فيها الماء . أبغيها : أطلبها . الآناء : جمع آن وهو الجزء الحاضر من الزمن . استقصاء : تتبع لكل الأفراد . الوجد : ما استقر في النفس عن طرق الانفعالات الباطنة .

أولا : إن كل فضل تحوزه الأمة بعده فمنه مستمد سواء كان ذلك كرامات حازها أولياء الله المكرمون ، أو توفيقا للطاعة والهداية عند عامة المسلمين . جاء هذا المعنى في البيت الأول كما ترى من النظر فيه .

ثانيا : إن وفاء النبي عليه السلام حقه من المدح والوصف والثناء ليس في طوع أحد . وهذا العجز هو إحدى معجزاته المستمرة وضمن الناظم هذه الحقيقة البيت الثاني من مجموعة الختام .

ثالثا : إن سبب هذا العجز أمران أحدهما تعدد مناهب الفضل في شخصية الرسول ﷺ تعدداً يصعب الإحاطة به . وثانيهما ضعف آلة البيان عن الوفاء . بحق مهما بلغت براعة المادح وطاوعته أساليب البيان . جاء هذا المعنى في الجزء الثاني من البيت الثاني . وفي البيت الثالث كله وهو قوله :

كيف يستوعب الكلام سجايا ك وهل تنزح البحار الركاء

والاستفهامان اللذان به للاستبعاد . فقد شبه الألفاظ بالركاء التي تنزح الماء ، وشبه سجاياه ﷺ بالبحار . والركاء لا قدرة لها على نزع بحر واحد . فما بالك إذا كان المراد نزحه بحاراً متعددة لا بحراً واحداً؟ فها هنا مجازان استعاريان ، أحدهما ترشيح للآخر . فإذا اعتبرنا المجاز أولا في البحار كانت الركاء ترشيحاً له وتقوية ، وإذا نظرنا إلى المجاز في « الركاء» كانت « البحار» ترشيحاً كذلك .

وقوله :« وهل تنزح البحار الركاء» يمكن حمله على المجاز المركب أو الاستعارة التمثيلية بأن يشبه حال من يريد الوفاء بحقه ﷺ من المدح والثناء عن طريق الكلام بهيئة من يحاول أن ينزح ماء البحار بالركوة ، والجامع بين الصورتين استحالة تحقيق المراد ، وعلى أي وجه فسرنا قول الناظم فهو متضمن لكناية عن صفة وهي : عدم إمكان وفائه بحقه عن طريق الكلام .

كما أن عجز البيت « وهل تنزح البحار الركاء» استئناف تقريري مؤكد لصدره : « كيف يستوعب الكلام سجاياك؟» فأعجب به من شاعر حكيم .

أما قوله « تنزح» فضلا عن كونه مجازاً في موقعه لأنه مستعار للوفاء بحق المدح ، فهو ترشيح للاستعارتين التاليتين له « البحار ـ والركاء» .

رابعاً : « قرر الناظم في البيت الرابع أن مدح الرسول عليه السلام ليس له غاية حتى يصل إليها مادح ، أما القول فله غاية وانتهاء ، فكيف يوفي المحدود المغيا بحق ما لا حد له ولا غاية ، وهذه الحقيقة مؤكدة لما سبق بيانه .

ثم عاد فشبه آياته وشمائله ﷺ في عدم إمكان عدها والإحاطة بها بالزمان وأجزائه ، فكما لا يمكن حصر الزمان ولا عد أجزائه ، لا يمكن الإحاطة بصفات أكرم الخلق ﷺ وقد أشار الناظم إلى هذا المعنى في البيت الخامس فتأمله .

إنما فضلك الزمان وآيا   تك فيما تعده الآناء

خامسا : حين قرر الناظم عجز الكلام عن الوفاء بحق مدح الرسول عليه السلام وقرر أن مدحه لا غاية له حتى تطلب ، استشعر سؤالا مؤداه . ولم هذه الإطالة منك أيها الناظم؟ فمادمت مقراً بالعجز فلم لم تكتف بما هو دون ذلك؟ ، ولهذا أجاب الناظم بهذين البيتين :

لم أطل في تعداد مدحك نطقي   ومرادي بذلك استقصاء
غير أني ظمآن وجد مالي   بقليل من الورود ارتواء

أجل : إنه لم يطل بغية الحصر والشمول ، ولكنه محب له وطول الكلام مع المحبوب له سعادة واستطابة . إنه ظمآن إلى المناجاة والتخاطب وظمأه لا ترويه الجرعة ولا الجرعتان ولا ألوف الجرعات ، كلما شرب أحس بالظمأ لعذوبة المشروب وكرم الساقي شبه الناظم شوقه إلى صفات الكمال بالعطش إلى الماء الزلال . وشبه الاقتصاد في المدح بقلة ورود الماء ، والإطناب فيه بكثرة الورود وظمأه الشديد لا يرويه الورود القليل ولا الكثير ، ولكن في الكثير من الكفاء ما ليس في القليل ، ولذلك أطال وأطال ، وإلى هنا تنتهي الرحلة ما بين « كيف ترقى رقيك الأنبياء » وبين : ومالي في قليل من الورود ارتواء » بعد أن طوف بنا الناظم في آفاق بعيدة كثيرة الشموس والأقمار والنجوم ، أو هي روضة غناء حفلت بكل أنواع الزهور والثمار ، فيها متعة للنفس ، وبهجة للنظر . وغذاء للعقل والروح . يشجيك نسيمها ، وتطربك ألحان أيكها ، لا تنتهي إلى غاية فيها حتى تشتاق إلى معاودتها مرات ومرات ، فإذا بلغت غايتها فلا إخالك إلا بادئا بها من جديد ، أدب وفن ، شعر

وشعور ، فكر وفلسفة ، ومنطق وقياس ، تاريخ وسيرة ، قصة وتشريع ، وصف وتشخيص إلى آخر ما عمرت به هذه الملحمة الشعرية الفريدة العصماء .

ويأبى الناظم إلا أن يذري على «طعامه» الطاهر الكريم الطيب الذي وضعه أمامك على المائدة ، يأبى إلا أن يذري عليه قدراً من البهار ، ، يفوح للقادم من بعيد ، فيستمتع قبل أن يرى ويتذوق . ولئن كان قوله في البدء :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ياسماء ما طاولتها سماء

منارة على رأس الطريق . . فإن قوله الآتي - بعد - لهو ختام المسك الذي يشتمه الشارب عند نهاية الكأس فيغريه على استئناف الشرب من جديد فاستمع إليه في مسك الختام .

قال ﷺ :

«مسك الختام»

فسلام عليك تترى من اللـ ـه وتبقى به لك البأواء

وسلام عليك منك فما غيـ ـرك منه لك السلام كفاء

وسلام من كل ما خلق اللـ ـه لتحيا بذكراك الأملاء

وصلاة كالمسك تحمله مـ ـني شمآل إليك أو نكباء

وسلام على ضريحك تخضـ ـل به منه تربة وعساء

وثناء قدمت بين يدى نجـ ـواى إذ لم يكن لدي ثراء

ما أقام الصلاة من عبد اللـ ـه وقامت بربها الأشياء[1]

بدأ الناظم مجموعة مسك الختام بسلام الله على رسول الله ﷺ والسلام من الله أشرف سلام عليه ولذلك بدأ به الناظم . وبسبب هذا السلام الرفيع المنزلة تتابع للرسول عليه السلام خلع الشرف والفخر «البأواء» وتبقى خالدة مدى الدهر .

---

(١) تترى : تتابع : البأواء : الفخر والشرف . كفاء: واف . الأملاء : جمع ملأ وهو الجماعة من الناس . ريح الشمال هي التي تهب من شمال الكعبة والنكباء التي تهب من بين ريحين . تخضل : تندى بقطرات الماء وعساء : سهلة رملية .

ثم ثنى بالسلام عليه منه أي بسلام الرسول على نفسه . وإذا كان سلام الله أشرف سلام على الإطلاق ، فإن سلام محمد ﷺ على نفسه أشرف سلام من مخلوقات الله ، فهو أدنى من سلام الله ، وأرفع شأنا من سلام من عداه ولهذا يقول الناظم : « فما غيرك منه لك السلام كفاء » وهذه الصورة البديعة والمعنى البكر لا أظنه معروف خارج دائرة « البوصيريات » ثم ثلث بالسلام عليه من كافة المخلوقات ، فالترتيب في هذه الصور الثلاث تنازلي بادئاً بالأعلى ، ومنتهياً بالأدنى .

وجعل الناظم من آثار سلام المخلوقات عليه ﷺ سبباً في حياة تلك المخلوقات فقال : « لتحيا به الأملاء » أي الجماعات ، والمقصود من الحياة هنا حياة القلوب لا حياة الأرواح في الأبدان ، لأنها إن خلت من حياة القلوب صار أصحابها أمواتاً .

ثم صلى عليه ﷺ صلاة وصفها بأنها كالمسك عطرة عتيقة تحملها ريح الشمال أو الريح النكباء إلى روضته الشريفة ، وبدأ الناظم بريح الشمال لأنها تسمى ريح الجنة تفاؤلا بهذا التقديم .

ثم أهدى السلام إلى ضريح المصطفى ﷺ سلاماً يقطر ندى لتعطر به منها جوانب المقام أي أنه بهذا السلام يفجر ما في المقام من عطر وطيب حتى يملأ أريجه أرجاءه ، فهذا نظير ما تقدم : فما غيرك منه لك السلام كفاء وهذا سلوك أدبي وذوقي استمطر به الناظم غيث المقام للمقام لأنه كامل والكامل لا يجلب له كمال من الناقص .

ويعترف الناظم بفقره من الطاعات فيقدم بين يدي نجواه صدقة « الثناء » وهذا أدب فاضل أن يرى أعماله الصالحة لاوزن لها إذا قيست بنعم الله وجلاله وقيد هذا الثناء بقيد هو الإطلاق في أوسع معانيه ، إذ هو مجلوب إليه ما أقام عابد صلاة وما قامت الألوان بما فيها من مظاهر وقوانين بسر ربها وحكمته وتدبيره ، وهذا معناه الدوام والدوام .

فاللهم صل على رسولك أزكى صلاة ، وسلم أكرم سلام وارض اللهم عن أصحابه وأنصاره وأهل بيته الأطهار وتابعيه ، وتابع تابعيه إلى يوم الدين . وارض اللهم على صاحب هذه « الملحمة » بقدر ما أحبك وأحب رسولك ، وأحب الحق وأهله ، واعف اللهم عنا إن نسينا أو أخطأنا ، وإن أصبنا فهب لنا أجراً وهيىء لنا من أمرنا رشداً يارب العالمين . آمين .

محتويات الكتاب